

جمهورية مصر العربية
وزارة التربية والتعليم

خديجة بنت خويلد

للصف الثانى
من المرحلة الإعدادية

للأستاذين

عبد السلام العشرى — محمد عبد الغنى حسن

حقوق الطبع محفوظة للوزارة

الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية

طبعة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ريحانة الدار

كَانَتْ دَارُ «خُوَيْلِدٍ» تَفِيضُ بِالْبِشْرِ وَالسُّرُورِ وَالْأُنْسِ ، لأَنَّ ابْنَتَهُ «خَدِيجَةَ» كَانَتْ مِلْءَ السَّمعِ وَالْبَصَرِ. فكانَ كُلٌّ مَنْ فى الدَّارِ يُحِبُّهَا وَيَتَعَلَّقُ بِهَا ، حَتَّى الْجَوَارِى اللَّائِى وَجَدْنَ فيها عَطْفًا وَحَنَانًا . فَكُنَّ يُسْرِعْنَ إلى تَلْبِيَةِ أَوَامِرِهَا . وكُلٌّ مِنْهُنَّ رَاضِيَةُ النَّفْسِ مُرْتَاحَةُ الْفُؤَادِ .

وَامْتَازَ «خُوَيْلدٌ» فى سَادَاتِ قُرَيْشٍ بِالْمَجْدِ وَالسِّيَادَةِ ، وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ . يُؤْخَذُ رَأْيُهُ ، ولا تُقْضَى الأُمُورُ بِدُونِهِ . وَحَوْلَهُ أُسْرَتُهُ الْكَبِيرَةُ الْعَرِيقَةُ[1] تُسَانِدُهُ .

وَامْتَازَ خُوَيْلِدٌ بِعَطْفٍ كَبِيرٍ علَى الْمَسَاكِينِ ، وَرَحْمَة

---

(١) العريقة : ذات المجد الممتد الى اصول بعيدة .

بِالْفُقَرَاءِ ، فَكَانَتْ دارُه مَثَابَةً[1] للناسِ ، يَجِدُونَ فِيهَا الظِّلَّ والرَّحمةَ والْعَافِيَةَ .

وفى هَذِهِ الدَّارِ الْمِضْيَافَةِ ، الكريمة الْوَاسِعَةِ الرِّحَابِ[2] ، نَشَأَتْ الْفَتَاةُ خَدِيجَةُ سَمْحَةً كَرِيمَةَ النَّفْسِ ، لم يُبْطِرْهَا الْغِنَى كما يُبْطِرُ كثيرًا مِنَ النَّاسِ . بل أَحَسَّتْ أَنَّ هَذِهِ النِّعَمَ الَّتِي تَمْرَحُ فيها ، وَتَرْتَعُ فى خَيْرَاتِهَا يَجِبُ أَنْ تُقَابَلَ بِالشُّكْرِ لله الَّذِى أَجْزَلَ[3] لها وَلِأَهْلِهَا الْعَطَاءَ .

وَوَجَدَتْ فى عَوْنِ الْمَحْرُومِينَ ، وَمُسَاعَدَةِ الْمُحْتَاجِين مَا يَنْهَضُ بِشُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ . فما رَدَّتْ سَائِلاً ، ولا خَيَّبَتْ قاصِدًا ، بل كَانَتْ تَهُشُّ[4] لِكُلِّ قَادِمٍ وَتَرْتَاحُ لِكُلِّ وَافِدٍ[5] ، لا تَضِيقُ بِمَنْ يَسْأَلُهَا ، ولا تَتَبَرَّمُ[6] بمن يَمُدُّ يَدَهُ إليها .

وَلَمْ تَخْرُجْ خَدِيجَةُ فى ذَلِكَ عَمَّا انْحَدَرَ إليها مِنْ صِفَاتِ

---

(١) مثابة للناس : مكانا يترددون اليه ويجدون فيه الأمان .
(٢) الرحاب : جمع رحبة : الساحة الواسعة .
(٣) أجزل لها : أعطاها كثيرا .
(٤) تهش : تبتسم وتظهر الفرح .
(٥) وافد : مقبل .
(٦) لا تتبرم : لا تضجر .

أَهْلِهَا وَقَوْمِهَا . وَخَاصَّةً أَباها الَّذى كَانَ قَلْبُهُ يَفِيضُ بالرَّحْمَةِ وَالْحَنَانِ ، لِكُلِّ إنسانٍ .

وَرَأى أَبُوها «خُوَيْلِدٌ» فِيها كَثِيرًا مِنْ صِفَاتِهِ ، فَزَادَ حُبُّهُ لَهَا وَسَرَّهُ قَلْبُهَا الكبيرُ ، وَنَفْسُهَا الطَّيِّبَةُ ، كما سَرَّهُ ذَكَاؤُهَا اللَّمَّاحُ(٤) ، وَعَزِيمَتُهَا الماضِيَةُ(٥) ، وَإِدْرَاكُهَا السَّرِيعُ ، وَحُسْنُ تَصْرِيفِهَا للأُمُورِ على وَجْهٍ فيهِ كثيرٌ مِنَ النَّجَاحِ وَالتَّوْفِيقِ وَالْقَبُولِ ، فأَرَاهَا مِنْ قَلبِه الرِّضَا الكثيرَ ، وأظهرَ ارْتِيَاحَهُ التَّامَّ لِكُلِّ ما كانَتْ تَأْتِي وما كانَتْ تَدَعُ .

وكَانَ إِذَا جَلَسَ فى الْبَيْتِ ، وَتَابَعَ باهْتِمَامٍ وُجُوهَ نشاطِهَا ، وَخِفَّةَ حَرَكَتِهَا ، وما تُشِيعُهُ فى جَوَانِبِ الْبَيْتِ مِنْ أُنْسٍ ، وَبَهْجَةٍ ، ابْتَسَمَ ابْتِسَامَةَ الرِّضَا وَالسُّرور ، ثم حَدَّثَ نَفْسَهُ قَائِلا :

— مَا أَظْلَمَ هؤُلاءِ الَّذِينَ يَكْرَهُونَ الْبَنَات ! وَمَا أَقْسَى حُكْمَهُمْ عَلَيْهِنَّ ! أَلَيْسَ فِيهِنَّ مِثْلُ خَدِيجَةَ ؟ ! إِنَّهَا رَيْحَانَةُ الدَّارِ ، وَبَهْجَةُ الأُسْرَةِ ... !

---

(١) اللماح : السريع الفهم .
(٢) الماضية : النافذة .

ثُمَّ يَمْضِي أَبُوهَا فَيَدْعُوهَا إِلَيْهِ ، وَيُحَدِّثُهَا ، وَيُمَتِّعُ نَفْسَهُ بِحَدِيثِهَا إليه ، وَيَظْهرُ الرِّضَا كَامِلا فى وَجْهِهِ ، وَقَدْ نَظَرَ إلى وَجْهِهَا الْمُشْرِقِ وَقَوَامِهَا الْبَدِيعِ ، ثُمَّ يُتَابِعُ حَدِيثَهُ مَعَهَا .

وكانَ فى الْفَتَاةِ حَيَاءٌ شَدِيدٌ يَمْنَعُ أَبَاهَا أَنْ يَحَدِّثَهَا عَنْ أُمُورِ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَانِ الَّذِينَ يَتَقَدَّمُونَ إِلَيْهِ كُلَّ يَوْم لِيَخْطُبُوهَا ، رَاغِبِينَ فى زِينَةِ الحيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ جَمَالٍ وَافِرٍ ، وَحَسَبٍ[1] ، ظَاهِرٍ ، وَمَالٍ كَثِيرٍ .

وَقَدْ عَصَمَهَا[2] حَيَاؤُهَا هِيَ أَيْضًا أَنْ تَهْتَمَّ بِأَمْرِ أُولئِكَ الشُّبَّانِ ، حِينَ يَصِلُ إلى مَسَامِعِهَا عَنْ طَرِيقِ الْجَوَارِى وَالْجَارَاتِ وَالصُّوَيْحِبَاتِ ، أَنَّهُمْ يَبْتَغُونَ إلى أَبِيهَا الْمُصَاهَرَةَ[3] ، وَيَتَوَسَّلُونَإِلَيْهِ بما فى أَيْدِيهِمْ منْ مَالٍ ، وَمَا وَرَاءَهُمْ من حَسَبٍ رَفِيعٍ ...

وَانْصَرَفَتْ خَدِيجَةُ إلى شُئونِ الْبَيْتِ وَتَدْبِيرِ أُمُورِهِ ، فلَم

---

(١) حسب : شرف .

(٢) عصمها حياؤها : حفظها وحماها .

(٣) يبتغون المصاهرة : يطلبون الصلة بالزواج من خديجة .

تَشْغَلْ نَفْسَهَا بالْتَفْكِير فى زَوْج ، أَوْ الاهْتِمَام بِخَاطِبٍ . .
وَاثِقَةٌ أَنَّ أَبَاهَا سَيَخْتَارُ لَهَا خَيْرَ الأَزْوَاجِ .

ومَا أَكْثَرَ مَا سَمِعَتْهُ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عنِ الزَّوَاجِ الطَّيِّبِ ، الصَّالِح ، بأَنَّهُ الْجَامِعُ لِخِلالِ(١) الْخَيْرِ وَالْمَرُوءَةِ وَالْكَرَم ، فَلا يَسْتَهْوِيهِ مَا يَسْتَهْوِى شَبَابَ مَكَّةَ وكَثِيرًا مِنْ شُيُوخِهَا . وأنه الذَّكِىُّ الْحَكِيمُ ، الَّذِى يزِنُ الأُمُورَ ، وَيُقَدِّرُ التَّبِعَاتِ(٢) وَيَحْمِلُ الأَعْبَاءَ(٣) ، ولا يَدْفَعُهُ الطَّيْشُ إلى ما يُحَطِّمُ مَرَاكِزَ الرِّجَالِ .

وَكَثِيرًا ما أَكَّدَ أَبُوهَا أَنَّ عَلاقَةَ الرَّجُلِ مَعَ النَّاسِ هِىَ صُورَةٌ مِنْ علاقاتِه مع أَهلِ بَيْتِهِ ، فالكَرِيمُ الطَّيِّبُ هُوَ دَائِمًا فى كُلِّ أَحوالِه سَواءٌ .

وَكَانَ مَسَاءٌ ، فَازْدَحَمَتْ دارُ خُوَيْلَدٍ بِجَمَاعَةٍ مِنْ بَنِى مَخْزُوم ، وَأَطَالُوا الزِّيَارَةَ ، وَأَخَذُوا بَيْنَهُم بِأَطْرَافِ الأَحَادِيثِ إِلَى مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ .

---

(١) لخلال الخير : لصفات الخير .
(٢) بقدر التبعـــات : يدرك المسئوليات .
(٣) يحمل الأعباء : يتولى الأمور المهمة الثقيلة الحمل .

فَلَمَّا انْفَضَّ جَمْعُهُمْ ، وانْصَرَفُوا إِلى بُيُوتِهِمْ ، ذَهَبَ خُوَيْلِدٌ إلى حُجْرَتِهِ ، وَقَضَى فيها فَتْرَةً مِنَ الْوَقْتِ يُحَادِثُ زَوْجَهُ فاطِمَةَ وَتُحَادِثُهُ ، ثُمَّ خَرَجَا وَقَدْ بَدَتْ على وَجْهَيْهِمَا عَلامَاتُ الرِّضا وَأَمَارَاتُ الارْتِيَاحِ .

وجَلَسَ خُوَيْلِدٌ فى فِنَاءِ الدَّارِ ، على بِسَاطٍ وَثِيرٍ[1] قَدْ مُدَّ لَهُ ، وَاتَّكَأَ على مُتَّكَإٍ مِنَ الْحَرِيرِ الْمُطَرَّزِ ، وَجَلَسَتْ زَوْجَتُهُ بِجَانِبِهِ ، ثُمَّ دَعَا إليه ابْنَتَهُ خَدِيجَةَ ، فَأَسْرَعَتْ إليهِ على اسْتِحْيَاءٍ ، وَوَقَفَتْ أَمَامَهُ فَارِعَةَ الْقَوَامِ[2]، وَهُوَ يَتَأَمَّلُهَا فِي ابْتِسَام ، فَلَمْ تَجْلِسْ إلاَّ بَعْدَ أَنْ أَذِنَ لها قَائِلاً :

— اقْعُدِى يَا خَدِيجَةُ ، سَأَتَحَدَّثُ إِلَيْكِ بِشَىْءٍ ، وَأَوَدُّ أَنْ أَعْرِفَ رَأْيَكِ الصَّرِيحَ فيهِ ، فَاسْتَمِعِى إلَىَّ وَفَكِّرِى فى الْجَوَابِ .

---

(١) بساط وثير : فراش لين .

(٢) فارعة القوام : طويلة رشيقة .

الأسئلة

(١)

«وفى هذه الدار المضيافة الكريمة الواسعة الرحاب ، نشأت الفتاة : (خديجة) سمحة كريمة النفس ، لم يبطرها الغنى كما يبطر كثيرا من الناس» .

(ا) هات مفرد (الرحاب) فى جملة توضح معناها .

(ب) ما معنى : «لم يبطرها الغنى» ؟

(جـ) بم وصف الكاتب الدار التى يتحدث عنها ؟ ولمن كانت هذه الدار ؟ وما غرضه من وصفها ؟

(٢)

«ورأى أبوها «خويلد» فيها كثيرا من صفاته ، فزاد حبه لها ، وسرّه قلبها الكبير ، ونفسها الطيبة ، كما سره ذكاؤها اللماح ، وعزيمتها الماضية ، وإدراكها السريع ...» .

(ا) ما معنى : «اللماح — الماضية» ؟

(ب) ما الصفات التى جعلت «خويلد» يحب ابنته خديجة ؟ وما الذى سره منها ؟

(جـ) ما اتصفت به السيدة : «خديجة» يجب أن يكون قدوة لنا نستفيد منه فى حياتنا . وضح .

٢ - خبر سـار

أَخَذَتْ نَظَرَاتُ خُوَيْلِدٍ تَتَّجِهُ إِلَى وَجْهِ خَدِيجَةَ ، وإلى عَيْنَيْهَا النَّجْلَاوَيْنِ[1] ، وَثَغْرِهَا الْبَاسِمِ ، ثُمَّ قَالَ فى حَنَانٍ :

ـ مَا رَأْيُكِ يَا خَدِيجَةُ فِيمَا أَعْدَدْنَا لِقَافِلَةِ الشَّامِ ؟

وَتَلَقَّتْ الْفَتَاةُ السُّؤَالَ بِابْتِسَامَةٍ جَمِيلَةٍ ، كَشَفَتْ عَنْ أَسْنَانٍ كَاللُّؤْلُؤِ ، ثم قَالَتْ فى أَدَبٍ :

ـ قَافلَةٌ مُوَفَّقَةٌ ، وَتِجَارَةٌ رَائِجَةٌ إِنْ شَاءَ الله لَنْ تَبُورَ[2] ، فَقَدْ حَوَتْ مَا أَوْصَى بِهِ عُمَلاؤُنَا ، منْ كُلِّ سلْعَةٍ تَجِدُ لَهَا فى تِلْكَ الْبِلادِ رَوَاجًا ، وقدْ أُعِدَّتْ أَحْسَنَ إِعْدَادٍ ، وَنُظِّمَتْ خَيْرَ تَنْظِيمٍ .

قالَ خُوَيْلَدٌ وَابْتِسَامَتُهُ تَزْدَادُ اتِّسَاعًا فَوْقَ شَفَتَيْهِ :

---

(١) النجلاوين : الواسعتين .
(٢) لن تبور : لن تكسد .

— مَا رَأْيُكِ يا خَديجةُ فى رِجَالِنا وَعُمَّالنَا الَّذِينَ سَنَبْعَثُهُمْ معَ الْقَافِلَةِ ؟

— قالتْ الفتاةُ ، وَقَدْ بَدَتْ على وَجْهِهَا بعضُ مَلامِحِ الْحِيرَةِ :

— إنَّهُمْ مَاهِرُونَ ، يَعْرِفُون مَا يَأْخُذُونَ وَمَا يَدَعُونَ(٢) ، وَهُمْ مَعَ تِلْكَ الْمَهَارَة أُمَنَاءُ مُخْلِصُونَ .

فَنَظَرَ خُوَيْلدٌ إلى فاطِمةَ ، ثمَّ أعادَ النَّظرَ إلى خديجةَ ، وقالَ فى رِفْقٍ :

— وَمَا رَأْيُكِ يا خَدِيجةُ فى أَمْهَرِ تُجَّارِ مَكَّةَ اليومَ ؟ وَمَنْ فِى نَظَرِكِ أَقْدَرُهُمْ على الرِّبْح ؟

فَفَكَّرَتْ الفتاةُ قَلِيلاً ، ثم سَأَلَتْ فى أَدَبٍ :

— أىُّ رِبْح تَعْنِى ؟ الرِّبْحَ الْحَلَالَ أَمْ الرِّبْحَ الْحَرَامَ ؟

قَالَ خُوَيلِدٌ بَاسِمًا :

— الرِّبْحَ الْحَلَالَ طَبْعًا يَا خَدِيجةُ ! فالرِّبْحُ الْحَرَامُ لايَدُومُ ، إنْ رَبِحَ صَاحِبُه مَرَّةً فَلَنْ يَرْبَحَ أُخْرَى ، وَلَنْ يَنْفَعَهُ مَا رَبِحَ ،

---

(١) وما يدعون : وما يتركون .

بَلْ يُسَلِّطُ اللهُ عليهِ ما يُضَيِّعُهُ جَمِيعًا ، إِنَّمَا أَسْأَلُكِ عَنْ الْمَهَرَةِ فى الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ الْحَلَالِ .

وَأَخَذَتْ الْفَتَاةُ تَعُدُّ بَعْضًا مِنْ تُجَّارِ مَكَّةَ الَّذِينَ اشْتَهَرُوا بِالصِّدْقِ ، وَعُرِفُوا بِالأَمَانَةِ ، وَكُلَّمَا سَكَتَتْ اسْتَزَادَهَا حَتَّى صَمَتَتْ فَنَظَرَ إِلَى أُمِّهَا ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيها ، وقَالَ مُتَرَفِّقًا فى السُّؤَالِ :

ـ وَمَا رَأْيُكِ يَاخَدِيجَةُ فِى عَتِيقِ بْنِ عَابِدٍ ؟ !

قَالَتْ فى جِدٍّ :

ـ هُوَ مِثْلُ بَنِى مَخْزُومٍ ، مَاهِرٌ فى التِّجَارَةِ ، خَبِيرٌ بِطُرُقِ الرِّبْحِ وَقَدْ ذَاقَ حَلَاوَةَ الْغِنَى ، فَدَفَعَهُ إلى أَنْ يَزِيدَ .

فَأَسْرَعَ خُوَيْلِدٌ سَائِلاً :

ـ مِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ ؟

فَأَجَابَتْ الْفَتَاةُ جَوَابَ الْمُقْتَنِعِ بِحَقِيقَةٍ يَعْرِفُهَا :

ـ أَشْهَدُ أَنَّهُ اشْتَهَرَ بالْحَلَالِ ، فَلَا يَقْرَبُ المالَ الْحَرَامَ . وَفَوْقَ ذَلِكَ اشْتَهَرَ بِأَنَّهُ شُجَاعٌ كَرِيمٌ ! وَإِنِّى لَأَعْرِفُهُ عَزِيزًا فى أَهْلِهِ ، مَحْبُوبًا مِنْ ذَوِيهِ ، وَمِنْ غَيْرِ ذَوِيهِ .

وَسَكَتَتْ الْفَتَاةُ لَحْظَةً ، ثُمَّ تَابَعَتْ فِى دَهْشَةٍ :

— أَتَوَدُّ أَنْ تَكِلَ إِلَيْهِ أَمْرَ تِجَارَتِنَا فِى الْقَافِلَةِ هَذِهِ الْمَرَّةَ ؟!

فَنَظَرَ إليها خُوَيْلِدُ مِنْ فَرْعِهَا[١] إلى قَدَمِها ، ثم قالَ فى حَنَانٍ :

— أَوَدُّ أَنْ أَكِلَ إِلَيْهِ أَمْرًا أَعْظَمَ مِنَ التِّجَارَةِ ، وَأَغْلَى مِنَ الْمَالِ ! أَوَدُّ أَنْ أُسَلِّمَهُ أَمانةً كبيرةً لا تُقَدَّرُ بمالٍ !

وَهُنَا ذَهَبَتْ أَفْكَارُ الْفَتَاةِ كُلَّ مَذْهَبٍ[٢] ، وَتَذَكَّرَتْ ضُيُوفَ اللَّيْلَةِ وَحَدِيثَ أَبِيهَا وَأُمِّهَا ، وَسَهَرِهِمَا إلى سَاعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ ، فَأَدْرَكَتْ مَايَرْمِى إليهِ أَبُوهَا مِنْ حِوَارِهِ ، فَاحْمَرَّ وَجْهُهَا خَجَلا ، وَأَطرَقَتْ سَاكِتَةً ، لا تَتَحَدَّثُ وَلَا تُجِيبُ .

وَقَطَعَتْ أُمُّهَا ذَلِكَ السُّكُونَ ، قَائِلَةً فِى بَسْمَةٍ لَطِيفَةٍ :

— مَا رَأْيُكِ يَا خَدِيجَةُ فِى عَتِيقٍ ؟

فَازْدَادَ وَجْهُ الْفَتَاةِ احْمِرَارًا ، وَظَلَّتْ مُطْرِقَةً وَاجِمَةً[٣] ثُمَّ

---

(١) من فرعها : من شعرها .
(٢) كل مذهب : كل اتجاه .
(٣) واجمة : ممسكة عن الكلام .

جَمَعَتْ أَطْرَافَ شَجَاعَتِهَا ، وَحَاوَلَتْ أَنْ تَتَكَلَّمَ ، فَتَعَثَّرَتْ الكَلماتُ فى فَمِهَا ، وَأَبُوهَا وَأُمُّها يَنْظُرَانِ إِلَيْها ، وَيَنْتَظِرَانِ مِنها الْجَوَابَ .

وَمَضَتْ فَتْرَةٌ طَوِيلَةٌ ، وَالْفَتَاةُ فى صَمْتِهَا ، فَلَمَّا أَعَادَ أَبُوهَا عَلَيْهَا السُّؤَالَ جَمَعَتْ أَطْرَافَ شَجَاعَتِهَا مَرَّةً أُخْرَى ، ثُمَّ قَالَتْ فى صَوْتٍ خَفِيضٍ يُجَلِّلُهُ(١) الْحَيَاءُ :

ـ وَهَلْ بَعْدَ رَأْيِ أَبِي مِنْ رَأْيٍ ؟ !

فَأَدْنَاهَا أَبُوهَا مِنْهُ ، وَطَبَعَ قُبْلَةً حَانِيَةً على جَبِينِهَا وَخَدَّيْهَا ، وقالَ فى حَنَانٍ :

ـ أَنْتِ تَسْتَحِقِّينَ عَتِيقًا ، وَعَتِيقٌ يَسْتَحِقُّكِ ، وَاللهُ يَصْنَعُ الْخَيْرَ وَيَجْعَلُ الطَّيِّبِينَ للطَّيِّبَاتِ ، وَالطَّيِّبَاتِ للطَّيِّبِينَ ، وَقَدْ اخْتَرْتُ لكِ بَعْدَ ما اختارَ اللهُ ، وَما كانَ لنَا أَنْ نَخْتَارَ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَأَرْجُو أَنْ يُبَارِكَ اللهُ هٰذَا الرِّباطَ ، وَأَنْ يَكُونَ عَتِيقٌ عِنْدَ ظَنِّي ، وَسَوْفَ يَكُونُ بإِذْنِ الله .

---

(١) يجلله الحياء : يزيده عظمة وتأثيرا .

ثُمَّ أَدْنَتْهَا أُمُّهَا ، وَقَبَّلَتْهَا فِي وَجْنَتَيْهَا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، ثُمَّ الْتَفَتَتْ إِلَى زَوْجِهَا خُوَيْلِدٍ ، وَقَالَتْ فِى اهْتِمَامٍ :

ـ لٰكِنَّا لَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نَزُفَّهَا سَرِيعًا كَمَا يُرِيدُ عَتِيقٌ ، فَلَابُدَّ مِنْ سَعَةٍ مِنَ الْوَقْتِ نُعِدُّ لها أَثَاثَهَا ، وَنُهَيِّئُ لَهَا جهَازَهَا كما تُجَهَّزُ مَثِيلَاتُهَا . . .

فَأَجَابَ خُوَيْلِدٌ فى رِفْقٍ :

ـ سَأُحَاوِلُ إِقْنَاعَهُ بِالتَّمَهُّلِ شَهْرًا أَوْ شَهْرَيْنِ ، حَتَّى تَعُودَ الْقَوَافِلُ بِمَا نُرِيدُ لِجِهَازِهَا مِنْ الْيَمَنِ وَالشَّام ، وَمَخَازِنُنَا مَمْلُوءَةٌ يَا فَاطِمَةُ ، فَأَشِيرِى بِمَا تُرِيدِينَ وَمَا تَتَخَيَّرِينَ ، فَكُلُّ ثَرْوَتِنَا مَبْذُولَةٌ لِخَدِيجَةَ .

ثُمَّ تَابَعَ الكلامَ ضَاحِكًا :

ـ لَكِنَّنِي لا أَسْتَطِيعُ تَأْخِيرَهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ !

فَضَحِكَتْ فَاطِمَةُ ، وَتَوَرَّدَتْ وَجْنَتَا الْفَتَاةِ . . . ثُمَّ قامَ كلٌّ مِنْهُمْ وَأَوَى إلى فِرَاشِهِ ، يُفَكِّرُ الأَبَوَانِ فى مُسْتَقْبَلِ فَتَاتِهِمَا ، وما هِيَ مُقْبِلَةٌ عَلَيْهِ مِنْ حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ ، فى غَيْرِ الْبَيْتِ الَّذِى

أَلِفَتْهُ[1] ، وَالعُشّ الَّذِى دَرَجَتْ فِيهِ ، وَتُفَكِّرُ الفتاةُ فى الشَّرِيكِ الَّذِى سَيُقَاسِمُهَا هَذِهِ الحياةَ .

* * *

الأسئلة

(١)

ما مضمون الحوار الذى دار بين : «خويلد» وابنته خديجة ؟ وماذا كان يقصد من وراء هذا الحوار ؟

(٢)

«الربح الحرام لا يدوم ، إن ربح صاحبه مرة فلن يربح أخرى ، ولن ينفعه ما ربح بل يسلِّط الله عليه ما يضيعه جميعا .

(ا) ما دلالة التعبير بكلمة (يسلط) التى فى العبارة ؟

(ب) ما مضمون العبارة السابقة ؟ وما الدرس المستفاد منها ؟

---

(١) ألفته : اعتادت عليه .

(جـ) ما دلالتها على شخصية قائلها ؟ ولماذا ؟

(٣)

«لن نستطيع أن نزفها سريعا كما يريد «عتيق» فلابد من سعة من الوقت ، نعد لها أثاثها ، ونهيء لها جهازها ، كما تجهز مثيلاتها» .

(ا) ما المقصود من «سعة من الوقت» ؟

(ب) أترى فرقا بين إعداد الأثاث ، وتهيئة الجهاز ؟ وضح .

(جـ) بِمَ يوحى التعبير بقوله : «كما تجهز مثيلاتها» ولماذا ؟

* * *

٣ ـ عروس قريش

عَادَتْ الْقَوَافِلُ إلَى مَكَّةَ تَحْمِلُ أَلْوَانَ السِّلَعِ ، مِنَ الطَّعَامِ ، وَالْفَاكِهَةِ ، والطِّيبِ ، وَالثِّيَابِ ، وَالْحُلِيِّ ، وَغَيْرِهَا ، وَمِنْ بَيْنِهَا تِجَارَةُ خُوَيْلِدٍ ، وَتِجَارَةُ عَتِيقٍ .

وَكَانَ أَفْخَرُ ما فِيهَا تِلْكَ الملابِسُ الزَّاهِيَةُ ، وَالأَوَانِي الْبَدِيعَةُ ، وَالطَّنَافِسُ[1] الْجَمِيلَةُ ، وَالأَبْسِطَةُ الْفَارِسِيَّةُ الثَّمِينَةُ ، وَأَلْوَانُ الطِّيبِ وَالْفِرَاشِ ، الَّتِي أَوْصَى بِهَا خُوَيْلِدٌ لِتُحْمَلَ مَعَ خَدِيجَةَ إلَى مَنْزِلِ عَتِيقٍ ، وما أَوْصَى بِهِ عَتِيقٌ لِيَبْعَثَهُ هَدِيَّةً إلَى عَرُوسِهِ .

وكانتْ مَكَّةُ كُلُّهَا تَنْتَظِرُ لَيْلَةَ الزِّفَافِ ، يَنْتَظِرُهَا الْفُقَرَاءُ ويَسْتَعْجِلُونَهَا طَمَعًا فِيمَا سَيُذْبَحُ فيهَا مِنَ الذَّبَائِحِ السَّمِينَةِ ، وما سَيَنَالُونَ مِنَ اللُّحُومِ مَطْهُوَّةً[2] وَغَيْرَ مَطْهُوَّةٍ .

---

(١) الطنافس : الثياب والبسط .

(٢) مطهوة : مطبوخة .

وَيَنْتَظِرُهَا الشَّبَابُ الَّذِينَ يَلْعَبُونَ بِالسُّيُوفِ فى السَّامِرِ ، وَيُظْهِرُونَ أَلْوَانَ فُرُوسِيَّتِهِمْ ، وَضُرُوبَ[١] قُدْرَتِهِم وَمَهَارَتِهِم ، وَافْتِنَانِهِم فى الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ ، وَالْكَرِّ[٢] وَالْفرِّ[٣] ، وَيَنَالُونَ مِنَ الشَّرَابِ وَالسَّمَرِ ما اعْتَادُوهُ فى مِثْلِ تِلكَ اللَّيَالِى الَّتِى يُقِيمُهَا أَغْنِيَاءُ مَكَّةَ احتفالاً بِزَوَاجِ أَبْنَائِهِم وَبَنَاتِهِم ، وَإِعْلَانًا لأَفْرَاحِهِم وَمَسَرَّاتِهِم .

وَيَنْتَظِرُهَا الشُّيُوخُ الَّذِينَ لا يَحْرِمُونَ أَنْفُسَهُمْ مِمَّا يَنَالُهُ الشَّبَابُ فى مِثْلِ تِلْكَ اللَّيَالِى ، وَلِيَقْضُوا وَاجِبًا لِخُوَيْلِدٍ ، وَيَرُدُّوا لَهُ مُجَامَلَتَه إِيَّاهُم فى أَمْثَالِ تِلْكَ الْمُنَاسَبَةِ .

كما يَنْتَظِرُهَا غَيْرُ هَؤُلَاءِ وَهؤُلاءِ مِنَ الْحَاقِدِينَ على عَتِيقٍ ، لِفَوْزِه بِخَدِيجَةَ ، لِيُظْهِرُوا لِلنَّاسِ أَنَّ نُفُوسَهُمْ صَافِيَةٌ لَمْ يَدْخُلْهَا شَيْءٌ ، وَإِنْ كَانَتْ قُلُوبُهم تَكادُ تَحْتَرِقُ .

وكَمَا يَنْتَظِرُهَا الرِّجَالُ يَنْتَظِرُهَا النِّسَاءُ ، تُعِدُّ كُلُّ وَاحِدَةٍ

---

(١) ضروب : انواع .
(٢) الكر : الرجوع الى القتال .
(٣) الفــر : انعطاف الفارس ليكر على العدو .

مِنْهُنَّ أَفْخَرَ ثِيَابِها ، وَأَجْمَلَ زِينَتِهَا ، لِتَبْدُوَ فى وَسَطِ النِّسَاء بِمَظْهَرٍ يَلِيقُ بِمَنْزِلَتِهَا وَغِنَاهَا .

وَأُخْرَيَاتٌ يَنْتَظِرْنَهَا لِيُوَفِّينَ(١) فَاطِمَةَ أُمَّ خَدِيجَةَ مَا عَلَيْهِنَّ مِنَ الدَّينِ لَهَا ، لِأَنَّهَا لَمْ تَفُتْهَا مُنَاسَبَةٌ إِلاَّ شَارَكَتْ فِيهَا ؛ تُهَنِّئُهُنَّ فى أَفْرَاحِهِنَّ ، وَتُهْدِى إِلَيْهِنَّ ، وَتُوَاسِيهِنَّ فى أَحْزَانِهِنَّ ، وَتُسَاعِدُهُنَّ .

تُفَكِّرُ كُلٌّ مِنْهُنَّ فى هَدِيَّةٍ ثَمِينَةٍ تُهْدِيها إلى الْعَرُوسِ ، كما أَهْدَتْ أُمُّها لِبَنَاتِهِنَّ ، وكما أَهْدَتْ إِلَيْهِنَّ .

وَمَعَ هَؤُلَاءِ وَهؤُلَاءِ خَدَمُ الْكَعْبَةِ ، الَّذِينَ يَنَالُهُم خَيْرٌ كَثِيرٌ عِنْدَ زَوَاجِ الأَغْنِيَاءِ ، وَقَدْ أَخَذُوا يُعِدُّونَ الْكَعْبَةَ لِتِلْكَ اللَّيْلَةِ ، الَّتِي سَيُبَارِكُ فِيهَا الإِلَهُ زَوَاجَ بَنِي مَخْزُوم وَبَنِي أَسَدٍ ، وَتُنْثَرُ عَلَيْهِمْ الْهِبَاتُ وَالْعَطَايَا ، وَتَفِيضُ عليهم أَيدِى أُولَئِكَ الأَثْرِيَاء ، فى تِلْكَ الليلةِ السَّعِيدَةِ .

أَمَّا فَاطِمَةُ أُمُّ خَدِيجَةَ ، فَكَانَتْ فى شُغْلٍ بِإِعْدَادِ الْجِهَازِ ، وَتَرْتِيبِ مَا يَجِبُ فى لَيْلَةِ الزِّفَافِ ، تُفَكِّرُ فى الصَّغِيرَةِ .

---

(١) ليوفين : يسددن .

وَالْكَبِيرَةِ ، وَتَرْسُم فى ذهْنِهَا عُشَّ ابْنَتِهَا الْجَدِيدَ وَمَا يَلِيقُ بهِ ، وَمَا يُنَاسِبُ بِنْتَ خُوَيلِدٍ الثَّرِىِّ ، وَتُطِيلُ التَّفْكِيرِ ، حَتَّى لاَ يَفُوتَهَا شَىْءٌ ، فَيَتَحَدَّثَ بَعْضُ النَّاسِ بِأَنَّ جِهَازَ خَدِيجَةَ كَانَ أَقَلَّ مِنْ جِهَازِ وَاحِدَةٍ مِنْ مَثِيلَاتِهَا .

وَخَدِيجَةُ تُفَكِّرُ فى حَيَاتِهَا الْجَدِيدَةِ ، وفِيما سَيُلْقَى عَلَى عَاتِقِهَا[1] مِنْ وَاجِبَاتٍ وَأَعْبَاء ، وفِيما يَضْمَنُ لها السَّعَادَةَ ، وَيُجَنِّبَهَا[2] مَا يَقَعُ فيه بَعْضُ الزَّوْجَاتِ اللَّاتِى لَمْ يُوَفَّقْنَ ، تَدْرُسُ أَخْطَاءَهُنَّ ، وَتَسْتَخْرِجُ الْعِظَةَ مِنْهَا ، وَتَرْسُمُ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ .

أَمَّا جَوَارِيهَا فَقَدْ اشْتَدَّ فَرَحُهُنَّ لِسَيِّدَتِهِنَّ ، فَكُنَّ يَذْهَبْنَ وَيَجِئْنَ مُغَنِّيَات ، قَدْ حَلا لِكُلٍّ مِنْهُنَّ أَنْ تُرَتِّلَ أُغْنِيَةَ السَّعَادَةِ بِلُغَتِهَا الَّتِى نَشَأَتْ عَلَيْهَا ، فَانْبَعَثَ فى الدَّارِ أَلْوانٌ مِنَ الأَصْوَاتِ وَأَشْكَالٌ من اللَّهَجَاتِ ، زَادَتْ السُّرُورَ وَالْبَهْجَةَ .

وَكُلَّمَا اقْتَرَبَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ مِنْ خَدِيجَةَ ، رَفَعَتْ صَوْتَهَا

---

(١) على عاتقها : على كتفها ، والمراد تحمل المسئولية .

(٢) ويجنبها : ويبعد عنها .

بأُغْنِيَتِهَا ، فَرِحَةً لِسَيِّدَتِهَا الَّتِى أَحَبَّتْهَا ، كُلٌّ مِنْهُنَّ تَوَدُّ لَوْ اخْتَارَتْهَا خَدِيجَةُ ، فَانْتَقَلَتْ مَعَهَا إلى بَيْتِهَا الْجَدِيدِ .

وَخَدِيجَةُ تُقَلِّبُ بَصَرَهَا فى دَارِ أَبِيهَا الْفَسِيحَةِ ، وَتُطِيلُ النَّظَرَ فى كُلِّ جانبٍ منها ، ثم يَنْتَقِلُ خَيَالُهَا إلى ذَلِكَ الْبَيْتِ الْجَدِيدِ الَّذِى لَمْ تَعْرِفْهُ ، والقَرِين[1] الْجَدِيدِ الَّذِى لَمْ تَأْلَفْهُ ، فَيَزْدَادُ قَلْبُهَا إشْفَاقًا ، ثُمَّ تُشَجِّعُ نَفْسَهَا ، وَتَدْفَعُ مَخَاوِفَهَا ، وَتَهْمِسُ إلَى نَفْسِهَا هَمْسًا تَسْمَعُهُ أُذُناها :

– مالِى خَائِفَةٌ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ ، وَالْمُسْتَقْبَلُ بِيَدِ اللهِ ! ومَاذا يُطْلَبُ مِنِّى ؟ !

إنَّ الزَّوَاجَ تَعَاوُنٌ بَيْنَ الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ ، وَسَوْفَ أَتعاوَنُ مَعَ زَوْجِى .

سَأَكُونُ لَهُ عَبْدَةً ، فَأَجْعَلُهُ بِخُضُوعِى لَهُ عَبْدًا لِى !

سَأَحْرِصُ عَلَى رِضَاهُ . وَأَحْفَظُهُ فى مَالِهِ وَأَهْلِهِ .

وَتَصْمُتُ قَلِيلاً ، ثُمَّ تَعُودُ إلى حَدِيثِ نَفْسِهَا ، قَائِلَةً فى عَزْمٍ وَقُوَّةٍ :

---

(١) القرين : الزوج .

ـ وَلِمَاذَا أَخَافُ ؟ !

أَلَمْ أُدَرَّبْ فِي بَيْتِ أَبِي عَلَى أَعْمَالِ الْبَيْتِ وَإِدَارَتِهِ ؟ ! فَسَوْفَ أُدِيرُ بِمَا تَعَلَّمْتُ بَيْتَ زَوْجِي .

إِنَّ لِي عَقْلاً ، وَإِدْرَاكًا ، وَفَهْمًا ، فَلِمَاذَا أُغْضِبُ زَوْجِي ؟ ! لِمَاذَا أَخْلُقُ لَهُ الْمُشْكِلاتِ ، وَأُنَغِّصُ(١) عَلَيْهِ عَيْشَهُ ؟ !

ثُمَّ تَسْتَعْرِضُ حَيَاةَ كَثِيرٍ مِنَ الْفَتَيَاتِ اللَّاتِي لَمْ يُوَفَّقْنَ فِي زَوَاجِهِنَّ ، وَتَجْعَلُ اللَّوْمَ عَلَيْهِنَّ ، لأَنَّهُنَّ لَمْ يَسْتَطِعْنَ أَنْ يُرضِينَ أَزْوَاجَهُنَّ ، وَلَمْ يَعْرِفْنَ لِمَاذَا تَزَوَّجْنَ .

تَسْتَعْرِضُ ذَلِكَ كُلَّهُ فَتَرْضَى عَنْ نَفْسِهَا وَعَنِ الْمُسْتَقْبَلِ ، وَعَنِ الزِّفَافِ الَّذِي يَقْتَرِبُ .

وَأُمُّهَا لا تَتْرُكُ فُرْصَةً إِلا حَدَّثَتْهَا عَنْ وَاجِبَاتِ الزَّوْجِيَّةِ ، وَعَلَّمَتْهَا مَا يَجِبُ أَنْ تَأْخُذَ ، وَمَا يَجِبُ أَنْ تَتْرُكَ ، وَجَعَلَتْ

---

(١) أنغص : أكدر .

هٰذِهِ الأَيَّامَ مَدْرَسَةً ، جَمَعَتْ فِيهَا كُلَّ ما يُقَالُ لِلْفَتَاةِ مِن دُرُوسٍ تُبَصِّرُها بِمُسْتَقْبَلِهَا ، وَتُضِيءُ أَمَامَهَا طَرِيقَهَا ، فَوْقَ مَا عَلَّمَتْهَا مِنْ قَبْلُ .

فَتَزْدَادُ خَدِيجَةُ رَاحَةَ نَفْسٍ ، وَاطْمِئْنَانَ فُؤَادٍ ، لأَنَّ مَاتَقُولُهُ أُمُّهَا هُوَ مَا عَزَمَتْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَأَتْ أَنْ تَأْخُذَ بِهِ ، وما رَسَمَتْهُ لِنَفْسِهَا حِينَ رَسَمَتْ مُسْتَقْبَلَهَا وَحَيَاتَها الْجَدِيدَةَ .

فلَمَّا كانَ يَوْمُ الزِّفَافِ ، امْتَلأَتْ دَارُ خُوَيْلِدٍ بِالْقَرِيبَاتِ وَالصَّاحِبَاتِ ، وَجَاءَتْ نِسْوَةُ بَنِي مَخْزُوم يَحْمِلْنَ الْهَدَايَا الْغَالِيَةَ الَّتِى بَعَثَهَا عَتِيقٌ ، وَجَاءَتْ نِسْوَةُ قُرَيْش بِمَا جَهَّزْنَ من هَدَايَا ثَمِينَةٍ .

وَنُحِرَتْ الذَّبَائِحُ وَدُعِيَتْ مَكَّةُ لِلْوَلَائِمِ[١] الَّتِى سَتُمَدُّ فى بَيْتِ خُوَيْلِد ، وَانْبَعَثَ مِنَ الْبَيْتِ الْغِنَاءُ الرَّقِيقُ ، وَأَخَذَتْ الماشِطاتُ[٢] يُزَيِّنَّ الْعَرُوسَ ، وَيُضْفِينَ[٣] جَمَالاً على جَمَالِهَا .

---

(١) الولائم : جمع وليمة طعام العرس .
(٢) الماشطات : اللاتى تزين العروس .
(٣) يضفين : يضفن .

كانَ الْيَوْمُ جَمِيلاً ، رَقِيقَ النَّسِيم ، قَضَتْهُ مكةُ كُلُّهَا فى حَرَكَةٍ دَائِمَةٍ ، منْ بَيْتِ خُوَيْلِدٍ وَإِلَيْهِ ، حَتَّى أَقْبَلَ الْمَسَاءُ ، فَعُقِدَ الْعَقْدُ بِجَانِبِ الْكَعبَةِ ؛ ثُمَّ طَافَ النَّاسُ حَوْلَهَا شَاكِرِينَ دَاعِينَ ، وَانْطَلَقَتْ الزَّغَارِيدُ مِنْ بَيْتِ خُوَيْلِدٍ ؛ تَتَجَاوَبُ[1] فى جَوَانِبِ مَكَّةَ ، تُفْرِحُ الأَهْلَ وَالأَحْبَابَ .

ولَمَّا طَعِمُوا مَا لَذَّ وَطَابَ ، انْتَقَلُوا إلى السَّاحِر ، وَاسْتَدَارُوا فى حَلْقَةٍ كَبِيرَةٍ تَصَدَّرَهَا رُؤَسَاءُ مَكَّةَ ، وَنَزَلَ فى وَسَطِهَا الأَبْطَالُ ، وَدَارَ بَعْضُهُمْ خَلْفَ بَعْضٍ ، وَكَرُّوا ؛ وَفَرُّوا ، وَوَثَبُوا ، وَضَرَبُوا ، وَاتَّقَوا الضَّرَبَاتِ .

وَهَتَفَ النَّاسُ لِلْمُنْتَصِرِينَ وَصَفَّقُوا لَهُمْ ، وَوَقَفَ الْمَهْزُومُونَ يُجَفِّفُونَ عَرَقَهُمْ ، وَيَهِزُّونَ سُيُوفَهُمْ ، وَيَرُدُّونَ بِأَعْيُنِهِمْ عَلَى نَظَرَاتِ الْمُشْفِقِينَ عَلَيْهِم ، وَيَسْتَعِدُّونَ لِلْجَوْلَةِ الثَّانِيَةِ فى قُوَّة ، عَازِمِينَ على مَحْوِ مَا لَحِقَهُمْ مِنْ عَار الْهَزِيمَةِ . . .

---

(١) تتجاوب : يتردد صداها .

« الأسئلة »

(١)

وكانت مكة كلها تنتظر ليلة الزفاف ، ينتظرها الفقراء ويستعجلونها . . .

وينتظرها الشباب الذين يلعبون بالسيوف فى السامر . . .

وينتظرها الشيوخ الذين لا يحرمون أنفسهم مما يناله الشباب فى مثل تلك الليالى . . .

(١) كيف كان يقيم العرب أعيادهم فى الزواج قبل الإسلام ؟

(ب) لماذا كان ينتظر ليلة زفاف (خديجة) إلى زوجها (عتيق)

كُلٌّ من : « الفقراء — الشباب — الشيوخ » .

(جـ) هناك طوائف أخرى كانت تنتظر ليلة الزفاف .

اذكر طائفتين منها ، وبين سبب انتظارها .

(٢)

اتخذت أم (خديجة) كل الفُرص لتهيىء بنتها إلى حياتها الزوجية .

وضح ذلك . وبين دلالته على واجب الأُم نحو بنتها .

(٣)

وفى المساء عقد العقد بجانب الكعبة ، ثم طاف الناس حولها شاكرين داعين ، وانطلقت الزغاريد من بيت خويلد ، تتجاوب فى جوانب مكة ، تفرح الأَهل والأَحباب . .

(ا) ما معنى : «تتجاوب فى جوانب مكة» ؟

(ب) كان العرب فى الجاهلية يعظمون (مكة) فما مظهر ذلك ؟

(جـ) وكانوا يهتمون بالصلات والمشاركة الاجتماعيـة ؛ فوضح ذلك .

* * *



الجمع بجوار الكعبة الشريفة

(٤) راهب مكة

انْبَعَثَتْ الضِّحْكَاتُ عَالِيَاتٍ ، وحَرَّكَتْ أَصْوَاتُ الْمُغَنِّيَاتِ الْقُلُوبَ ، وَشَارَكَ الْجَمِيعُ فى هَذِهِ الْفَرْحَةِ ، سِوَى رَجُلٍ كَانَ جَالِسًا فى صَمْتٍ يَنْظُرُ إِلَى هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ، يُدْعَى إِلَى الشَّراب فَلا يَسْتَجِيبُ ، وَيُوَجَّهُ إِلَى الْغِنَاءِ وَالرَّقْصِ فَيَصُدُّ عَنِ النَّظَرِ وعَنِ السَّمَاعِ ، حَتَّى صاحَ بِهِ خُوَيْلِدٌ :

ـ هَذِهِ لَيْلَةُ سُرُورٍ يا «وَرَقَةُ» فَافْرَحْ لِفَرْحَةِ خَدِيجَة ابْنَةِ عَمِّكَ ! فَابْتَسَمَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ ، وَقَالَ لِعَمِّهِ فى صَوْتٍ هَادِئٍ .

ـ قَدْ عَلِمْتَ يَا عَمِّى أَنَّنِى بَعُدْتُ عَنْ هَذَا كُلِّهِ ، وَلَيْسَ لِى فِيمَا تَصْنَعُونَ مَأْرَبٌ[1] !

فالْتَفَتَ إِليهِ أَحَدُ الْجَالِسِينَ ، وقالَ سَاخِرًا :

ـ أَلاَ تَزَالُ يَاوَرَقَةُ علىَ رَأْيِكَ ؟ ! كانَ أَوْلى بِكَ أَنْ تَهْجُرَ مَكَّةَ ، مَادُمْتَ قَدْ أَصْبَحْتَ علَى غَيْرِ دِينِهَا !

---

(١) مأرب : مقصد .

وَصَاحَ آخَرُ ضَاحِكًا :

ـ لَنْ تَرْضَى مَكَّةُ عَنْكَ يَاوَرَقَةُ ، فَتَعَالِيمُكَ الَّتِى أَخَذْتَهَا عَنْ دِيَانَاتِ الْفُرْسِ وَالرُّومِ لَكَ وَحْدَكَ ، أَمَّا آلِهَتُنَا فَقَائِمَةٌ حَوْلَ الْكَعْبَةِ ، تَحْرُسُهَا وَتَحْرُسُنَا ، وَتَصُبُّ عَلَيْنَا النَّعِيمَ وَتَدْفَعُ عَنَّا الأَذَى !

ثُمَّ رَفَعَ الرَّجُلُ صَوْتَهُ بِسُخْرِيَةٍ ، قَائِلاً :

ـ أَلاَ تَرَى يَاوَرَقَةُ مَا نَحْنُ فِيهِ اللَّيْلَةَ ؟ ! نِعْمَةٌ مِنْ نِعَمِ الآلِهَةِ الْعَزِيزَةِ !

إِنَّ خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ تُزَفُّ إِلَى عَتِيقِ بْنِ عَابِدٍ ، لكِنَّ الآلِهَةَ قَدْ شَارَكَتْنَا فَرْحَتَنَا فَجَعَلَتْ الطَّعَامَ يَحْلُو وَالشَّرَابَ يَطِيبُ ، فَاصْرِفْ نَفْسَكَ عَمَّا دَخَلْتَ فِيهِ ، وتَمَتَّعْ مَعَنَا بِمَا نَحْنُ فِيهِ ، وإِلاَّ فَاتَكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ لَنْ تُعَوِّضَهُ !

فَانْبَعَثَ صَوْتٌ آخرُ فى تَهَكُّمٍ :

ـ صِرْتَ رَاهِبًا مِنَ الرُّهْبَانِ يَاوَرَقَةُ ! لَقَدْ أَفْسَدَ عَلَيْكَ طَوَافُكَ فى الْبِلَادِ ، وَانْخِدَاعُكَ بِمَا فِيهَا ، مَا عَلَّمَكَ الآبَاءُ والأَجدادُ ، أَتُرِيدُ أَنْ تُفْسِدَ عَلَيْنَا حيَاتَنَا وتَحْرِمَنَا لَذَّةَ الدُّنْيَا ؟!

ثمَّ دَخَلَ كثيرُونَ فى هَذَا الحديثِ ، ولَذَّ للشَّبَاب السُّخْرِيةُ مِنْ وَرَقَةَ ، وَخُروجِه عنْ عبادةِ الأَصْنام ، ولَذَّ للشُّيُوخ التَّهَكُّمُ بِه[1] ، وبما اعْتَنَقَهُ مِنْ دِيَانَةٍ جَدِيدَةٍ ، وَهُوَ صَامِتٌ يَسْمَعُ ولا يَتَكَلَّمُ ، حَتَّى انْتَهَوْا مِنْ سُخْرِيَتِهِمْ ، فَصَاحَ فى قُوَّةٍ :

ـ إنْ سَخِرْتُمْ مِنَّا الْيَوْمَ ، فَسَوْفَ نَسْخرُ مِنْكُمْ غَدًا ، حِينَ يُبْعَثُ النَّبىُّ مِنْ بَيْنِكُمْ ، وَيُحَطِّمُ أَصنامَكُمْ ، وَيَقْضِى على ضَلَالِكُمْ !

فَعَلَتْ الأَصواتُ بالْقَهْقَهَةِ ، وَارْتَفَعَ كثيرٌ منها صَائِحًا :

ـ وَمَنْ هذَا النَّبىُّ يَاوَرَقَةُ ؟ ! أَنْتَ ؟ ! أَمْ غَيْرُكَ مِمَّنْ اسْتَهْوَاهُمُ الْخِلافُ ، فَخَرَجُوا علَى مَا عَهِدَ الآباءُ وَالأَجْدَادُ ، لِيلْفِتُوا إِلَيْهِمْ الأَنْظَارَ ؟ !.

وَقَالَ آخَرُونَ فى حِدَّةٍ :

ـ ولماذَا رَجَعْتَ يَاوَرَقَةُ مِنْ تِلْكَ الْبِلَادِ الَّتى طُفْتَ بِهَا ؟ !

---

(١) التهكم : السخرية .

وكَيْفَ رَضِيْتَ عَنْ بعْضِ تِلْكَ الدِّيَانَاتِ الَّتِى لا تُفْهَمُ ، وَعنْ غَيْرِهَا مما يثير بين أهلها من خلاف لا أول له ولا آخر ؟

وَكَثُرَ الْقَوْلُ ، وَاشْتَدَّ الْجَدَلُ(١) ، ثُمَّ صَاحَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ يَسْأَلُ وَرَقَةَ :

ـ وَمِنْ أَىِّ الأَقْوَام سَيُبْعَثُ هَذَا النَّبِىُّ ؟ وَبِأَىِّ دِينٍ ؟ !

فَأَسْرَعَ وَرَقَةُ فى ثِقَةٍ :

ـ كُلُّ الْكُتُب الَّتِى نَزَلَتْ مِنَ السَّمَاءِ تُبَشِّرُ بِذَلِكَ النَّبِىِّ ، وَتُؤَكِّدُ أَنَّ أَوَانَهُ قَدْ اقْتَرَبَ ، وَأَنَّهُ سَيُبْعَثُ مِنْ بَيْنِ الْعَرَبِ .

فَعَلتْ القَهْقَهَةُ ، وصَاحَ بَعْضُهُمْ فى سُخْرِيَةٍ :

ـ أَعْدِدْ نَفْسَكَ يَاوَرَقَةُ ، لِيَنْزِلَ عَلَيْكَ الْوَحْىُ الَّذِى تَقُولُ إنَّهُ سَيَنْزِلُ علَى ذَلِكَ الرَّسُولِ ! رُبَّمَا يَاوَرَقَةُ !!

فَأَسْرَعَ آخَرُ :

ـ لَكِنْ تأَكَّدْ يَاوَرَقَةُ أَنَّنَا حِينَذَاكَ لَنْ نَدَعَكَ تَمُدُّ يَدَكَ إلَى آلِهَتِنَا ، سَتَدْفَعُكَ مَكَّةُ كُلُّهَا ، وَتُرِيكَ كَيْفَ يَكُونُ الْخُرُوجُ على دِينِ الآبَاءِ وَالأَجْدَادِ !

---

(١) الجدل : النقاش .

فقامَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِ قُرَيْش . وصاحَ فى عَزْم :

— لَقَدْ أَفْسَدْتُمْ هَذَا السَّمَرَ بِذَلِكَ الْجِدَالِ الَّذِى لا يُفِيدُ ! وَأَمَرَهُمْ بِالسُّكُوتِ ، ثُمَّ أَمرَ الْمُغَنِّيَاتِ . فَاسْتَأْنَفْنَ الْغِنَاءَ ، وَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُنَّ بالأَلْحَانِ الْعَذْبَةِ . بَيْنَ أَصْوَاتِ الدُّفُوفِ ، وَرَنَّاتِ الْمَزَاهِرِ(١) ، وَعَادَ الْقَوْمُ إلى طَرَبِهِم .

وكانَ مِنْ بَيْنِهِمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمٍ سَيِّدُ مَكَّةَ ، يُشَارِكُ فى هَذِهِ الْفرْحَةِ الَّتِى احْتَفَلَتْ لها قُرَيْشٌ كُلُّهَا ، وكَانَتْ قَبْلَ هذِهِ اللَّيْلَةِ لا تُقِيمُ الأَفْرَاحَ مُجَامَلَةً لَهُ لِحُزْنِهِ على ابْنِهِ عَبْدِ الله ، الذى مَاتَ فى شَبَابِهِ ، بَعْدَ مَا تَزَوَّجَ بِقَلِيلٍ .

أَمَّا هَذِهِ اللَّيْلَةَ ، فَقَدْ كانَ مَسْرُوراً ، مُنْشَرِحَ الْفُؤَادِ ، لأَنَّ اللهَ عَوَّضَهُ عَنْ عَبْدِ اللهِ ، فَرَزَقَ آمِنَةَ زَوْجَ ابْنِهِ عَبْدِ اللهِ وَلَدًا اسْمُهُ مُحَمَّدٌ ، فَلَمْ يَنْسَ النَّاسُ فى هذِهِ اللَّيْلَةِ أَن يُهَنِّئُوا عبدَ الْمُطَّلِبِ ، وَيَتَمَنَّوْا لَهُ أَنْ يَعِيشَ حَتَّى يَحْضُرَ زَوَاجَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ، وَهُوَ يَبْتَسِمُ ابْتِسَامَاتِ الرِّضَا . مُسْتَبْعِدًا أَنْ يَمْتَدَّ بِهِ الزَّمَنُ حَتَّى يُزَوِّجَ حَفِيدَهُ(٢) مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ .

(١) المزاهر : آلات الطرب وهى الأعواد التى يضرب بها .
(٢) حفيده : ابن ابنه .

وَاسْتَمَرَّ السَّامِرُ إلى السَّحَرِ[١] ، وَكَانَتْ الْعَرُوسُ قد سَارَتْ مِنْ بَيْتِهَا إِلَى بُيُوتِ بَنِى مَخْزُومٍ ، وَانْتَقَلَتْ إِلَى الْبَيْتِ الْفَسِيح الَّذِى أَعَدَّهُ عَتِيقٌ لاسْتِقْبَالِهَا فيهِ .

ثُمَّ انْصَرَفَ النَّاسُ وَهُمْ يَلْهَجُونَ[٢] بما نَالُوا مِنَ السُّرُورِ ، وَدَخَلَتْ خَدِيجَةُ أَبْوَابَ الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ ، كَبِيرَةَ الأَمَلِ ، شَدِيدَةَ الطُّموحِ ، لَكِنَّهَا كَانَتْ تُحِسُّ بِخَوْفٍ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ ، يُحَدِّثُهَا قَلْبُهَا بِأَنَّ الأَيَّامَ تُخْفِي لَهَا شَيْئًا لا يَعْلَمُهُ غَيْرُ عَلَّام الْغُيُوب .

---

(١) السحر : قبيل الصبح .

(٢) يلهجون : يكثرون التحدث فى ثناء .

الأسئلة

(١)

لخّص الحوار الذى دار بين خويلد وورقة بن نوفل ، واذكر ما يدل عليه بالنسبة لشخصية ورقة .

(٢)

انضم إلى (خويلد) فى حوار (ورقة) كثير من الحاضرين فما موقفهم من ورقة ؟ وما موقف (ورقة) منهم ؟

(٣)

ثم انصرف الناس وهم يلهجون بما نالوا من السرور ، ودخلت «خديجة» أبواب الحياة الجديدة ، كبيرة الأمل شديدة الطموح .

(أ) ما معنى : «يلهجون ـ شديدة الطموح» ؟

(ب) وضح ما تشير إليه العبارة السابقة .

* * *

(٥) المقادير

مَنحتْ خديجةُ زَوْجَهَا مَا تَمْنَحُهُ الْمَرْأَةُ الْعَاقِلَةُ الْفَاهِمَة . أطَاعَتْهُ وَاحْتَرَمَتْهُ ، وَشَجَّعَتْهُ ، ووَجَدَ فى قَلْبِهَا عَطْفًا ، أَنِسَ به ، وَارْتَاحَ إليهِ ، وَأَحَسَّ عِندَها بِسَعَادَةٍ كانَ يَرْجُوهَا : فَاطْمَأَنَّ إِلَيها ، وَمَنَحَها مِنْ قَلْبِهِ مِثْلَ مَا مَنَحَتْهُ مِنْ قَلْبِها ، وَلَمْ يَبْخَلْ عَلَيْها باستِشَارَتِهَا فِيمَا يَهُمُّ بهِ من الأُمور .

وَأَصْبَحَتْ خَدِيجَةُ وَعَتِيقٌ مَثَلاً للزَّوْجَيْنِ الْمُؤْتَلِفَيْنِ[1] ، تَرِفُّ علَى بَيْتِهِمَا السَّعَادَةُ ، وَالنَّعِيمُ الَّذِى لا يُنَغِّصُهُ نُفُورٌ ، ولا يُعَكِّرُهُ خِلافٌ .

وكانَ خُوَيْلَدٌ شَدِيدَ الاغْتِبَاطِ[2] بانْتِظَام هَذَا الْعُشِّ الهانئ ؛ يَزُورُ ابْنَتَهُ ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهَا شَاكِرًا لها طاعة الزَّوْج ،

(١) المؤتلفين : المتحابين .

(٢) الاغتباط : السرور .

ولا يُحَدِّثُ عَتِيقًا إلاَّ وَيَجِدُ خَدِيجَةَ قَدْ اسْتَحْوَذَتْ[1] على قَلْبِهِ، وَمَلَكَتْ فُؤَادَهُ، فَيَزْدَادُ سُرُورًا.

وكَانَتْ فَاطِمَةُ أُمُّ خَدِيجَةَ شَدِيدَةَ الزَّهْوِ[2] بابْنَتِهَا، الَّتِي عَرَفَتْ — على صغرها — كَيْفَ تَسُرُّ أَبَوَيْهَا؛ وَتَسُرُّ زَوْجَهَا، فَرِحَةً بما تَسْمَعُ عَنْ بَيْتِ خَدِيجَةَ: الَّذِى أَصْبَحَ مَضْرِبَ الأَمْثَالِ فى مَكَّةَ كُلِّهَا..

وانْقَضَى الْعَامُ؛ فَزَادَتْ الدَّارُ بَهْجَةً بِمَوْلُودَة زَادَتْ رِبَاطَ الْمَحَبَّةِ، وَاشْتَدَّ بها تَعَلُّقُ أَبيهَا، إِذْ كَانَتْ كَبِيرَةَ الشَّبَهِ بِأُمِّهَا خَدِيجَةَ.

لٰكِنَّ الْقَدَرَ كَانَ قَدْ كَتَبَ فى صَفْحَةِ الْبَقَاءِ لِهَٰذَا الزَّوَاجِ سُطُورًا قَلِيلَةً، فَلَمْ يَنْتَصِفْ الْعَامُ الثَّانِى حَتَّى مَاتَ عَتِيقٌ تَارِكًا فى قَلْبِ خَدِيجَةَ أَلمًا، وفى نَفْسِهَا حَسْرَةً. فَقَدْ فَقَدَتْ فِيهِ الزَّوْجَ الرَّضِيَّ الْمُخْلِصَ الْوَفِيَّ؛ وَإِنْ كَانَ قَدْ تَرَكَ لَها ولابنتها ثَرْوَةً كَبِيرةً.

---

(١) استحوذت: غلبت.

(٢) الزهو: الفخر.

حَزِنَتْ خَدِيجَةُ عَلَى زَوْجِهَا ، وكانَ حُزْنُ أُمِّهَا لا يَقِلُّ عَنْ حُزْنِهَا ، وإنْ كَانَ كَثِيرٌ من الْقُرَشِيِّينَ وَالْقُرَشِيَّات يَتَحَدَّثُونَ بما خَلَّفَ عَتِيقٌ مِنْ مَالٍ ، وَمَا وَرِثَتْ خَدِيجَةُ مِنْ ثَرْوَةٍ .

وَتَفَتَّحَتْ عُيُونُ الطَّامِعِينَ فى الْجَمَالِ وَالْمَالِ وَالْحَسَب ، وَوَدَّ كَثِيرونَ لَوْ أَنَّ خَديجَةَ رَضِيَتْ بِهِمْ أَزْوَاجًا ، وَأَنَّ خُوَيْلدًا رَضِيَ بِهِمْ أَصهَارًا ؛ فَلَمْ يَمْضِ كَثِيرٌ عَلَى مَوْتِ عَتِيقٍ ، حَتَّى كانَتْ أُذُنَا خُوَيْلدٍ تَسْمَعَانِ كُلَّ سَاعَةٍ من أَفْوَاهِ الأَثْرِيَاء ، وَالسَّادَةِ ، سَيْلاً مِنَ التَّوَسُّلِ وَ لإلْحَاحِ ، يُزَكُّونَ رَغَبَاتِهِمْ بما سَمِعُوا عَنْ خَديجَةَ وَزَوْجِها ، وبِمَا سيكون لبيُوتهم على يَدَيْهَا مِنْ حُسْنِ تَدْبِيرٍ وَنِظَامٍ . .

وَكَانَ مِنْ رَأْيِ خُوَيْلدٍ أَلاَّ تَنْتَظِرَ خَديجةُ وَحيدَةً بَعْدَ عَتيقٍ ، وَهيَ لَمْ تَقْطَعْ شَيْئًا مِنْ طَرِيق حَيَاتِهَا . لٰكِنَّه كانَ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَحَدَّثَ إليهَا بِهَذَا الرَّأْيِ بعدَ مَا لَمَس قَلْبَهَا المحطَّمَ على زَوْجِهَا ، وَأَحَسَّ بما هِيَ فيه منْ حُزْنٍ عَمِيقٍ .

وَلَمْ تَسْتَطِعْ أُمُّهَا أَنْ تَتَحَدَّثَ إِلَيْهَا فى شَيْءٍ منْ أَمْرِ أُولَئِكَ الْخُطَّاب ، لِأَنَّهَا تَعْرِفُ أَنَّ ابْنَتَهَا فى حَاجَةٍ إِلَى مَنْ تُوَاسِيهَا ،

وَلَيْسَتْ فى حَاجَةٍ إلَى مَنْ تَزُفُّ إلَيها خَبَرَ زَوَاجٍ جَدِيدٍ .

وَتَعْلَمُ أَنَّهَا عَقَدَتْ الْعَزْمَ عَلَى أَنْ تَعِيشَ لابْنَتِهَا ، تُرَبِّيها وَتَكْفُلُهَا ، وَتُنَشِّئُهَا فى أَحْضَانِهَا وَذِكْرَى أَبِيهَا ، وَلا تَدْخُلُ مَعَهَا فى أَحْضَانِ رَجُلٍ جَدِيدٍ غَرِيبٍ .

وَمَرَّتْ الأَيَّامُ ، وَتَوَالَتْ الشُّهُورُ ، وَخَدِيجَةُ تَعِيشُ فى حُزْنِهَا مُنْصَرِفَةً عَنْ الْحَيَاةِ ، زَاهِدَةً فِيها ، تَرَى فِى طِفْلَتِهَا كُلَّ شَىْءٍ ، لا تَخْرُجُ مِنَ الدَّارِ ، ولا تُشَارِكُ فى سُرُورٍ ، ولا تَسْمَعُ نَبَأَ حُزْنٍ إلاَّ بَكَتْ وَلاَ خَبَرَ سُرُورٍ إلاَّ انْتَحَبَتْ ، لأَنَّ الْحُزْنَ وَالْفَرَحَ يُثِيرَانِ فِى قَلْبِهَا ذِكْرَيَاتِ زَوَاجِهَا ، وَسَعَادَتِهَا ، وَحِرْمَانِهَا مِنْ زَوْجِهَا .

وَخُوَيْلِدٌ يَتَلَقَّى كُلَّ سَاعَةٍ رَغْبَةً ، وَيَسْمَعُ كُلَّ لَحْظَةٍ رَجَاءً ، ثُمَّ يَنْظُرُ إلِى ابْنَتِهِ وَمَا هِىَ فِيهِ ، فَيَشْتَدُّ بِهِ الْحُزْنُ ، وَيَتَحَدَّثُ إلى فَاطِمَةَ عَنْ أَمْرِهَا ، فَيَجِدُ فى قَلْبِهَا مِثْلَ ما فى قَلْبِهِ ، كما يَجِدُهَا مِثْلَهُ عَاجزَةً عَنْ الْحَدِيثِ إلى خَدِيجَةَ فى أَمْرِ الزَّوَاجِ ، وَأَمْرِ الْخُطَّاب .

لٰكِنَّهُ رَأَى الأَيَّامَ تَمُرُّ ، وَعَزَّ عَلَيْهِ أَنْ تَعِيشَ خَدِيجَةُ فِي هَمِّهَا وَأَحْزَانِهَا ، وأَنْ تَقْطَعَ الْحَيَاةَ وَحِيدَةً فَرِيدَةً ، فزارَها ذاتَ يَوْمٍ ، وَمَكَثَ عِنْدَها وَقْتًا طويلاً أَكْثَرَ مِمَّا اعْتادَ ، ثُمَّ دَعَاها ، وقالَ باسِمًا :

ـ أَلا تَخْلَعِينَ هٰذَا السَّوَادَ يَا خَدِيجَةُ ؟ !

مَضَى عَلَى عَتِيقٍ وَقْتٌ كَبِيرٌ ، وَقَدْ وَفَّيْتِ حَقَّهُ ، وَأَكْرَمْتِهِ حَيًّا وَمَيِّتًا ، وَلا يَنْبَغِي أَنْ يَمُوتَ الأَحْيَاءُ خَلْفَ الأَمْوَاتِ !

فنظَرَتْ خَدِيجَةُ إِلَى أَبِيهَا بِعَيْنَيْهَا الْوَاسِعَتَيْنِ ، وقَدْ لَمَعَتْ فِيهِمَا الدُّمُوعُ ، ثُمَّ قَالَتْ فِي صَوْتٍ مُتَقَطِّعٍ :

ـ وَمَا قِيمَةُ الْحَيَاةِ بَعْدَ فَقْدِ الأَحْبَابِ ؟ ! إِنْ كانَ عَتِيقٌ ماتَ فَقَدْ خَلَّفَ ذِكْرَاهُ !

ثُمَّ مَسَحَتْ بِيَدِهَا عَلَى رَأْسِ ابْنَتِهَا الصَّغِيرَةِ ، وقالَتْ والدُّمُوعُ تَنْهَمِرُ عَلَى وَجْنَتَيْهَا الْمُتَوَرِّدَتَيْنِ :

ـ وَهٰذِهِ الذِّكْرَى الَّتِي تَرَكَهَا عَتِيقٌ ، سَأَظَلُّ لَهَا مَا حَيِيتُ ، وَلَنْ أَضَعَهَا فِي حِجْرٍ غَيْرِ حِجْرِ أَبِيهَا ، وَلَنْ أُعَرِّضَهَا لِغَضَبِ غَرِيبٍ أَوْ رِضَاهُ !

فَتَأَثَّرَ خُوَيْلِدٌ ، وَحَبَسَ دَمْعَتَيْنِ كَادَتَا تَنْسَكِبَانِ مِنْ عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ قالَ فى حَنانٍ :

ـ لٰكِنَّكِ تَعِيشِينَ وَحْدَكَ يَا خَدِيجَةُ ، وَخَيْرٌ لَكِ أَنْ تَعِيشِى فى كَنَفِ[1] رَجُلٍ ، مِنْ أَنْ يُغْلَقَ بَابُ الْبَيْتِ عَلَيْكِ وَحْدَكِ ! وَلَسْتِ أَوَّلَ امْرَأَةٍ فَقَدَتْ زَوْجًا ؛ وَمَا نَحْنُ إِلاَّ كُرَةٌ فى يَدِ الْمَقَادِيرِ تَقْذِفُنَا حَيْثُ تَشَاءُ !

ثُمَّ أَخَذَ يُعَدِّدُ عَلَى سَمْعِهَا أَسْماءً كَثِيرةً ، مِنَ النِّساءِ اللَّاتِى فَقَدْنَ أَزْوَاجَهُنَّ مِثْلَهَا ، ثُمَّ تَزَوَّجْنَ فَنَعِمْنَ[2] بالْحَيَاةِ ، فأَطْرَقَتْ وَلَمْ تَتَحَدَّثْ .

فَقَالَ فِى عَطْفٍ :

ـ إِنَّ الأَيَّامَ تَمُرُّ سِرَاعاً يا خَدِيجَةُ ، وَقَدْ أَصْبَحْتُ شَيْخًا كَبِيرًا ، تُسْرِعُ بى السَّاعَاتُ إلى نِهَايَةِ الأَجَلِ ، وَأَخَافُ أَنْ أَتْرُكَكِ بغَيْرِ زَوْجٍ يَرْعَاكِ وَيُعْنَى بِأَمْرِك .

---

(١) كنف : جانب .

(٢) نعمن : تمتعن .

أَخَافُ أَنْ أَرْحَلَ غَدًا أَوْ بَعْدَ غَدٍ ، فَأُفَارِقَ الحياةَ مَحْزُونًا مِنْ أَجْلِكِ ... فَهَلْ تُطِيعِينَ أَبَاكِ الَّذى يَوَدُّ لَكِ الْخَيْرَ ، فَمَا عَهِدْتُكِ تُخَالِفِينَ رَأْيَهُ ، أَوْ تَعْصِينَ لَهُ أَمْرًا ؟

وَصَمتَ قَلِيلاً ، ثُمَّ قالَ باسمًا :

– زَوْجٌ يُعَوِّضُ عَتِيقًا يَاخَدِيجَةُ ! زَوْجٌ أَرْتَضِيهِ لَكِ ، وَسَتَرْضَيْنَهُ أَنْتِ !

أَتُحِبِّينَ أَنْ تَعْرِفِى مَنْ هُوَ ؟ !

إِنَّكِ تَسْمَعِينَ عَنْهُ .. هُوَ «النَّبَّاشُ بْنُ زُرَارَةَ التَّمِيمِىُّ» الشَّهْمُ الْكَرِيمُ ، الْمِقْدَامُ(١) ، الَّذى مَلأَ الأَسْمَاعَ بِكَرَمِهِ ، وَشَجَاعَتِهِ ، وَاسْتِقَامَتِهِ .

هُوَ خَيْرُ بَعْلٍ(٢) لِخَيْرِ زَوْجَةٍ ، فَأَطِيعِينِى وَوَافِقِى فَقَدْ وَفَّقَنِى اللهُ مِنْ أَجْلِكِ . أَطِيعِى يَا خَدِيجَةُ ، وَارْحَمِى أَبَاكِ الْخَائِفَ عَلَيْكِ مِنَ الأَيَّامِ .

وَخَدِيجَةُ مُطْرِقَةٌ(٣) ، لا تُجِيبُ ، ولا تَسْأَلُ ؛ لٰكِنَّ خُوَيْلِدًا لَمْ يَزَلْ بِهَا حَتَّى رَضِيَتْ ، وَوَافَقَتْ علَى هذَا الزَّوَاجِ .

---

(١) المقدام : الشجاع .
(٢) بعل : زوج .
(٣) مطرقة : ساكنة ، او مرخية عينيها الى الارض .

الأسئلة

(١)

« كان « خويلد » شديد الاغتباط بانتظام هذا العش الهادئ ، يزور ابنته ، ثم يخرج من بيتها شاكرًا لها طاعة الزوج ، ولا يحدث « عتيقا » إلا ويجد « خديجة قد استحوذت على قلبه ، وملكت فؤاده ، فيزداد سرورا » .

(أ) ما معنى : « شديد الاغتباط » ؟ وما سر اغتباطه ؟

(ب) بم يوحى التعبير بقوله : « استحوذت على قلبه » وما أثر ذلك فى نفسية خويلد ؟

(ج) ما العبرة المستفادة مما تشير إليه العبارة السابقة ؟

(٢)

« ومرت الأيام ، وتوالت الشهور ، و « خديجة » تعيش فى حزنها ، منصرفة عن الحياة ، زاهدة فيها ، ترى فى طفلتها كل شيء ، لا تخرج من الدار ، ولا تشارك فى سرور ، ولا تسمع نبأ حزن إلا بكت ، ولا خبر سرور إلا انتحبت » .

(أ) ما معنى : «زاهدة فيها» ؟ وما سر زهدها ؟

(ب) ما الفرق بين النحيب والبكاء ؟

(ج) لم كانت (خديجة) تبكى لسماع نبأ حزْن ، وتنتحب لخبر السرور ؟

* * *

(٦) حزن جديد

أَخْلَصَتْ خَدِيجَةُ لِزَوْجِهَا الْجَدِيدِ ، وَوَجَدَ فِيهَا الزَّوْجَةَ الْوَفِيَّةَ ، كما أَخْلَصَ لَهَا ، وَمَنَحَهَا قَلْبَه كما مَنَحَها عَتِيقُ فُؤَادَهُ[1] مِنْ قَبْلُ ...

وَكانَ هَذَا الزَّوْجُ رَجُلاً عَاقِلاً ، مِقْدَامًا ، كرِيماً ، كَثِيرَ الْمَالِ ، وَاسِعَ التِّجَارَةِ ، فَشَارَكَتْهُ خَدِيجَةُ الرَّأْيَ ، كما كانَتْ تُشَارِكُ عَتَيْقًا ، وَأَشَارَتْ عَلَيْهِ وَشَاوَرَهَا ، وَأَظَلَّتْ بَيْتَهُمَا السَّعَادَةُ .

وَبَدَأَ النَّاسُ يَنْظُرُونَ إلى هَذَا الْبَيْتِ ، وَيَرَوْنَ فِيهِ أَحْسَنَ الْبُيُوتِ رَفَاهِيَّةً[2] وَتَدْبِيرًا ، وَيَنْظُرُونَ إلى عَمَلِ هذَا الزَّوْجِ ، فَيَرَوْنَ فِيهِ أَحْسَنَ الأَعْمَالِ ، وَأَكْثَرَهَا نِظَامًا ، وَإِذَا ذُكِرَتْ الْبُيُوتُ وَخَيْرُ النِّسَاءِ ، كانَ اسْمُ بَيْتِ التَّمِيمِيِّ أَوَّلَ بَيْتٍ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ .

---

(١) فؤاده : قلبه .
(٢) رفاهية : سعة من العيش .

ولَمْ يَنْقَضِ العامُ ، حتَّى اشْتَدَّتْ أَوَاصِرُ[1] تِلْكَ الْمَحَبَّةِ بِرِبَاطِ الْوَلَدِ ، الَّذِى يَهْوَاهُ الْعَرَبُ ، وَيُكْثِرُونَ الزَّوَاجَ مِنْ أَجْلِهِ ، وَيَحِنُّونَ إليهِ إذَا لَمْ يُرْزَقُوهُ ، وَيَجِدُونَ فى حِرْمَانِهِ أَلَمًا لاذِعًا .

فَأَصْبَحَ « هَالَةُ » ابْنُهُمَا قُرَّةَ عَيْنٍ[2] لَهُمَا ، وَتَوَفَّرَتْ خَدِيجَةُ على رِعَايَتِهِ ، فَأَصْبَحَتْ مَضْرِبَ الْمَثَلِ بِمَكَّةَ فى تَرْبِيَةِ الأَبْنَاءِ ، كما كَانَتْ مَضْرِبَ الْمَثَلِ فى رِعَايَةِ الأَزْوَاجِ .

وَزَادَتْ هَذِهِ الظُّرُوفُ « النَّبَّاشَ » نَشَاطًا وَحُبًّا فى الْحَيَاةِ ، فَزَادَ خَيْرُهُ ، وَاتَّسَعَ عَمَلُهُ ، وَتَدَفَّقَ عَلَيْهِ المالُ ، فَوْقَ ما هُوَ فيهِ مِنَ الثراءِ وَالْخَيْرِ الْوَافِرِ ، وَدَعَتْهُ خَدِيجَةُ باسْم « أَبى هَالَةَ » . وَدَعَاهُ النَّاسُ بِهَذَا الاسْمِ فَأَحَبَّهُ ، وَطَرِبَ لَهُ .

ثُمَّ دارَ العامُ ، وَأَقْبَلَ العامُ الثَّانِى يَشْهَدُ وَلَدًا ثانِيًا أَسْمَاهُ أَبُوه « هِند » ، وَاشْتَدَّ فَرَحُهُ ، فَمَنَحَ الْفُقَرَاءَ ، وَأَعْطَى الْمَسَاكِينَ وَطَافَ بِالْبَيْتِ[3] شَاكِرًا اللهَ الَّذِى أَكْثَرَ مِنْ عقِبِه[4] ، وَزَادَ

(١) أواصر : روابط .
(٢) قرة عين : سبب سرور .
(٣) بالبيت : الكعبة .
(٤) عقبه : نسله .

تَعَلُّقًا بِخَدِيجَةَ ، وَخَافَ مِنْ شَرِّ الْحُسَّادِ الَّذِينَ يَحْسِدُونَ النَّاس ، فَيُصِيبُونَهُمْ فى أَمْوَالِهِمْ وَأَوْلاَدِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ .

كَمَا خَافَتْ خَدِيجَةُ أَلاَّ تَدُومَ لَهَا هَذِهِ السَّعَادَةُ ، وَأَنْ يَكُونَ الْقَدَرُ قَدْ أَعَدَّ لهَا فى عَالَم الْغَيْبِ شَيْئًا يُنَغِّصُ عَلَيْهَا هَـذِهِ النِّعْمَةَ .

وَكُلَّمَا تَدَفَّقَ الْخَيْرُ ، اشْتَدَّ بِهَا الْخَوْفُ ، وَقَدْ كَانَتْ تُفَكِّرُ ، وَالْقَدَرُ يَنْظُرُ وَيُدَبِّرُ ، ثُمَّ هَجَمَ على هَذِهِ السَّعَادَةِ ، وَخَطِفَ مِنْ وَسَطِهَا أَبَا هَالَةَ فَجْأَةً ، وَخَلَّفَ خَدِيجَةَ مَرَّةً أُخْرَى دُونَ زَوْجٍ ، فَذَاقَتْ ثَانِيَةً ماذَاقَتْ مِنْ قَبْلُ ، وكانَ مَوْتُ أَبى هَالَةَ جُرْحًا فَوْقَ جُرْحٍ ، فَلَمْ يَجِفَّ لَها دَمْعٌ ، وَلَمْ تَخِفَّ لَهَا لَوْعَةٌ(١) .

ولمْ تَلْتَفِتْ إلى تِلْكَ الثَّرْوَةِ الْكَبِيرَةِ الَّتى تركَهَا أَبُو هَالَةَ ، وَزَهِدَتْ فِى هذِهِ الحياةِ الَّتى لا تَدومُ سَعَادَتُهَا ، ولا يَبْقَى لها سُرُورٌ .

---

(١) لوعة : حرقة .

وكُلَّمَا ذكَرَتْ المالَ سَخِرَتْ مِنْهُ ، وَقَالتْ لِنفسِها فى حُزْنٍ وَأَلَمٍ :

— وَهَلْ نَفَعَ المالُ أَبَا هالَةَ ، وَرَدَّ عنه الموْتَ ؟ ! وهلْ نفعَ المالُ عَتِيقًا وَأَنْقَذَهُ من مَخَالِبِ الْفَنَاءِ ؟ !

ثُمَّ تَنْظُرُ إلى ابْنَيْهَا وَبِنْتِها ، وَتَتَذَكَّرُ يُتْمَهُمْ ، فَيُمَزِّقُ الحزنُ قَلْبَهَا ، حَتَّى هُزِلَ(١) جِسْمُهَا ، وَاصْفَرَّ وَجْهُهَا ،وَعَجَزَتْ عن الْحَرَكَةِ ، ولازَمَتْ الْفِراشَ ، وخيَّمَ على دارِها سكونُ الأَسَى(٢) .

ولم تَكُنْ هَذِه الصَّدْمَةُ على قلبِ خُوَيلِدٍ أَقَلَّ مِنْهَا علَى قَلْبِ خَدِيجَةَ وَأُمِّهَا ، فَبَدَتْ عليهِ عَلامَاتُ الْحُزْنِ ، وَأَصْبَحَ يزورُ خَديجَةَ فى بَيْتِهَا كُلَّ يوم مُتَجَلِّدًا(٣) ، مُتَكَلِّفًا ألاَ يُطْلِعَهَا علَى ما فى قَلْبِه ، يَتَوَلَّى أَمْرَ مَالِهَا الكثيرَ ، وَيُوَجِّهُ تِجَارَةَ زَوْجِهَا الرَّاحِلِ ، وَيُلاعِبُ أَبْنَاءَهَا وَيُحَادِثُهَا الأَحَادِيثَ الكثيرةَ لِيُنْسِيَهَا ما تُعَانِيهِ(٤) .

---

(١) هزال : ضعف .
(٢) الأسى : الحزن .
(٣) متجلدا : صابرا .
(٤) ما تعانيه : ماتقاسيه .

لٰكِنَّ حُزْنَ خَدِيجَةَ كَانَ شَدِيدًا ، فاشْتَدَّ بها المرضُ حتَّى خَافَ عَلَيْهَا خويلدُ الْهَلاكَ . فتعاوَنَ هوَ وَأُمُّهَا على تَمْرِيضِهَا ، وأَخذَا يُلِحَّانِ علَيها أَنْ ترْحَم نفسَها ، وتَنْسَى شَيْئًا مما هِيَ فيهِ مِنْ أَجْلِ أَولادِها الصِّغارَ الَّذِينَ يَحْتَاجُونَ إلى قَلْبِ الأُمِّ وَرِعَايَتِهَا ، تَقُولُ لها أُمُّهَا كُلَّمَا وجدَتْ فرصةً للكَلام :

ـ إنَّ إخلاصَكِ ياخديجةُ لِزَوْجَيْكِ فَاقَ كُلَّ إخْلاصٍ ، لٰكِنَّ الْقَدَرَ يَابُنَيَّتِي قَدْ اختارَكِ لِتحُلِّي مَحَلَّهُمَا وَتنْهضِي مَكانَهُمَا ، فعَلَيْكِ وَاجِبٌ كَبِيرٌ .

عَلَيْكِ تربِيةُ هؤُلاءِ الأَبْنَاءِ وَرِعَايَتَهُمْ ، حتَّى يَطْمَئِنَّ كلٌّ مِنْ زَوْجَيْكِ فى قَبْرِهِ ، وَتَرْضَى رُوحُه عنكِ ، كما رَضِيَ كلٌّ مِنهما عنكِ فى حَيَاتِه .

ومَنْ الَّذِى سَيَرْعَى أَبناءَكِ بَعْدَكِ وبعدَ أَبَوَيْهِمَا ؟

أَيُرْضِيكِ أَنْ يُلْقَوا إلى غَيْرِ أَبٍ وَغَيْرِ أُمٍّ ؟

ولم تَزَلْ بها حتَّى خَلَقَتْ فى قَلْبِهَا الإحسَاس بأَنَّهَا أَصْبَحَتْ مكانَ زَوْجَيْهَا ، وأَنَّهَا لا بُدَّ أَنْ تَقُومَ بِرِسَالَتِهَا الَّتِى أُلْقِيَتْ علَى عاتِقِهَا . فَأَخَذَتْ تَسْتَعِيدُ بُرْءَهَا شَيْئًا فَشَيْئًا ، حَتَّى اسْتَطَاعَتْ

أَنْ تُغَادِرَ الْفِرَاشَ ، وَخُوَيْلِدٌ يُدِيرُ عَمَلَهَا ، وَيَحُلُّ مَحَلَّ الزَّوْجِ ، ولا يَنْقَطِعُ ساعةً عَنْ بَيْتِهَا .

لكنَّ الشَّيْخُوخَةَ كانَتْ قدْ نَالَتْ مِنْهُ ، فَفُجِعَتْ بِهِ خَدِيجَةُ ذَاتَ يَوْمٍ ، فكانَ جُرْحًا ثالِثًا فى قَلْبِهَا ، زادَ أَلَمَهَا أَلمًا ، وَحُزْنَهَا حُزْنًا ، وَأَخَذَتْ تُفَكِّرُ فى أمرِها ، وَمَاذَا يُرَادُ بِهَا فى هذهِ الحياةِ .

وكانَ فى بَيْتٍ قريبٍ مِنْ بيتِهَا سَيِّدَةٌ اسْمُهَا آمِنَةُ[1] بِنْتُ وَهْبٍ مِثْلُهَا ، ماتَ زَوْجُها بَعْدَ قليلٍ مِنْ عُرْسِهِمَا ، وخَلَّفَ فى جَوْفِهَا وَلَدًا ، فأَبَتْ أَنْ تَتَزَوَّجَ وَوَهَبَتْ نَفْسَهَا لابْنِهَا مُحَمَّدٍ ، وَصَارَتْ حَدِيثَ النَّاسِ فى الْوَفَاءِ ، وَالصَّبْرِ ، والإِخْلَاصِ ، وقَدْ بَلَغَ ابْنُها هذَا السَّادِسَةَ ، وَهِىَ مَاضِيَةٌ فى عَزْمِهَا على أَنْ تَعِيشَ لابْنِهَا وَحْدَهُ .

فَعَزَمَتْ خَدِيجَةُ أَنْ تكونَ مِثْلَ آمِنَةَ ، الصَّابِرَةِ ، المُضَحِّيَةِ ، فَتَعِيشَ لأَبْنَائِهَا وَحْدَهُمْ ، فَلَمْ تَسْتَجِبْ لمَنْ طَلَبَ يدَها من سَادَةِ قُرَيْشٍ وَشَبَابِهَا ، وَأَلْقَتْ من قَلْبِهَا فِكْرَةَ الزَّوَاجِ ،

(١) آمنة : أم النبى صلى الله عليه وسلم .

وَرَدَّتْ كُلَّ طَالِبٍ ، وَشَمَّرَتْ لِتَنْهَضَ بِتِجَارَتِهَا ، وَتُدِير أَمْرَهَا بِنَفْسِهَا ، وَرَأَتْ مَا يُغْنِيهَا فى اسْتِئْجَارِ الرِّجالِ الَّذِينَ يُسَافِرُونَ بِتِجَارَتِهَا ، فَسَيَّرَتْ تِجَارَةَ زَوْجِهَا كما كانَتْ ، جَاعِلَةً هَمَّهَا أَبناءَهَا ، وَمالَهَا وَأَعمالَهَا الواسِعَة .

الأسئلة

(١)

« « أصبح « هالة » ابنها ، قرة عين لهما ، وتوفّرت «خديجة» على رعايته فأصبحت مضرب المثل بمكة ، فى تربية الأبناء ، كما كانت مضرب المثل فى رعاية الأزواج .

(أ) بمن تزوجت « خديجة » بعد وفاة « عتيق » ؟ وما سر قبولها الزواج منه ؟

(ب) بم ضُرب المثل بالسيدة « خديجة » فى مكة ؟ وما دلالة ذلك على شخصيتها ؟

(٢)

« وكلما تدفق الخير ، اشتد بها الخوف ، وقد كانت

تفكر والقدر ينظر ويدبر ، ثم هجم على هذه السعادة ، وخطف من وسطها « أبا هالة » فجأة ، وخلف خديجة مرة أخرى دون زوج » .

(أ) ما معنى : « تدفق الخير » ؟ وما مظهر تدفقه فى بيت خديجة ؟

(ب) ما أثر موت « أبى هالة » فى نفسية « خديجة » ؟ ولماذا ؟

(جـ) كان أثر وفاة « أبى هالة » على « خويلد » شديداً . فما مظهر ذلك ؟

(د) عزمت « خديجة » على أن تكون مثل « آمنة » فى صبرها وتصميمها ، وضح ذلك .

(٧) أمـــــل

سَارت تِجارَةَ خَدِيجَةَ كما كانَتْ تَسِيرُ تِجارَةُ زَوْجَيْهَا ، وكما تَسِيرُ تِجَارَةُ قُرَيْشٍ ، وَأَصْبَحَ الكَثِيرونَ يَعْمَلُونَ لَدَيْهَا ، ولا يَجِدُونَ غَضَاضَةً[1] فى خِدْمَتِهَا ، بَلْ يَفْخَرُونَ بأَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ عِنْدَ هذهِ السَّيِّدَةِ ، الْمُدَبِّرَةِ الْعَاقِلَةِ ، الَّتِى فَهِمَتْ أُصُولَ التجارَةِ وَدَقَائِقَهَا ، وَعَرَفَتْ مَا يَكْثُرُ عَلَيْهِ الطَّلَبُ فى ناحِيَةٍ ، وما يَقِلُّ عليه الطَّلَبُ فى نَاحِيَة .

وصارَتْ ذَاتَ رَأْيٍ فى شُئُونِ المالِ ، لا يَأْنَفُ[2] كثيرٌ من التُّجَارِ أَنْ يَسْتَمِعَ إلى تَوْجِيهَاتِهَا ، وَيَعْمَلَ بِهَا ، لأَنَّهُمْ جَرَّبُوا هذهِ الآراءَ وَاقْتَنَعُوا بِنَجَاحِها . .

وَأَصْبَحَ بَيْتُ خَدِيجَةَ مِنَ الْبُيُوتِ التِّجَارِيَّةِ الْكَبِيرَةِ فى مَكَّةَ ، وَصَارَتْ مَخَازِنُهَا مِنْ أَوْسَعِ المخَازِنِ وَأَشْهَرِهَا ، وَامتاز

---

(١) غضاضة : منقصة .
(٢) لا يأنف : لا يتكبر .

مالُهَا وَتِجَارَتُهَا بِالْحَلَالِ وَالْحَقِّ ؛ لا نُقْصَانَ ولا تَطْفِيفَ[١] فى الْكَيْلِ والميزَانِ ، ولا شَىْءَ مِنْ ذَلِكَ المالِ فى طَرِيقِ الرِّبَا[٢] الَّذِى شاعَ فى ذَلِكَ الْوَسَطِ .

كما أَنَّهَا عَرَفَتْ حَقَّ الْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ ، فَأَخْرَجَتْهُ رَاضِيَةَ النَّفْسِ طَيِّبَةَ الْفُؤَادِ ، مَسْرُورَةً بما تُقَدِّمُ ، وبما تُفَرِّجُ مِنْ حَاجَةٍ ، وَتُزِيلُ مِنْ كَرْبٍ .

وقد أَحَسَّتْ بِأَنَّ زِيَادَةَ ذَلِكَ المالِ ، مَرْبُوطَةٌ بِذَلِكَ الْعَطَاءِ ، فَكُلَّمَا زادَتْ إِحْسَانًا زَادَتْ ثَرْوَتُهَا نماءً وَبَرَكَةً ، فَأَكْثَرَتْ من الإِحْسَانِ حَتَّى فاقَتْ الرِّجالَ ؛ والنَّاسُ يُعْجَبُونَ مِنْ أَمْرِهَا ، وَأَمْرِ تِجَارَتِهَا ، حَتَّى أَرْبَتْ[٣] عَلَى تِجَارَةِ كَثِيرِينَ من المهَرَةِ الْمُحَنَّكِينَ[٤] .

ولٰكِنَّهَا لَمْ تَسْلَمْ مِنَ السُّخْرِيَةِ اللَّاذِعَةِ ، حينَ دَخَلَتْ هذَا الْمَيْدَانَ الَّذِى يُضْنِى[٥] الرِّجَالَ .

---

(١) لا تطفيف : لا زيادة .
(٢) الربـــا : الزيادة .
(٣) أربت : زادت .
(٤) المحنكين : المجربين .
(٥) يضنى الرجال : يتعبهم .

وكثيرًا مَا ذَهَبَ إِلَيْهَا إِخْوَتُهَا يَنْصَحُونَهَا أَنْ تَتَزَوَّجَ رَجُلاً يَكْفِيهَا ذَلِكَ العنَاءَ ، فَتُحَادِثُهُم فى اسْتِعْدَادِ الرِّجَالِ وَاسْتِعْدَادِ النِّسَاءِ ، وَتُحَاوِلُ إِقْنَاعَهُمْ بِأَنَّ الْمَرْأَةَ لَهَا قَلْبٌ مِثْلُ قَلْبِ الرَّجُلِ وَقُوَّةٌ مِثْلُ قُوَّتِهِ ، وَأَنَّهَا إِذَا أَرَادَتْ أَنْ تَشُقَّ طريقَهَا فى الحياةِ ، وَعَزَمَتْ وَصَمَّمَتْ ، انْفَتَحَ لَهَا الطَّرِيقُ ، وَدَنَا لها الْبَعِيدُ ، وَذَلَّ لَها الصَّعْبُ ، ثم تَقولُ لهُم باسمةً :

ـ هَوِّنُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَسَوْفَ أَضْرِبُ المثلَ لأُولَئِكَ الرِّجَالِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ الْمَرْأَةَ مَتَاعًا ، وَيَحُدُّونَ نَشَاطَهَا ، وَيَحْبِسُونَ ذَكَاءَهَا ، وَيَقْتُلُونَ مَوَاهِبَهَا بَيْنَ جُدْرَانِ الْبُيُوتِ .

وَسَوْفَ أَضْرِبُ الْمَثَلَ لِأُولَئِكَ النِّسَاءِ الْمُتَوَارِيَاتِ خَلْفَ الأَسْتَارِ ، يَصْرِفْنَ نَشَاطَهُنَّ وَذَكَاءَهُنَّ فيما لا يُفِيدُ ولا يُجْدِي[1] .

وَمَا المرأَةُ إِلاَّ مَخْلُوقٌ اسْتَبَدَّ بِهِ الرِّجَالُ وَأَرَادُوا لَهُ أَنْ يَكُونَ ضَعِيفًا سَجِينًا فى أَيدِيهِمْ ، يأْكُلُ وَيَلِدُ ، كما تأْكُلُ الْحَيَوَانَاتُ وَتَلِدُ لِلنَّاسِ .

---

(١) لا يجدى : لا ينفع .

فَإِذَا أَخْفَقُوا فى إِقْنَاعِهَا بما يُرِيدُونَ ، انْصَرَفُوا غَاضِبِينَ . ثُمَّ عَادُوا مَرَّةً أُخْرَى ، حِينَ يَشْتَدُّ عَلَيهم ما يَسْمَعُونَهُ من النَّاسِ عن ابْنَةِ خُوَيْلِدٍ الَّتِي تَصْنَعُ مَا يَصْنَعُ الرِّجَالُ .

أَصَمَّتْ خَدِيجَةُ أُذُنَيْهَا عَنْ كَلامِ النَّاسِ ، وَمَضَتْ فى طَرِيقِهَا الَّتِى أَحَبَّتْهَا ، وَوَجَدَتْ فيها لَذَّةً صَرَفَتْهَا عنِ الأَزْوَاجِ ، وَدَفَعَتْهَا إِلَى الزِّيَادَةِ وَالافْتِنَانِ .

فَأَخَذَتْ تَكْبُرُ فى عَيْنِ النَّاسِ ، وَكُلَّمَا مَرَّتْ الأَيَّامُ زَادُوا لها احْتِرامًا وتَبْجِيلا ، وَقَدَّرُوا جِهَادَهَا وقوةَ قَلْبِهَا ، كما قَدَّرُوا طِيبَتَهَا ، وَعَطْفَهَا ، وَاهْتِمَامَهَا بِأَبْنَائِها ، وَالْمُشَارَكَةَ بمالِها فى كُلِّ مَكْرُمَةٍ ، كما يُشَارِكُ رُؤَسَاءُ قُرَيْشٍ ، وَفَوْقَ مَا يَبْذُلونَ .

وَأَخَذَتْ النِّسَاءُ تَفْخَرْنَ بِخَدِيجَةَ علَى الأَزْوَاجِ ، وَتُثْبِتْنَ لَهُم قُدْرَةَ الْمَرْأَةِ وَقُوَّتَهَا ، وَأَنَّهَا لا تَقِلُّ عنِ الرَّجُلِ ، وَأَنَّ الرِّجَالَ لو بَاعَدُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَسِجْنِهِنَّ ، لَخَرَجْنَ إِلَى الْحَيَاةِ ، وَأَثْرَيْنَ(١) كما أَثْرَتْ خديجةُ ، وَأَقْنَعْنَ الرِّجَالَ كما أَقْنَعَتْ .

ومعَ تَزَايُدِ هَذَا الثَّرَاءِ ، وَاتِّسَاعِ تِلْكَ الشُّهْرَةِ ، كانَ طَمَعُ رُؤَسَاءِ

---

(١) أثرين : كثر مالهن .

مَكَّةَ وَشَبَابِهَا يَتَزَايَدُ فى الزَّوَاجِ مِنْ خَدِيجَةَ ، يَتَوَسَّلُونَ إليها وَيَبْذُلُونَ ، لكنَّهَا غَدَتْ فى شُغْلٍ عنْ هَذَا بما هِيَ فِيهِ ، لا تُفَكِّرُ فى الزَّوَاجِ ولا تَنْظُرُ إليهِ ، ولا تَسْمَعُ لأُولئِكَ الْمُتَوَسِّلِينَ ، وكلَّمَا تقدَّمَتْ بِها السِّنُّ ، زَادَتْ فى أَعْيُنِ الرِّجَالِ حَلاوَةً ، وَزَادَتْ رغبتُهم فى زَوَاجِها .

لكنَّ هَؤُلاءِ الطَّامِعِينَ لَمْ يَجْرُؤْ واحدٌ مِنْهُمْ على مُحَادَثَتِهَا فى ذَلِكَ الأَمْرِ ، فَقَدْ كانَ لها هَيْبَةٌ تَأْخُذُ بِقُلوبِ الرِّجَالِ وَتَعْقِدُ أَلْسِنَتَهُمْ ، وكانَ لها شَخْصِيَّةٌ يَصْغُرُ أَمَامَهَا الْكُبَرَاءُ ، فَيَلْجَئُونَ إلَى الْوُسَطَاءِ وَالْوَسِيطَاتِ ، لكنَّها كانَتْ مَاضِيَةً فى الطَّرِيقِ الَّتِى رَسَمَتْهَا .

غَيْرَ أَنَّهَا كانتْ ذَاتَ ليلَةٍ نَائِمَةً فى فِرَاشِهَا ، بَعْدَ سَهْرَةٍ امْتَدَّتْ إلى مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ، حَسَبَتْ فيها أَثمانَ السِّلَعِ الَّتى أُرْسِلَتْ إلى الْيَمَنِ ، وَقَدَّرَتْ ما يُرْجَى لها من الرِّبْحِ ، بَعْدَ حِسَابِ النَّفَقَاتِ ، وَمَا يَخْرُجُ مِنَ الصَّدَقَاتِ .

فإِذَا بِهَا تَرَى السَّمَاءَ الصَّافِيَةَ ، وَالشَّمْسَ السَّاطِعَةَ ، وَالدُّنْيَا كُلَّهَا جَمِيلةً حُلْوَةً ، ثُمَّ تَنْظُرُ فإِذَا بالشَّمْسِ تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ،

قدْ ازْدَادَتْ أَشِعَّتُهَا ، وَكَبِرَ قُرْصُهَا وَاشْتَدَّ نُورُها ضِيَاءً ، فَتَدْخُلُ دَارَهَا ، وَتَمْلَؤُهَا بالنُّورِ ، وَتَغْمُرُهَا بالضِّيَاءِ ، ثُمَّ تَبْعَثُ النُّورَ إلى مَا حَوْلَهَا مِنْ مكةَ ، ثُمَّ تَمْتَدُّ بِهِ إلى ما بعدَ مكةَ ، حَتَّى تَغْمُرَ بِقاعَ الأَرْضِ كُلَّهَا .

فَهَبَّتْ من نَوْمِهَا ، وَفَتَحَتْ عَيْنَيْهَا فى جَوَانِبِ الدَّارِ ، فَوَجَدَتْهَا كما هِيَ لم تَتَغَيَّرْ ، وَوَجَدَتْ جَوَارِيَهَا نَائِمَاتٍ ، مُسْتَغْرِقَاتٍ فى نَوْمِهِنَّ ، وَالدُّنْيَا سَاكِنَةٌ ، وَاللَّيْلُ هادِئٌ ، فَجَلَسَتْ فى فِرَاشِهَا تُفَكِّرُ فى تِلْكَ الشَّمْسِ الَّتى كانَتْ فى الدَّارِ ، حَتَّى بَدَتْ تَباشِيرُ الصَّباحِ ، فَارْتَدَتْ مَلابسَهَا ، وَدَعَتْ بَعْضَ خَدَمِها ، وَأَسْرَعَتْ إلى بَيْتِ ابْنِ عَمِّهَا وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ .

قَالَ وَرَقَةُ فى دَهْشَةٍ :

ـ مَاذَا جَاءَ بِكِ يا خَدِيجَةُ فى هَذِهِ السَّاعَةِ الْمُبَكِّرَةِ ، وَمِثْلُكِ لا يُوقِظُهُنَّ إلا ضَوْضَاءُ مكة ، حِينَ يَنْتَصِفُ النَّهارُ ؟!

قالَتْ خَدِيجَةُ ، وَأَثَرُ دَهْشَتِهَا مُرْتَسِمٌ فى وَجْهِهَا :

ـ خَيْرًا يَا وَرَقَةُ ، هلْ عِنْدَكَ تَأْوِيلُ(١) الرُّؤْيَا ؟

---

(١) تأويل الرؤيا : تفسيرها وتعبيرها .

فَأَصْغَى وَرَقَةُ إليها وهِيَ تَقُصُّ عليهِ قِصَّةَ الشَّمْسِ الْكَبِيرَةِ الْمُتَلأْلِئَةِ[١] ، وَوَجْهُه يُشْرِقُ كُلَّمَا تَقَدَّمَتْ فى قِصَّتِهَا ، وَأَسَارِيرُهُ تَنْفَرِجُ[٢] كُلَّمَا اقْتَرَبَتْ مِنْ تمامِهَا ، حَتَّى انْتَهَتْ ، فَصَاحَ فى سُرُورٍ :

— هَنِيئًا يا خَدِيجَةُ ! سَتَتَزَوَّجِينَ يابْنَةَ عَمِّى !

فَاشْتَدَّتْ بها الدَّهْشَةُ ، وَصَاحَتْ فى غَضَبٍ :

— عَلِمْتَ يا وَرَقَةُ أَنَّنِى تَركتُ الرِّجَالَ ، وَالْتَفَتُّ إِلَى ما هُوَ أَهَمُّ ! عَرَفْتَ أَنِّى وَهَبْتُ نَفْسِى لأَبْنَائِى وتِجَارَتِى ، فَهَلْ تَجِدُّ ؟ !

أَعِدْ النَّظَرَ فى تَأْوِيلِ هذِه الرُّؤْيَا ، إذا كُنْتَ لا تَمْزَحُ : فقدْ تهتَدِى إلى شَىْءٍ آخَرَ فإِنَّنِي لَنْ أَتزَوَّجَ !

فزادَتْ ابْتِسَامَةُ ورقةَ انْفِرَاجًا ، ثم قالَ فى رِفْقٍ :

— سَتَتَزَوَّجِينَ يا خَدِيجَةُ .

إِنَّنِى لا أُحِبُّ الْهَزْلَ ، وَأَنْتِ تَعْرِفِينَنِى وتَعْرِفِينَ طَرِيقِى .

---

(١) المتلألئة : اللامعة .
(٢) وأساريره تنفرج : يظهر السرور على وجهه .

إِنَّكِ سَتَتَزَوَّجِينَ الشَّمْسَ الْمُضِيئَةَ الَّتِى سَتَقْشَعُ[١] الظَّلَامَ وَتُنِيرُ الدُّنيا ، وَتَهْدِى النَّاسَ سَوَاءَ السَّبِيلِ[٢] بعدَ ما ضَلُّوا وَعَمُوا[٣] . .

سَتَتَزَوَّجِينَ يا خَدِيجَةُ رَجُلاً غَيْرَ الرِّجَالِ !

سَتَتَزَوَّجِينَ نَبِيًّا يا خَدِيجَةُ !

فانْتَفَضَتْ خَدِيجَةُ ، كَأَنَّهَا كانَتْ فى حُلْمٍ ثمَّ أَفَاقَتْ مِنْهُ ، ولمْ تَتَكَلَّمْ ، وَاسْتَأْنَفَ ورقةُ قائِلا :

ـ سَيُبْعَثُ هذَا النَّبِيُّ ياخَدِيجَةُ مِنْ بَيْنِ الْعَرَبِ ، كما جاءَ فى الْكُتُبِ الَّتى قَرأْتُها ، وقَدْ قَرُبَ زَمَانُه ، وَسَيَخْتَارُ اللهُ لَهُ زَوْجَةً صَالِحَةً تَقُومُ مَعَهُ وَتُعِينُهُ وَتُجَاهِدُ أَعْدَاءَهُ .

أَلَدَيْكِ الاسْتِعْدَادُ لِذَلِكَ الْجِهَادِ ياخَدِيجَةُ ؟ !

أَعِدِّى نَفْسَكِ مِنَ الْيَوْمِ فَرُؤْيَاكِ تُؤَكِّدُ أَنَّكِ زَوْجُ ذَلِكَ النَّبِيِّ !

---

(١) ستقشع : ستزيل .
(٢) سواء السبيل : طريق الحق .
(٣) ضلوا وعموا : تاهوا عن الحق .

فقامتْ خديجةُ إلى دَارِهَا ، بَيْنَ المصدِّقَةِ وَالْمُكَذِّبَةِ ، تَقُولُ لِنَفْسِهَا فى حَيْرَةٍ :

ـ قدْ يَكونُ ما قالَهُ ورقةُ حَقًّا ، وقدْ يكونُ قد فَسَّرَ هذِهِ الرُّؤْيَا عَلَى مِقْدَارِ اجْتِهَادِهِ .

فما العَلاقَةُ بينَ هذِه الشَّمْسِ الكبيرَةِ ، وَبَيْنَ ذَاكَ النَّبِىِّ ؟!

وَكَيْفَ اسْتَطَاعَ وَرَقَةُ أَنْ يُحَدِّدَ أَنَّ هَذَا النَّبِىَّ من الْعَرَبِ ، وَأَنَّنِى سَأَكُونُ زَوْجَهُ ؟ ! !

حَتَّى بَلَغَتْ بَيْتَهَا ، فَانْصَرَفَتْ إلى عَمَلِهَا ، وَأَصْبَحَت هذِه الرُّؤْيَا وذلِكَ التأْوِيلُ شُغْلَهَا الشَّاغِلَ ، وَإِنْ لَمْ تَتَحَدَّثْ بِه إلى أَحَدٍ .

الأسئلة

(١)

«أصبح بيت خديجة من البيوت التجارية الكبيرة فى مكة ، وصارت مخازنها ، أوسع المخازن وأشهرها ، وامتاز مالها وتجارتها بالحلال والحق» .

(أ) ما العوامل التى ساعدت «خديجة» على تحقيق ما تشير إليه العبارة السابقة ؟

(ب) ما موقف الناس من دخول «خديجة» ميدان التجارة ؟

(جـ) ماذا فعلت «خديجة» أمام نقد الناقدين ؟ وما دلالة ذلك على شخصيتها ؟

(٢)

ما أثر زيادة مال «خديجة» واتساع شهرتها فى نفوس عظماء مكة ؟

(٣)

«أصغى ورقة إليها وهى تقص عليه قصة الشمس الكبيرة

المتلألئة ، ووجههُ يشرق كلما تقدمت فى قصتها ، وأساريره تنفرج كلما اقتربت من تمامها ، حتى انتهت ، فصاح فى سرور :

هنيئا يا « خديجة » ستتزوجين يابنة عمى !

(ا) ما سر إشراق وجه « ورقة » ؟ وما معنى « وأساريره تنفرج » ؟

(ب) بم أول « ورقة الرؤيا » ؟

(جـ) ما موقف « خديجة » من هذا التأويل ؟ ولماذا ؟

* * *

٨) عـــرض

اقْتَرَبَ مَوْعِدُ قَافِلَةِ اليَمنِ ، وبَعدَ أَيَّامٍ قَلائِلَ أَقْبَلَ البَشِيرُ يُعْلِنُ ورُودَ العِيرِ(١) فزَادَتْ الحرَكَةُ فى دارِ خَدِيجة ، واستعدَتْ المخازِنُ لاسْتِقْبَالِ السِّلَع الجَدِيدَةِ ، وَوَفَدَ عَلَى الدَّارِ الكَثِيرون مِمَّنْ اعْتادُوا أَن يَزُورُوا خدِيجَة إِذَا أَقْبَلَتْ القافِلةُ ، لِيَنَالُوا ما تَتَفَضَّلُ بِهِ عَلَيْهم ، ونَشِطَتْ الجَوارِى ، تُذَكِّرُها كُلٌّ مِنْهُنَّ بما وَعَدَتْ مِنْ تُحْفَة ثَمِينَةٍ من نسيجِ اليمَنِ المُزَرْكَشِ(٢) .

فلَمَّا أَقْبَلَتْ القافِلةُ ، نُقِلَتْ سِلَعُ خديجَةَ إِلى مخازِنها ، كما نُقِلَتْ سِلَعُ كُلِّ تاجِرٍ إِلى مَخازِنِه ، وجَلَسَتْ إِلى رجالِها تَسْمَعُ مِنْهُم أَخبارَ الرِّحْلَةِ وأَخبارَ المالِ ، تَسْأَلُهم

---

(١) ورود العير : قدوم إبل التجارة .
(٢) المزركش : المزخرف .

وَيُجيبونَ ، ثمَّ يُبَلِّغونَها تَحياتِ عُمَلائِها المُعْجَبِينَ بها ، الَّذِينَ يَتَمَنَّوْنَ رُؤْيَتَها ، وَهِيَ باسِمَةً لما تَسْمَعُ .

فَلمَّا أَتمَّ عُمَّالُها أَحادِيثَهُم ، وَوَقَفَتْ مِنْهُم عَلَى ما أَرادَتْ ، مَنَحَتْهُم ما يَسْتَحِقُّونَهُ مِنَ الأَجْرِ ، وما اشْتَرِطَ لَهُم من نَصِيبٍ فى الأَرْباحِ ، لَمْ تَبْخَسْ[1] أَحَدًا شيئًا مِنْ حَقِّهِ ، بل زادَتْ ، عَلَى ما اشتَرَطُوا ، فَخَرَجُوا مَسْرُورِينَ، شاكِرِينَ لها كَرَمَها وحُسْنَ مُعامَلَتِها .

ثمَّ ذَهَبَتْ إلى مخَازِنِها ، وأَلْقَتْ نَظْرَةً على السِّلَعِ ، وأَخَذَتْ بَعْضًا مِنَ التُّحَفِ وأَهْدَتْها إلى جَوَارِيها ، فَرَقَصْنَ طَرَبًا ، ثمَّ جَلَسَتْ كُلٌّ مِنْهُنَّ إِلَى الأُخْرَى تُرِيها نَسِيجَها ، وَنَقْشَه ، وما يَمْتَازُ بِهِ مِنْ لوْنٍ أَبْيَضَ نَاصِعِ[2] البيَاضِ ، أَوْ أَحْمَرَ شَدِيدِ الحُمْرَةِ ، تَخْلُق كُلٌّ واحدةٍ فى هَدِيَّتِها مَيزَةً وَإِنْ كانَتْ الهَدَايا كُلُّها مُتساوِيةَ الجَوْدَةِ .

ثمَّ أَخَذَتْ خَديجةُ تَسْتَعِدُّ لِرِحْلَةِ الصَّيْفِ الَّتى تَسِيرُ

---

(١) لم تبخس : لم تنقص .
(٢) ناصع : شديد البياض .

بمتاجِرِ اليَمنِ إلى الشَّامِ ، ووَفَدَ علَيها الرِّجالُ يَعْرِضُونَ خَدَماتِهِم ، ويَسْأَلونَها أَنْ تُرْسِلَهُم فى تَجارَتِها .

وأَخَذَ العُمَّالُ يَحْزِمُونَ السِّلَعَ ، ويُعِدُّونَ الجِمالَ ، وَقِرَبَ الماءِ ، وأَوْعِيَةَ الزَّادِ وَهِيَ تُشْرِفُ بِنَفْسِهَا علَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبيرةٍ . وتُوَجِّهُ إلَى ما يَجِبُ أَنْ يُؤْخَذَ ، وما يَجِبُ أَنْ يُتْرَكَ .

فَلَمَّا اقْتَرَبَ مَوْعِدُ الرَّحِيلِ ، ذهبَ إِلَيها أَبُو طَالِبٍ ابْنُ عَبْدِ المُطَلِبِ ، ابْن هاشِمٍ سَيِّدُ مكةَ ، فَقَابَلَتْهُ باحْتِرَامٍ ، وجلسَا يَتحدَّثَانِ فى أُمورِ القافِلةِ والتِّجارَةِ ، والرِّبْحِ والخسَارَةِ ، وما يُؤَدِّيهِ العُمَّالُ المُجِدُّونَ من جَهْدٍ يُفِيدُ ، وما يَجْلِبُه المُهْمِلُونَ على السِّلَعِ مِنْ بَوارٍ[١]

وتحَدَّثَتْ خَديجةُ بِطلاقةٍ عنْ عُمَّالِها وتِجارَتِها . وعنْ كَثيرِينَ مِمَّنْ يُعاوِنُونهَا ، ومِقْدارِ إخلاصِ كُلِّ مِنْهُمْ فى عَمَلِهِ وأَثَرِ هذَا الإِخْلاصِ فى رَواجِ التِّجارَةِ وكَثْرَةِ الأَرْباحِ ، وفيما يَحْصُلُونَ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ومُكافَأَةٍ ،

---

(١) بوار : كســاد .

وأَبُو طالبٍ شَديدُ السُّرور بِفَهْمِها لِدَقَائِقِ الأُمُورِ ، وبَصَرِهَا[١] بِمَواطِنِ النَّفْعِ والضَّرَرِ ، يَمْدَحُ عَمَلَها ، ورِعايَتَها لعُمَّالِها ، وحُسْنَ اخْتِيارها للرِّجالِ الَّذِين تَكِلُ[٢] إلَيهم مالَها .

وَتَشَعَّبَ الحَدِيثُ وَدَارَ مِنْ ناحِيَةٍ إلىَ ناحِيَةٍ ، ومِنْ نَوْعٍ مِنَ السِّلَعِ إلَى نَوْعٍ ، وَمِنْ رَجُلٍ إلَى رَجُلٍ ، حتَّى وجَدَ أَبو طالب الفُرْصَةَ[٣] لِلْحَدِيثِ فيما جَاءَ مِنْ أَجْلِه .

وكانَ ابْنُ أَخِيهِ مُحمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ قَدْ بَلَغَ الخامِسَةَ والعِشْرِينَ وَلَمْ يَتَزَوَّجْ ، لأَنَّهُ لا مالَ لَه يُعِينُه علىَ الزَّواجِ ، وكانَ يَرْعَى الغَنَمَ لأَهْلِ مكةَ لأَنَّهُ نشأَ فقيرًا، وإنْ كانَ أَبُوهُ عَبْدُ الله بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ سَيِّدَ مكة .

فَفَكَّرَ عَمُّهُ فى أَنْ يَجِدَ لَهُ عملاً مُرْبِحًا أَكْثَرَ مِنْ رَعْيِ الغَنَمِ ، يَسْتَعِينُ بِفَضْلِهِ علىَ الزَّواجِ وَبناءِ أُسْرَةٍ

---

(١) بصرها : معرفتها .
(٢) تكل اليهم : تسلمهم .
(٣) الفرصة : الوقت المناسب .

جَدِيدَةٍ ، فذَهَبَ إلَى خَدِيجَةَ يَسْأَلُهَا عَمَلاً لَهُ ، فلَمَّا وجَدَ الفُرْصَةَ لِلْحَدِيثِ عَنْ قَصْدِهِ ، قَالَ بِاسِماً :

ـ ومَا رأيُكِ يا خَدِيجةُ فى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ابن أخى ؟ أَتَرَيْنَهُ يَصْلُحُ لِلْقِيامِ بِشَىءٍ مِنْ عَمَلِكِ فى قَافِلَةِ الشَّامِ ، الَّتى تَتَأَهَّبُ[1] للرَّحِيلِ ؟

فَدَقَّ قَلبُ خَدِيجَةَ ، وَأَحَسَّتْ بِوَقْعِ هذَا الاسْمِ على فُؤادِهَا ، وَكَانَ محمدٌ قدْ مَلأَ الأَسْماعَ بأَمانَتِه ، وصِدْقِهِ ، وإِخْلاصِهِ ، فى عَمَلِه ، وبُعْدِهِ عَن الطُّرُقِ الَّتى يَسِيرُ فِيها شَبابُ مَكَّةَ ، ولَمْ يَصْرِفْهُ حُسْنُه وقُوَّتُه إِلَى ما يَنْصَرِفُ إليهِ أَمْثَالُهُ ، فكانَ مِثَالَ العِفَّةِ والطَّهارَةِ . فقالتْ خديجةُ باسِمةً :

مِثْلُ مُحمدٍ تُلْقَى إليه الأَماناتُ وَيُوثَقُ به . لكنَّهُ لَمْ يُجَرِّبْ الطَّرِيقَ مِنْ قَبْلُ !

فَطمأَنَها أَبو طالبٍ إلَى مَعْرِفَتِه بالطَّرِيق ، لأَنَّهُ صاحَبَه فِيها حِينَ كانَ فى العاشِرَةِ مِنْ سِنِّهِ ، وأَنَّه أَدْرَكَها

---

(١) تتأهب : تستعد .

وَوَعَاهَا(١) أَكْثَرَ مِمَّا يُدْرِكُهُ غَيرُه مِمَّن يَكْبُرونَه ، وهُوَ قَوِىٌّ قادِرٌ على مُقاوِمَةِ السَّفَرِ وعَنائِه . ولَهُ خِبْرَةٌ بالتِّجَارَةِ وأُمورِها . حاسِبٌ ماهِرٌ ، ومُدَبِّرٌ مُفَكِّرٌ ، قد عَوَّدَهُ رَعْىُ الغَنَم الدِّقَةَ والصَّبْرَ ، وحُسْنَ تَصْرِيفِ الأُمورِ .

كانتْ خديجةُ تَستَمِعُ لأَبِى طالبٍ ، وذِهْنُها سابِحٌ معَ الأَيَّامِ ، تَتَذَكَّرُ يَوْمَ وُلِدَ مُحمدٌ ، وفَرْحَةَ جَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، واشْتِراكهَا معَ مكةَ فى هذِه الفَرْحَةِ حينَ كانَتْ فى الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ .

ثمَ تَرَى مكةَ وهِى تَرُدُّ عبدَ المطَّلِب عن ذَبْحِ ابنهِ عبدِ اللهِ ، وَتَتَذَكَّرُ مِنْ بَعِيدٍ يومَ الذَّبْحِ والفِداءِ الكَبيرِ

ثمَّ تَرَى ليلةَ زَفافِها الَّتى احْتَفَلَتْ مَكةُ بِهَا وقد كانَتْ من قَبْلُ لا تُقِيمُ الأَفْرَاحَ مُشارَكةً لعبدِ المُطَّلِبِ فى حُزْنِه علَى عَبْد اللهِ ، حتى كانَتْ لَيْلَةُ زِفافِها ، وَعَبْدُ المُطَّلِبِ مَسْرُورٌ لميلادِ مُحمدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ .

---

(١) وعاها : حفظها .

تَذَكَّرَتْ كيفَ نَشأَ محمدٌ يَتيمًا ، وكَيْفَ فَقَدَ أُمَّهُ صغِيرًا بعدَ أَبيه ، وكيفَ سارَ فى الطَّريقِ المُسْتَقِيمِ مَعَ أَنَّهُ يَتِيمُ الأَبِ والأُمِّ ، فَوَجَدَتْ شَفَتَيْها تُرَدِّدَانِ فى سُرُورٍ :

ـ رَضِيتُ يَا أَبا طَالِبٍ ، ولَوْ طَلَبْتَ هذَا لِلبَعِيدِ لأَجَبْنَا ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْحَبِيبِ القَرِيبِ ؟ !

فانْبَسَطَتْ أَسارِيرُ أَبِى طالِبٍ ، وصَمَتَ قَلِيلاً ، ونَظَرَ إلى خَدِيجَةَ شَاكِرًا ، ثم حَاوَلَ الكلامَ ، ففَهِمَتْ ما يَوَدُّ أَنْ يَقُولَ ، فَأَسْرَعَتْ باسِمَةً :

ـ سَأُحَقِّقُ رَغْبَتَكَ يَا أَبا طالب .

لَنْ أَجْعَلَ أَجْرَ مُحمَّدٍ كَأَجْرِ مِثْلِه مِمَّنْ يَذْهبونَ فى تِجارَتِى ، سَأُعْطِيهِ ضِعْفَ ما يَأْخُذُونَ ، فَلَيْسَ قَدْرُ مُحمد كَأَقْدارِ النَّاسِ ، فمُحَمَّدٌ عِنْدَ النَّاسِ كَبِيرٌ ، ولابُدَّ أَنْ يَكونَ أَجْرُهُ كِفَاءَ[1] مَنْزِلَتِهِ .

---

(١) كفاء منزلته : مقدار ما يساوى مكانته .

فكرَّرَ أبو طالبٍ شُكْرَهَا ، ثُمَّ استأْذَنَها فى الانْصِرافِ لِيَزُفَّ الخبرَ لابْنِ أخِيهِ ، وذهبَ مُسْرِعًا إلَى بَيْتِ مُحمدٍ ابْنِ عَبْدِ اللهِ .

الأسئلة

(١)

« ثم ذهبت إلى مخازنها ، وألقت نظرة على السلع ، وأخذت بعضا من التحف ، وأهدتها إلى جواريها ، فرقصن طربا ، ثم جلست كل منهن إلى الأخرى تريها نسيجها ، ونقشه ، وما يمتاز به » .

(ا) ضع مفرد « التحف » فى جملة توضح معناها .

(ب) لماذا ذهبت خديجة إلى مخازنها ؟ وماذا فعلت ؟

(ج) ماذا صنعت الجوارى بعد أخذ الهدايا ؟

(٢)

« لن أجعل أجر « محمد » كأجر مثله ممن يذهبون فى تجارتى ، سأعطيه ضعف ما يأخذون ، فليس قدْر

محمد كأقدار الناس ، « فمحمد » عند الناس كبير ، ولابد أن يكون أجره ، كفاء منزلته » .

(ا) من القائل ؟ وما المناسبة ؟

(ب) ما معنى (قدر محمد) ؟ اذكر من هذا الفصل ما يدل على قدره .

(ج) (لابد أن يكون أجره كفاء منزلته ،) — وضح معنى الجملة ، واذكر دلالتها على من قيلت فيه » .

* * *

(٩) لقـــاء

سُرَّ مُحَمَّدٌ بما نَقَلَ إليهِ عَمُّه مِنْ حَدِيثِ خَدِيجَةَ ، وأَشارَ عليهِ عمُّه بالذَّهابِ إلى بَيْتِها ، لِيَنْظُرَ ما تَأْمُرُ بِه ، فذهبَ إليها .

وَجَدَ دارًا فَسيحةَ الجَنباتِ ذاتَ طابِقين كبيرَيْنِ ، لها بابٌ واسعٌ يُوحِي إلَى مَنْ يَراهُ بِعَظَمَةِ الدَّارِ ، وعظَمَةِ أَصْحابِها ، وَوَجَدَ كثيرًا من النَّاسِ يَدْخُلونَ ويَخْرُجونَ ، منهمُ الكبيرُ ، ومنهمُ الصَّغيرُ ، ومِنهمُ النِّساءُ ، ومنهمُ الرِّجالُ ، منهُم مَنْ يَحْمِلُ شَيئًا ، ومَنْ لا يَحْمِلُ شيئاً ، والجوَارِي والخَدَمُ يَذْهَبونَ وَيَجِيئُونَ فى حرَكَة دائِبةٍ ، ملابِسُهُمْ نَظيفةٌ ، ووجُوهُهُمْ مُشْرِقَةٌ ، فاسْتأْذَنَ على خَدِيجَةَ فأَذِنَتْ لَه .

دخَلَ منَ البابِ الواسعِ إلَى الفِناءِ الكَبيرِ ، ثمَّ سارَ به ، الخادِمُ إلى غُرْفَة مِنَ الغُرَفِ ، وتَقَدَّمَهُ إلَيها ، فوجَدَ

غرفَةً فَسيحةً مَفْرُوشةً بالبُسُطِ الثمينةِ . علَيها أَلوانٌ منَ الطَّنافِسِ البَدِيعَةِ ، وفَوْقَ جُدرَانِها نقوشٌ دَقيقةٌ ، وتصَاويرُ جَميلَةٌ ، فجلسَ فى جانبٍ من جَوانِبِ الحُجْرَةِ يَنْتَظِرُ .

ولمْ يَطُلْ بهِ المُقَامُ ، حتَّى دَخَلَتْ عليهِ امْرَأَةٌ مُسْتَدِيرَةُ الْوجْهِ ، واسِعَةُ الْعَيْنَيْن ، طوِيلَةُ الشَّعْرِ نافِذَةُ النَّظَراتِ ، بَيْضاءُ البَشَرَةِ ، تَكْسُو شَفَتَيْهَا ابْتِسَامَةٌ ، عَرِيضَةٌ ، تَرْتَدِى ثَوْبًا منَ الحرير الخَالِصِ ، المُطَرَّزِ بالنُّقُوشِ الْجَميلَةِ ، وفى قَدَمَيْهَا خُفَّانِ من الجلُودِ الغَالِيَةِ ، يُحِيطُ عُنُقِهَا عِقْدٌ من الجَوْهَرِ ، وَيَتَدَلَّى مِنْ أُذُنَيْهَا قُرْطٌ منَ الدُّرِّ .

فَوَقَفَ وَحَيَّاهَا ، ورَدَّ تَحِيَّتَها ، ثمَّ أَذِنَتْ له بالجُلوسِ ، وَجَلَسَت بَعِيدًا مِنه ، وكانتْ قَدْ نَسِيَتْ — أَوْ كَادَتْ[1] — حُلْمَها الَّذِى رَأَته مُنْذُ سَنَواتٍ ، وفَسَّرَهُ ابْنُ عَمِّهَا ورقةُ بنُ نَوْفَلٍ بأَنَّها سَتَتَزَوَّجُ وَأَنَّ زَوْجَها سَيَكونُ نَبِيًّا .

لكنَّهَا حِينَ رَأَتْ مُحمداً تَذَكَّرَتْ ذَلِكَ الحُلْمَ ، وَأَحَسَّتْ

---

(١) كادت : قربت .

أَنَّها تَعِيشُ فِيه ، وكأَنَّها ، نائِمَةٌ ترَى تِلكَ الشَّمْسَ الَّتِي دَخَلَتْ بيتَها ، وذَلِكَ النُّورَ الَّذِى غَمَرَ الْبَيْتَ ، وفاضَ علىَ ما حَوْلَه ، وأَخَذَ يَمْتَدُّ حتىَّ غَمَرَ العالَم كُلَّهُ.

وأَحَسَّتْ أَنَّها أَمامَ فَتىً ذِى هَيْبَةٍ ، وجَلال ، وقُوَّةِ نَفْس ، فَملَكَتْ شُعورَها ، وأَخَذَتْ تُحدِّثُهُ عنِ القافِلةِ ، والتِّجارَةِ ، والسِّلَع ، وما يُنْتَظَرُ مِنَ الرِّبْحِ ، وعنِ الطَّريق ، وَأَمْنِها ، وخَوْفِها . وما اسْتَفَادَتْ من رِحْلاتِ عُمَّالِهَا السَّابقِينَ ، وتَعُدُّ لَهُ المَرَاحِلَ[1] الَّتِى تقْطعُها الجِمالُ فى طَرِيقِها ، والمَوَاقِفَ الَّتِى تَقِفُ عِنْدَها وتتَزوَّدُ مِنها ، والقبَائلَ الَّتِى تَتَّجِرُ معَها علىَ طُولِ الطَّرِيقِ ، وعُمَلاءَها[2] الَّذِين يُفَضِّلونَ تِجارَتَها فى الشَّامِ ويُقْبِلونَ عَليها .

وهُوَ مُطْرِقٌ يَسْتَمِعُ إلى حديثِهَا ، وَيَدَعُ لَهَا أَنْ تتَكَلَّم ، حتىَّ انْتَهتْ فقامَ وحيَّاها ، ثُمَّ انْصَرَفَ إلى مَنْزِلِه ، وبَقِيَتْ تُفَكِّرُ فيما رَأَتْ ، فَتَجِدُ أَنَّ مُحمدًا كما يَصِفُهُ

---

(١) المراحل : جمع مرحلة وهى ما يقطعه المسافر فى يوم .
(٢) عملاءها : من يتجرون معها .

النَّاسُ ، وفَوْقَ ما كانَتْ تَسْمَعُه ، ثمَّ تَجِدُ فى قَلْبِها مَحبَّةً لهُ ، وعطفًا عليهِ .

فلَمَّا كانَ يَوْمُ الرَّحِيل ، سلَّمَتْه مالَهَا ، وزَوَّدَتْهُ بِنصَائِحِها ؛ وبَعَثَتْ معَه غُلامًا لَهَا اسْمُهُ مَيْسَرَةَ ، وأَمَرَتْ هذا الغُلامَ أَنْ يُطِيعَه ويُنفِّذَ أَمْرَه ، وَوَدَّعَتْه كما ودَّعَتْ غَيْرَهُ من الرَّاحِلِينَ ، ثُمَّ وقفَتْ تَنْظُرُ القافِلةَ وهىَ تَبْتَعِدُ حتى غابَتْ عنْ الأَنْظارِ ، مُنْطَلِقَةً إلى الشَّمالِ ، ومحمدٌ علىَ بَعيرِه ، ومَيْسَرَةُ بجانِبه علَى بَعِيرٍ آخَرَ .

كانتْ القافلةُ تَشُقُّ طَرِيقَها بينَ الجِبال والرِّمال ، ومُحمدٌ فَرِحٌ بِذَلِكَ الرَّحِيل ، يَقْضِى لَيْلَهُ ناظِرًا إلَى السَّماءِ . مُتَأَمِّلاً فى صُنْعِ اللهِ وقُدْرَتِه ، وَنِظامِ هذِه الرُّقْعَةِ الفَسِيحَة ، وما فِيها مِنْ مَصابِيحَ تَتَلأْلأُ هُنا وهُناكَ ، كأَنَّها عُيونٌ يَنْظرُ بَعْضُها إلى بَعْضٍ .

وَيَقْضِى نهَارَهُ مُتَأَمِّلاً فى تِلكَ الصَّحْراءِ الفَسِيحَةِ ، ورِمَالِها الدَّقِيقَةِ ، وجِبالِها الرَّاسِيَةِ حَوْلَ الطَّرِيق كأَنَّها حُرَّاسٌ ضِخَامٌ يَحْفَظُونَ الأَرْضَ أَنْ تَتحَرَّكَ .

كانَ الرَّكْبُ يُسْرِعُ فى طَرِيقِهِ إلى غايَتِهِ[١] وخَدِيجةُ تُفَكِّرُ فى تِلْكَ الشَّمْسِ الَّتى رَأَتْها فى رُؤْياها مُنْذُ بَعيدٍ تدْخُلُ دَارَها . وتُعِيدُ تَأْوِيلَ «وَرَقَةَ» ابْنِ عَمِّها ، وما وَصَفَ به ذلكَ النَّبِيَّ مِنْ صَفاءِ النَّفْسِ وقُوَّتِها ، وطِيبَةِ القَلْبِ ، والشَّهامَةِ ، والصِّدْقِ ، والأَمَانَةِ ، فَتَجِدُ كُلَّ ذَلِكَ فى مُحمَّدٍ ، تَحَقَّقَتْهُ مُنْذَ رَأَتْه ، كأَنَّه الشَّمْسُ التى ظهرَتْ لها فى مَنامِها .

فَخَلَتْ إلى نَفْسِها سَاعاتٍ ، وكادَتْ تُسِرُّ بما فى قَلْبِها لأَحْدَى صَفِيَّاتِها ، ثُمَّ آثَرَتْ[٢] أَنْ تَصْبِرَ حتَّى تَنْجَلِيَ[٣] صِفاتُ هذَا الرَّجُلِ ، لكِنَّ مَيْلَها إليه يَزْدَادُ . وإِحْساسُها بِمَحَبَّتِه يَكْبُر كُلَّما تقَدَّمتْ القافلةُ فى طَرِيقِها ، وَوَجَدَتْ نفسَها تُحدِّثُها فى حَيْرَةٍ :

ـ ماذَا بِكِ يا خَدِيجةُ ؟! صَدَدْتِ[٤] عن الرِّجالِ ، وانْصَرَفْتِ عَنْ الزَّواجِ ، وطابَتْ لَكِ حَياتُك ، ورَفَضْتِ

---

(١) غايته : مقصده .
(٢) آثرت : فضلت .
(٣) تنجلى : تنكشف .
(٤) صددت : أعرضت .

رُؤَساءَ مَكَّةَ وسادَتَها وأَغنياءَها ، فمَالَكِ تَمِيلِينَ إلَى هذَا الْفَتَى ؟!!

فَرَجَعَتْ إلَى نَفْسِها تَخْتَبِرُ هذَا المَيْلَ ، فَوَجَدَتْهُ غَيْرَ ما تَعْهَدُهُ النِّساءُ : مَيْلاً إلى صِفاتِ النَّفْسِ وجَلالِها[1] ، وَإلى صفَاءِ الرُّوْحِ وَمَعْنَاها ، وانْجِذَابًا إلَى ذلِكَ الفَتَى بِدَافِعٍ قَوِيٍّ دَافِقٍ[2] لا تَعْرِفُ مَصْدَرَهُ[3] ، وإنْ كانَتْ تَذْكُرُ أَنَّ ابْنَ عَمِّها ورَقةَ أَكَّد لَهَا أَنَّها ستَتزوَّجُ ، وأَنَّ زَوْجَها سيَكونُ نَبِيًّا ، فأَخَذَتْ تَسأَلُ نَفْسَها فى دَهْشَة :

ـ أَحَقِيقَةٌ أَننِى سأَتزوجُ ، وأَنَّ زوْجِى سيكونُ نَبِيًّا ؟!

ثُمَّ تَسْتَرْسِلُ[4] فى أَسئِلَتِها :

ـ أَيَكونُ هذَا الفَتَى هُوَ النَّبِيُّ الَّذى بشَّرَ بِه ورقةُ ؟ وإذَا لَمْ يَكُنْ هُوَ فمَنْ غَيْرُه سيَكونُ ؟!

وحاوَلَتْ أَنْ تَصْرِفَ عنْها هذِه الخوَاطِرَ ، مُسْتَبْعِدةً

---

(١) جلالها : عظمتها .
(٢) دافق : شديد .
(٣) مصدره : سببه .
(٤) تسترسل : تستمر .

أَنْ تَرْضَى الزَّواجَ وقَدْ رَفَضَتْهُ عِشْرِينَ عَامًا ، لكنَّها كانَتْ إذا تَحَوَّلَتْ عَنْ هَذِهِ الخوَاطِرِ ، انْصَرَفَتْ إلى القافِلةِ وما فِيها ومَنْ فِيهَا . فَتَعودُ إِلَيها تِلْكَ الخوَاطِرُ أَشَدَّ مِمَّا كانَتْ ، حينَ يَصِلُ تفكيرُها إلى مُحمَّدٍ ، وما يَأْتِي وما يَدَعُ[1] ، بل غَدَتْ تُفَكِّرُ فيما سَتَفْعَلهُ إذا عَادَ ...

الأَسئلة

(١)

« تذكرت حين رأت « محمدا » ذلك الحلم ، وأحست أنها تعيش فيه ، وكأنها نائمة ، ترى تلك الشمس التى دخلت بيتها ، وذلك النور الذى غمر البيت ، وفاض على ما حوله وأخذ يمتد حتى غمر العالم كله .

وأحست أنها أمام فتى ذى هيبة وجلال وقوة نفس »

(ا) بماذا تفرق بين : « الحُلْم » بضم الحاء و (الحِلْم) بكسر الحاء .

---

(١) يدع : يترك .

(ب) أتجد فرقا بين : (غمر البيت) و (فاض على ما حوله) ؟ وضح .

(جـ) من التي تذكرت ذلك الحلم ؟ وما سبب تذكرها له ؟

(د) بين معنى : (هيبة — جلال)

(٢)

« وحاولت أن تصرف عنها هذه الخواطر مستعيدة أن ترضى بالزواج ، وقد رفضته عشرين عاما ، لكنها كانت إذا تحولت عن هذه الخواطر انصرفت إلى القافلة ومافيها ومن فيها ، فتعود إليها الخواطر أشد مما كانت » .

(ا) ما سر استبعاد : « خديجة » أن ترضى بالزواج ؟

(ب) (ما فيها — من فيها) ما الفرق بين التعبيرين ؟

(جـ) ما أثر انصرافها إلى القافلة فى نفسها ؟ وبم تعلل ذلك ؟

(١٠) عـــــزم

اقْتَرَبَتْ عَوْدَةُ القافِلَةِ ، وَنَهَضَتْ مَكةُ تَستَعِدُّ لاسْتِقْبالِها، وأخذَتْ خديجةُ تفكرُ فى مالِها وتجارتِها مِنْ بَينِ الأَفكار المُزدَحمة فى صدْرِها .

فلمّا جاءَ البَشيرُ يُعْلِنُ اقْتِرَابَ القافلةِ من مكةَ زادَ اهتمامُ النَّاس ، وكثرتْ الحرَكَةُ فى البُيوت : استعْدادٌ فى بيوت التُّجار لاسْتقبال مَتاجرهم ، وحساب أرْباحهم أو خسائرهم، واستعْدادٌ فى بُيوت الحمَّالينَ الَّذينَ يَنْقُلونَ هذهِ المتاجرَ بالأَجْر ، وفى بُيوتِ العاجزينَ والفُقَراء الَّذِينَ اعْتادُوا أنْ ينالَهم خيرٌ فى مثل هذِهِ المناسَبَةِ ، وأنْ يَتفضَّلَ عليهم ذُوو القُلوبِ الرَّحيمَةِ ، حينَ تعودُ تجارَتُهم رابِحةً .

واشْتَدَّتْ لهَفةُ الأُمَّهاتِ على أَبْنائِهنَّ ، ولهَفةُ الزَّوْجاتِ علَى أزْواجهنَّ ، فَلا يعلمُ أحَدٌ مَنْ سيَعُودُ ، ومَنْ أرادَ لَهُ القدرُ أنْ لا يَعودَ .

حتَّى إذَا كانَ صباحُ الغَدِ ، علاَ الضَّجيجُ فى الشوَّارعِ ، واشتدَّتْ الحركةُ فى البُيوتِ ، وخرجَ الكثيرُون إلى ظاهر مَكَةَ ، وخديجةُ تَسْتَعِدُّ كما يَسْتَعِدُّ الناسُ ، وجَواريها فَرِحَاتٌ يُحَدِّثُ بعضُهنَّ بعضًا بما وَعدَتْ سيِّدتُهن من الهدَايا لهن إذا عادَتْ تجارَتُها رابحةً ، وعادَ جميعُ منْ فيها سالمينَ .

فلَمَّا انْتَصفَ النَّهارُ واقْتَرَبَ الوقْتُ من العَصْرِ ، صَعِدَتْ خديجةُ معَ بعضِ جَواريها إلى الطَّابق الثَّانى منْ بيْتها وأَخَذَتْ تَرْقُبُ الطَّريقَ فى لَهْفَةٍ ، وجَواريها يُحَدِّدْنَ البَصَرَ لِيُبَشِّرْنَها بما يَسُرُّها ، ويَسْبِقْنَ إلى تَهْنِئَتِهَا ، حتى لاحَتْ[1] القافلةُ منْ بعيدٍ ، مُسْرِعَةً إلى مكةَ ، فأَحَسَّتْ خديجةُ بدَقَاتِ قَلْبها تَتَغَيَّرُ وتُسْرِعُ ، وببَصَرِهَا يُحاوِلُ أَنْ يَمْتَدَّ فَوْقَ طاقَتِه[2] ، والجِمالُ تَكْبُرُ فى عَيْنَيْها شيئًا فشيئًا ، ومَعَالِمُ القافلةِ تَتَّضِحُ شيئًا فشيئًا ، ثم صاحَتْ إحدَى جَواريها فى فَرَحٍ .

---

(١) لاحت : ظهرت .

(٢) فوق طاقته : أعلى من قدرته .

ـ مُحَمدٌ يا سيِّدَتى ، محمدٌ وبجانِبِه مَيْسَرَةُ ؟

كانَ مُحمدٌ علَى بَعِيرِه ، ومَيْسَرَةُ بجانِبِه على بَعِيرِه ، وخَلْفَهما الجِمالُ الأُخْرَى تَحْمِلُ المَتاجرَ . لكنَّ خديجةَ رأَتْ عَجَبًا .

كانَتْ القافِلَةُ كُلُّها تَسيرُ تحتَ أَشعَةِ الشَّمْسِ المُحْرِقَةِ ، ما عَدا مُحمداً فَقدْ كانَ يَسِيرُ وَحْدَهُ فى الظِّلِّ .

كانَ فَوْقَهُ سحَابةٌ تَخُصُّه وَحْدَه بِظِلِّها الظَّلِيل ، لا تُشْرِكُ معَه أَحدًا ، حتَّى مَيْسَرَةَ ! وقدْ ظَنَّتْ خَديجةُ أَنَّها تَرَى هَذِه السَّحَابَةَ وَحْدَها ، فإِذَا بِجارِيَتِها تَصِيحُ فى دَهْشَة :

ـ أَتَرَيْنَ يا سَيِّدتِى ؟!

محمدٌ فى الظلِّ والنَاسُ جَمِيعًا فى الشَّمْسِ !!

إِنَّها تَتَحَوَّلُ يا سَيدَتِى حَيْثُ يَتَحَوَّلُ ، وتَميلُ حيْثُ يَميلُ بِهِ البَعِيرُ !! فلمْ تُجِبْ خَديجةُ ، وظَلَّتْ ناظِرَةً إِلى القافلةِ حتَّى بَلَغَتْ مَكة ، ثمَّ وَقَفَتْ ، وأَخذَتْ الجمالُ تَبْرُكُ ، وأَسرَعَ النَّاسُ إِلَى أَبْنائِهم وآبائِهم

وإخْوَاتِهِم ، يُطفِئُونَ نارَ الشَّوْقِ ، ويَسأَلونَ عَمَّنْ عادَ ومنْ تَخَلَّفَ .

وسارَ مُحمدٌ ، ومَيْسَرةُ إلى دَارِ خَديجةَ ، فاسْتَقْبلتْهُ بِبَشَاشَةٍ ولُطْفٍ ، لكنَّه حينَ اقْتَرَبَ أَخذَتْها الدَّهْشَةُ . فقَدْ وَجدَتْ فى وَجْهِهِ تلكَ الشَّمْسَ المُشْرِقَةَ الَّتى رَأَتْها فى حُلْمِها ، ورَأَتْ هذَا النُّورَ يَغْمُرُ بَيْتَهَا مِثْلَ ذَلِكَ النُّورِ ، ثمَّ يَفِيضُ علىَ ما حَوْلَه ، ثم يَمْتَدُّ إلى ما بَعْدَهُ ، فحَيَّتْه ، وحَيَّاها ، ثمَّ انْصَرفَ إلى بيْتِهِ ، وجلَسَ يَسْتَقْبِلُ أَعْمامَهُ ، وأَقارِبَه ، ومُحِبِّيهِ .

أَمَّا خديجةُ فَذَهَبَتْ إلى مَخازِنِها ، وفحَصَتْ تجارَتَها ، ثمَّ وقفَتْ تَنْظرُ فى دَهْشَةٍ .

ما هذَا الرِّبْحُ الوَفيرُ الَّذى عادَ به محمدٌ ؟ !

وما هَذه السِّلَعُ الكَثيرَةُ الَّتى رَجَعَ بها ؟!!

كيفَ اشْتَرَى هذه السِّلَعَ كُلَّها ؟! وبأَىِّ مال ؟!

أَدْهَشَتْها أَنواعُ السِّلَعِ وقيمَتُها ، فصاحتْ بِمَيْسَرَةَ :

ـ ماذَا فَعَلْتُم يَا مَيْسَرَةُ ؟!

ما هذَا الرِّبْحُ الوافرُ ؟! وكيفَ حَصَلْتُم عَلَيْهِ ؟

فأَسْرَعَ مَيسرةُ باسمًا :

ـ بَرَكَةُ مُحَمَّدٍ يا سَيِّدَتِى !

لم نَكَدْ نَصِلُ إلَى مَدِينَةِ « بُصْرَى[1] » ونَدْخُلُ السُّوقَ معَ القافِلَةِ ، حتَّى اجْتَمَعَ علَينا المُشْتَرونَ . قد رَاقَتْ[2] سِلَعُنا فى أَعْيُنِهِم ، كأَنَّ السُّوقَ ليسَ فِيها غَيْرُها أَوْ مَثِيلُها !

وقدْ أَظْهَرَ محمدٌ مَهارةً وَحِذْقًا[3] فى البَيْعِ ، حتَّى فَرَغْنا منْ بِضَاعَتِنَا فى وَقْتٍ قَصِيرٍ ، والتُّجَّارَ مِنْ حَوْلِنا يَنْظُرُون فى عَجَبٍ ، بلْ إنَّ بَعْضَهُم أَخذ يَصِيحُ فى دَهْشَةٍ :

ـ ما هذَا يا مَيْسَرَةُ ؟!

سِلَعٌ غَيْرُ سِلَعِنَا أَمْ طُرُقٌ غَيْرُ طُرُقِنا ؟ أَمْ اتِّفَاقٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَصِلَ ؟!

---

(١) بصرى : موضع بالشام .
(٢) راقت : حسنت .
(٣) حذقا : براعة .

فقالَتْ خديجةُ فى عَجَبٍ :

ـ لكنَّ أَثْمانَ سِلَعِنَا الَّتى بِعْتُمُوها ، لا تَفِى بِأَثْمانِ ما اشْتَرَيْتُموهُ ، ولَوْ بِعْتُمْ بِضِعْفِ الثَّمَنِ ، أَو بِثَلاَثَةِ أَضْعافٍ ، أَوْ أَرْبَعَةٍ ! !

فأَجابَ ميْسَرَةُ فى زَهْوٍ :

ـ بَرَكةُ مُحمدٍ يا سيِّدَتِى !

كانَ اللهُ مَعُه فى الشِّراءِ ، كما كانَ معَهُ فى البَيْعِ ، فلمْ يَدْخُلْ السُّوقَ شارِيًا ، حتَّى دَعاهُ البائِعُونَ ، وبَذَلُوا لهُ سِلَعَهُمْ ، وكأَنَّهم أَحَبُّوا أَنْ يُقَدِّمُوا إِلَيه بِغَيْرِ ثَمَنْ . فلمْ يَعْرِضْ قِيمةً إِلاَّ قَبِلُوها . والنَّاسُ فى حَيْرَةٍ ، يَتَساءَلُونَ عنْ هذا التَّاجِرِ الَّذِى سبَقَ التُّجَّارَ ، وصاحِب الوَجْهِ الَّذِى جَذَبَ القُلوبَ .

وتُجَّارُنا فى حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِ مُحمَدٍ الذى باعَ غالِيًا ، واشْتَرَى رَخِيصًا ، حتَىَ قالَ بعضُهم فى دَهْشَةَ :

ـ ماذَا جرَى يَا مَيْسَرةُ ؟!

قُلْنا إِنَّكُم اتَّفَقْتُم مَعَ المُشْتَرِينَ قَبْلَ وُصُولِنَا فَهَلْ اتَّفَقْتُمْ كذَلِكَ معَ البائِعِيْنَ ؟!

فازْدَاد سُرورُ خديجةَ ، وقالَتَ لِمَيْسَرَةَ فى رِفْقٍ :

ــ حدِّثْنِى يا مَيْسَرَةُ حَدِيْثَكُمْ فى الذَّهابِ والإِيابِ ، لا تَتْرُكْ شيئًا إلاَّ أَخْبَرْتَنِى عَنْه ، فقدْ رأَيتُكَ شدِيدَ الإِعْجَاب بِمُحمدٍ !

قال مَيْسرةُ باسما :

ــ شأْنُ مُحمدٍ عَجِيبٌ يا سيِّدَتِى !

حدَّثْتُكِ عن البَيْعِ والشِّراءِ ، وما نالَ فِيهما من تَوْفِيقٍ ، وقد يَقولُ النَّاسُ إنَّ ذلِكَ حَظٌّ يَتَدَفَّقُ أَحيانًا علَى بَعْضِ النَّاسِ ، وقدْ يَقُولونَ إِنَّها مَهارَةٌ اسْتَطَاعَ اسْتِخْدامَها فى جَوٍّ مُهيِّءٍ[1] لَهَا ، فما رَأْيُكِ يا سَيدتى فى عجيبَةِ السَّماءِ ؟!

كانَ الجوُّ حارًّا مُحْرِقًا ، وكانتْ أَشِعَةُ الشَّمْسِ كَشَظايا[1]

(١) مهيِّء : مناسب .
(٢) كشظايا : أجزاء .

مِنَ اللَّهَبِ ، فما تَرَكْنا مكةَ حتىَّ اختَمَيْنا مِنْها بالعمائِمِ ضَاعَفْناها ، وبما استَطْعنا مِنْ مِظَلاَّتٍ تَقِى رُءُوسَنا وَحْدَها .

أمَّا محمَدٌ فَقَدْ أظَلَّتْهُ السماءُ وَنَشَرَتْ علَيهِ وعلَى بعِيرِه سَحابةً ظَلِيلةً سارَتْ حَيْثُ تَسِيرُ القافلةُ ولم تُفارِقْنا حتىَّ بَلَغْنا الشَّامَ ، تَنْعَقِدُ عليهِ منَ الصَّباحِ إلى المَساءِ ، ثمَّ تَنْعَقِدُ عليهِ مَرَّةً أخرى إذا أشْرَقَتْ الشَّمْسُ مِنْ جَدِيدٍ .

وصَمَتَ مَيْسَرَةُ قليلاً ، ونَظرَ إلى سَيِّدَتِه الغارقَةِ فى دَهْشَتِها ، ثمَّ قالَ فى عَجَبٍ :

— كانَ النَّاسُ فى دَهْشَةٍ مِنْ أمْرِ هذِه السَّحابَةِ الَّتِى اختَصَّتْ محمدًا بِظِلِّها : إذَا تَحرَّكُوا إلَيْها لِيَسْتَظِلُّوا بِها بَعُدَتْ عنْهُم ، وإذَا تَحرَّكَ مُحمدٌ تَحرَّكَتْ مَعَهُ !

ومحمدٌ مُنْصَرِفٌ عنِ النَّاسِ إلَى تفكِيرٍ عميقٍ ، لا يَتَحَدَّثُ إلاَّ إذَا سُئِلَ ، ولا يَشْتَرِكُ فى شَىْءٍ من المَرَحِ الَّذِى كانَ يَصْنَعُهُ بَعْضُ المُسافِرِينَ ، لِيُخَفِّفُوا بهِ وَحْشَةَ الطَّرِيقِ ، ومَشَقَّةَ السَّفَرِ .

ثم انْتَبِهَتْ خديجةُ من تَفكِيرِها ، وقالَتْ لِميسرةَ باسمةً :

ـ وماذَا صنعَ محمدٌ بِبلادِ الشَّامِ ؟

أَسرَّتْهُ أَشجارُها ، وبَسَاتِينُها ، وَجَوُّها الرَّقِيقُ ، وأَهلُها ومَنْ فِيها ؟

فأَسْرَعَ مَيْسَرَةُ :

ـ لم يُشارِكْ محمدٌ فِيمَا صَنَعَهُ التُّجَّارُ هُناكَ ، ولم يَسْتَهْوِهِ[1] شَيْءٌ مما اسْتَهْوى النَّاسَ ، بلْ كانَ يَعْجَبُ مِنْ خَلْقِ اللهِ ، وما صنَعَ للانْسانِ ، وما أَلْقَى فى الأَرْضِ منْ نباتٍ يانعٍ[2] ، وشجَرٍ باسِقٍ[3] ، وما أَجْرَى فيها مِنْ مِياهٍ وأَنْهارٍ ، وكيفَ خَلَقَ بلادَنا صَحراءَ لا نَباتَ فيها ولا ماءَ وخَلَقَ فى الشَّامِ جَنَّاتٍ أَلْفَافًا[4] ، وحَبًّا وعِنَبًا ، وزيْتُونًا ونَخْلاً ، وحَدائقَ واسِعَةً .

(١) الم يستهوه : الم يستمله .
(٢) يانع : ناضج الثمر .
(٣) باسق : طويل .
(٤) الفافا : متشابكة الأغصان .

وكَيْفَ رَقَّ هَواؤُها واحْتَرَقَ هَواؤُنا ، ولَطُفَتْ حَرَارَتها، واشْتَدَّتْ حَرَارَتُنا ، وكيفَ يَعيشُ النَّاسُ هُنا . وكيفَ يَعِيشُونَ هُناك .

كانَ يا سَيِّدَتِى دَائمَ التَّفْكِيرِ ، تَرَكَ النَّاسَ يَذْهَبُونَ حَيْثُ يَشاءُون ، وأَقَامَ حَيْثُ نَزَلْنَا ، يَتَأَمَّلُ ويُفَكِّرُ حَتَّى انْقَضَى الوَقْتُ ، وتَأَهَّبْنا لِلرَّحِيلِ .

وصمَتَ مَيْسَرَةُ قَليلاً ، وخديجةُ سابِحَةٌ فى أَفْكارِها ، ثمَّ قالَ فى دَهْشَةٍ أَشَدَّ :

— هلْ تُصَدِّقينَ يا سَيِّدَتى أَنَّ هذَا الرَّجُلَ قَدْ يَكونُ هُوَ النَّبِىّ الَّذى يَنْتَظِرُهُ النَّاسُ ، ويَقُولونَ إِنَّه قَدْ حان حِينُه(١) ، وجَاءَ أَوَانُهُ ؟!

فانتَبَهَتْ خديجةُ وقالتْ فى دَهشةٍ :

مَاذَا تَقُولُ ياميسرَةُ ؟ وكيف وصلتَ إلى هذا الرَّأْيِ ؟!!

فاسْتَأْنَفَ مَيْسَرَةُ قائلاً فى عَجَبٍ :

---

(١) حان حينه : اقترب أوان ظهوره .

ـ نَزَلْنَا يا سَيِّدَتِى بِبُصْرَى ، فَجلَسَ محمدٌ تحتَ شَجَرَةٍ منَ الأَشْجارِ ، لا تَمْتازُ بِشَىْءٍ منْ باقِى الشَجَرِ الَّذى نَراهُ ، وبالْقُرْبِ منْ هذه الشَّجَرَة صَوْمَعَةُ رَاهبٍ من الرُّهْبان ، فإذَا بذَلكَ الرَّاهبِ يُطْلِعُ رأْسَه من نافذةِ صَوْمَعَتِه ، فلمَّا رَأَى مُحمدًا أَسرَعَ إلىَّ وسأَلَنى فى لَهْفَة : مَنْ هذا الرَّجُلُ الَّذى يَجْلِسُ تحتَ الشَّجَرَة ؟! فأَخْبَرْتُه أَنَّهُ رجلٌ من قُريشٍ ، فصاحَ فى لَهْفَة :

ـ أَبُعِثَ هذا الرَّجُلُ ؟!

فَتَمْتَمْتُ فى دَهْشَةٍ :

ـ ماذا تُرِيدُ ؟! وماذَا تَعْنى بِهَذا الْبَعْثِ ؟!!

فقالَ بِلَهْجَةِ الوَاثِقِ :

ـ إنْ لم يَكُنْ هذَا الرَّجُلُ قدْ بُعِثَ ، فَسَوْف يُبْعَثُ بِرِسَالَةِ اللهِ لِلنَّاسِ ، فما جَلَسَ تحتَ هذِه الشَّجَرَةِ إلاَّ نَبِىٌّ !!

فاشْتَدَّتْ حَيْرَةُ خدِيجةَ ، واستَعَادَتِ حُلمَها مِنْ أَوَّلِه إلى آخرِهِ ، واسْتَعادَتْ تَأْويلَ ابْن عمِّها ورَقةَ بْن نَوْفَل



الراهب يسأل ميسرة

لِرُؤْياها . كما اسْتَعادَتْ صُورَةَ مُحمدٍ ، وانْطِباقَها على مَا يتحدَّثُ به الناسُ عنْ صُورَةِ النَّبِيِّ الَّذى قَرُبَ زَمانُه ، ثمَّ قالتْ لِنَفْسِها فى تأْكِيدٍ :

ـ إِذَا لمْ يَكُنْ هذَا هُوَ النَّبِيَّ الَّذِى يتَحدَّثُون عنْه فمَنْ يَكُونُ ؟ ! .

ثمَّ عادَتُ من مَخازِنِها ، وارْتَدَتْ ملابِسَ الخُروج ، وأَسْرَعَتْ إلى ابْنِ عمِّها ورقةَ بنِ نَوْفَلٍ ، وقَصَّتْ عليهِ ما رَأَتْ وما سمِعَتْ ، فصاحَ فى دَهشةٍ :

ـ ليسَ هذا رَجُلاً مِثْلَ الرِّجالِ يا خَديجةُ !

فقالتْ فى لَهفةٍ :

ـ أَيُنْتَظَرُ أَنْ يَكونَ هوَ النَّبِيَّ يا ورقةُ ؟!

فأَجابَ ورقةُ باسما :

ـ قدْ يَكونُ يا خديجةُ !

إنَّ صِفَاتِه تَنْطَبِقُ علَى ما أَعْرِفُ من كُتُبٍ مُقَدَّسَةٍ ، ولكنْ مَنْ يَدْرِى ما يَصْنَعُ الله ، ومنْ يَخْتَصُّهُ بكرامتِه وفَضْلِه ، ويَرْفَعُه فَوْقَ النَّاسِ !

فعادَتْ خَديجةُ إلَى منزِلِها عازِمَةً علَى ألاَّ يَفُوتَها شرَفُ النُّبُوَّةِ الَّتى تُؤكِّدُ الدَّلائِلُ أنَّها لِمُحمدٍ ، وأَنْ تَتزوَّجَ هذَا الفَتَى الشَّرِيفَ ، الَّذى يُرْجَى لَهُ ما لاَ يُرْجَى لِغَيْره منَ النَّاسِ .

الأَسئلة

(١)

كيف كان أهل مكة يستقبلون القوافل ؟

(٢)

يقول ميسرة : « لم نكد نصل إلى مدينة بصرى ، وندخل السوق مع القافلة حتى اجتمع علينا المُشترون ، قد راقت سلعتنا فى أعينهم كأن السوق ليس فيها غيرها أو مثلها وقد أظهر « محمد » مهارة وحذقا فى البيع ، حتى فرغنا من بضاعتنا فى وقت قصير » .

(ا) ما معنى : « راقت سلعتنا فى أعينهم » ؟ وما سر ذلك فى نظر ميسرة ؟

(ب) ما مظهر رواج التجارة كما فهمت من العبارة ؟

(جـ) ما موقف التجار من ذلك الرواج لتجارة « محمد » ؟

(د) من أى شئ تعجبت خديجة حين رأت البضاعة التى اشتراها « محمد » ؟

(٣)

لَخِّصْ ما تحدث به « ميسرة » لخديجة عن صفات « محمد » .

(٤)

ما أثر حديث « ميسرة » فى نفس خديجة ؟ وما مظهر ذلك ؟

* * *

(١١) تفكير

أَخَذَتْ خَدِيجَةُ تُفَكِّرُ فى ذَلِكَ النَّبِيِّ الَّذى سَيُبْعَثُ فَيَمْلأُ الأَرْضَ عَدْلًا ، وَيَقْضِى على ما شَاعَ من الْفَسَادِ ، وَيُساوى بينَ النَّاس ، وَيُنْقِذُ الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالم ، وَيَرُدُّ لبيتِ اللهِ الأَمْنَ وَالْطمَأْنينَةَ ، وَيُنَظِّفُ مَا حَوْلَه من الشُّرورِ .

وقدْ اطمَأَنَّ قَلْبُها إلى اقْترَابِ بَعْثِ ذَلكَ النَّبِيِّ ، وإلى أَنَّ مُحمَّدا قَدْ اختُصَّ بِهَذَا الْفَضْل ، وَأَنَّهُ هُوَ الشَّمْسُ الَّتى دَخَلَتْ بَيْتَهَا وَأَضَاءَتْهُ ثم امْتَدَّتْ إلى ما حَوْلَهُ .

وَتَجَلَّى(١) لَهَا ذَلكَ الْفَضْلُ الكبيرُ ، الَّذى سَتُخَصُّ بِه مَنْ تَتَزَوَّجُه ، وَتُعينُه على التَّفَرُّغ لرِسَالَةِ رَبِّه ، وَمَا سَيَنَالُها مِنْ رِضْوَانِ اللهِ ، إذا انْتَشَرَتْ دَعْوَةُ اللهِ ، وَانْتَصَرَ نَبِىُّ اللهِ .

وَهَانَ مالُها وتجارَتُهَا أَمامَ هذَا الْفَضْلِ ، الَّذى سَتَنَالُه إذا

---

(١) تجلى : ظهر .

قُدِّرَ لها أَنْ تكونَ زَوْجَ ذَلكَ النَّبِيِّ ، وَسَمَتْ[١] روحُها عنْ عَرَض[٢] الدُّنيا ، ولم تَعُدْ تُفَكِّرُ فى غيرِ النَّبِيِّ وَنُبُوَّتِه ، وَمُحَمَّدٍ وَمَا يُنْتَظَرُ لَهُ .

ولَكنْ ، كَيْفَ تَعْرِضُ عليه الزَّوَاجَ ؟ !

إنَّ لَهُ هَيْبَةً ، وَجَلَالاً ، وَقُوَّةَ نَفْسٍ لَمْ تَسْتَطِعْ مَعَهَا أَنْ تُطِيلَ مَعَهُ الْحَدِيثَ .

فكيفَ تحَدِّثُه فى هذَا الأَمْرِ ؟

وَمَاذَا تَصْنَعُ إذا رَفَضَ ؟ !

ومَاذَا يَقُولُ النَّاسُ عنْها ، إذا عَرَفُوا أَنَّهَا عَرَضَتْ عليه الزَّوَاجَ فأَبَى ، وقدْ أَبَتْ هيَ سادةَ قُرَيْشٍ وأَغنياءهَا منْ قَبْلُ ؟

ومازَالَتْ تُفَكِّرُ حتَّى اهْتَدَتْ إلى حَلٍّ .

دَعَتْ امْرَأَةً مُخْلصَةً لَهَا أَمينَةً عَلَى السِّرِّ ، لا يَنْفَرِجُ صَدْرُهَا يَوْمًا عمَّا أُودِعَ فيه ، وقالَتْ لَهَا فى رِفْقٍ ، بعدَمَا قَدَّمَتْ إلَيْهَا هَدِيَّةً من التُّحَف التى اشْتراها محمدٌ من الشَّام :

ـ مَا رَأْيُكِ يَا نَفِيسَةُ فى هذه الْهَدِيَّةِ ؟

فَنَظَرَتْ نَفِيسَةُ إلى تِلْكَ الْهَدِيَّةِ فى دَهْشَةٍ ، وَقَلَّبَتْ فيها النَّظرَ ، ثمَّ صَاحَتْ فى عَجَب :

ـ شَىْءُ لَمْ نَرَهُ مِنْ قَبْلُ ياسَيِّدَتِى ! ما أَحْسَنَهَا ! وما أَبْدَعَ ذَوْقَ مَنْ اشْتَرَاهَا !

قالتْ خديجةُ بَاسِمَةً :

ـ تَدُلُّ علَى ذَوْقٍ جَمِيلٍ يَانَفِيسَةُ !

قالتْ نَفِيسَةُ وقدْ زَادَتْ دَهْشَتُهَا :

ـ أَجْمَلُ ذَوْقٍ ، وَأَبْدَعُ اخْتِيَارٍ !

ثم الْتَفَتَتْ إلى خَديجةَ ، وَقَالَتْ بَاسِمَةً :

ـ ذَوْقُ مُحمدٍ ياسَيِّدَتى ! أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ ! إِنَّهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمِيلَ !

فَأَسْرَعَتْ خَدِيجَةُ :

ـ لَكِنَّهُ عَفٌّ يا نَفِيسةُ !

فَأَسْرَعَتْ نَفِيسَةُ :

- مَا جَرَّبَتْ عليه مكةُ نَزْعَةً(١) مِن نَزَعَاتِ الشَّبَاب ، ولم يُعْرَفْ عنْهُ غيرُ الأَمَانَةِ وَالصِّدْقِ ، وكلُّ صِفَاتِ الشَّهَامَةِ .

أَلَيْسَ هُوَ الأَمينَ ، معَ شَبَابِه ، وَقُوَّتِهِ ، وَجَمَالِهِ ، وَحَسَبِهِ ، وَنَسَبِهِ ، فى وَسَطِ شياطِينِ مَكَّةَ ؟ !

وصَمَتَتْ قَلِيلاً ، ثم نَظَرَتْ إلى خَدِيجَةَ ، وقالتْ باسمةً :

- مَا أَجْمَلَ يا سَيِّدَتِى لَوْ استَمَرَّ فى تِجَارَتِكِ ! إنَّه فَتًى مَيْمُونٌ(٢) مُبَارَكٌ ، مُؤَهَّلٌ(٣) لِأَنْ يَأْخُذَ مكانَه بينَ السَّادَة وَالرُّؤَسَاء ، وَيَا حَظَّ مَنْ تَتَزَوَّجُهُ ! !

فَأَحَسَّتْ خديجةُ بِدَقَّاتِ قَلْبِهَا تَزْدَادُ ، فقالتْ باسِمةً :

- زَوْجٌ صَالِحٌ يَانَفِيسَةُ !

فَأَسْرَعَتْ المرأةُ ، وَقَدْ أَحَسَّتْ ما فِى صَدْرِ خديجةَ :

- كُلُّ فَتَاةٍ تَتَمَنَّى أَنْ تَكونَ زَوْجًا لَهُ ، وإنْ كانَ فَقِيرًا اليَوْمَ فَفِى يَدِ مِثْلِهِ الْغِنَى وَالثَّرْوَةُ ، فَهُوَ نَشِيطٌ ، مُجِدٌّ عَاقِلٌ ، بعيدٌ عن الشُّرُورِ ، وَمِثْلُ هذهِ الصِّفَات تُؤَهِّلُ للثَّرْوَةِ وَالرِّيَاسَةِ .

---

(١) نزعة : ميلا .
(٢) ميمون : مبارك .
(٣) مؤهل : معـد .

وصمَتَتْ قليلاً ، ثم نظرَتْ إلى خديجةَ ، وقالتْ فى أَمَلٍ :

– هلْ فَكَّرْتِ يا سَيِّدَتِى فى هَذَا الْفَتَى ؟

لَعَلَّهُ انْتَظَرَ دُونَ زَواجٍ إِلَى الْيَوْمِ ، لأَنَّهُ لمْ يَجِدْ الزَّوْجَةَ الصَّالِحَةَ الَّتى يَرْجُوهَا ، أَو لَعَلَّهُ مُوَجَّهٌ يَعمَلُ بإِشَارَةِ رَبِّهِ ، وَلَعَلَّهُ يَجِدُ ما يَنْشُدُهُ(١) فى خديجةَ خَيْرِ نِسَاءِ مكةَ : جَمَالٌ ، وَغِنًى ، وَسِيرَةٌ كَالْمِسْكِ ، وَذَكَاءٌ ، وَصَبْرٌ ، وَكَرَمٌ . ماذَا يُرِيدُ غَيْرَ ذَلِكَ ؟ !

وصمَتَتْ المرأَةُ لَحْظَةً ، ثم عَادَتْ تَقُولُ فى رِفْقٍ :

– مُحمدٌ يَاسَيِّدَتِى لا يُفَكِّرُ فى الزَّوَاجِ كما يُفَكِّرُ غيرُه من النَّاسِ ، وليسَ دافِعُه إليه ما يَدْفَعُهُمْ . إِنَّهُ كبيرُ الْقَلْبِ ، يُفَكِّرُ فى زَوْجَةٍ كَبِيرَةِ الْقَلْب .

فَأَسْرَعَتْ خديجةُ :

– كَبيرةٌ أَو صَغِيرةٌ يانَفِيسَةُ ؟ !

فَأَسْرَعَتْ نفيسَةُ :

---

(١) ما ينشده : ما يبحث عنه .

ـ لاَ يَهُمُّ محمَّدًا فَارِقُ السِّنِّ ياسيِّدَتِي ، لاَ يَهُمُّه إلا الْقَلْبُ الْحَنُونُ ، وَالنَّفْسُ الرَّاضِيَةُ .

وَماذَا تَرَينَ مِنْ فَارِقٍ بَيْنَك وبَيْنَهُ ؟ !

ـ خَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا !!

إنَّ النِّسَاءَ لا تُقَاسَ بِكِبَرِ السِّنِّ أو صِغَرِهِ ، فَمِنْهُنَّ الصَّغِيرَةُ الْمُحَطَّمَةُ الذَّابِلَةُ ، الَّتِي تَعِيشُ فِى شَيْخُوخَتِهَا مُنْذُ دَرَجَتْ[١] على الأَرْضِ ، وَمِنْهُنَّ الْمُحْتَفِظَةُ بِجَمَالِهَا وَحُسْنِهَا ، وَإنْ امْتَدَّتْ بها الأَيَّامُ . .

وصَمَتَتْ لحظةً ، ثم قالتْ فى ثِقَةٍ :

ـ ولا أَظُنّ مُحمَّدًا لم يُفَكِّرْ فى خَدِيجَةَ حِينَ رآها ! فَهَلاَّ عَرَضْنَا عَلَيْهِ الزَّوَاجَ فى سِتْرٍ مِنَ النَّاسِ ، فإنْ رَضِىَ فَقَدْ أَرَادَ اللهُ الخيرَ ، وإنْ لم يَرْضَ فَلَم يَعْلَمْ أَحدٌ ، وَلَنْ نَخْسَرَ شَيْئًا .

فَزَادَ تَنَفُّسُ خَدِيجَةَ ، وَنَظَرَتْ إلى نَفِيْسَةَ تَفْحَصُهَا بِعَيْنَيْهَا ، ثمَّ قالتْ فى رِفْقٍ :

---

(١) منذ درجت : منذ نشأت .

— وَمَنْ يَقُومُ بِذَلِكَ يا نَفِيسَةُ ؟ !

فأَسْرَعَتْ المرأةُ فى سُرورٍ :

— أنَا يا سيِّدتى ، أنَا كَفِيلَةٌ بِهذَا الأَمْرِ .

فَسُرَّتْ خَدِيجَةُ ، وَوَافَقَتْ علَى أَنْ تَقُومَ هذِه المرأةُ بعرضِ الأَمْرِ على مُحَمَّدٍ .

وَلَبِثَتَا تَتَحَدَّثَانِ حتَّى الْمَسَاءِ ، وَخَديجةُ تَقُصُّ عَلَيْهَا رُؤْيَاهَا ، وَتَصِفُ لها الشَّمسَ الْكَبِيرَةَ الَّتى دَخَلَتْ بيتَها ، وَتُخْبِرُهَا بِتَأْوِيلِ « وَرَقَةَ » وَمَا رآهُ مَيْسَرَةُ فى رِحْلَتِهِ مع مُحَمَّدٍ ، ثُمَّ تُلْقِى على سَمْعِهَا أَرْقَامًا كبيرةً لأَرْبَاحِ تِلْكَ الرِّحْلَةِ .

وَنَفِيسَةُ تُؤَكِّدُ لَها أَنَّ محمداً سيكونُ النَّبِيَّ الَّذِى يَتَحَدَّثُ عنهُ النَّاسُ ، وأَنَّ اللهَ سيُوفِّقُها فى مُهِمَّتِهَا ، وَتَعودُ إليها بالْبُشْرَى السَّارَّة .

الأسئلة

(١)

«وتجلى لها ذلك الفضل الكبير الذى سَتُخَصُّ به من تتزوجه ، وتعينه على التفرغ لرسالة ربه ، وما سينالها من رضوان الله ، إذا انتشرت دعوة الله ، وانتصر نبيّ الله» .

(ا) ما معنى : «تجلَّى» ؟ ومتى تجلَّى لخديجة ذلك الفضل الكبير ؟

(ب) ما الذى جعل هذا الخاطر يزداد عند السيدة خديجة ؟

(ج) ما الذى فكرت فيه (خديجة) لتنال هذا الشرف ؟

(٢)

دار حديث بين : خديجة ونفيسة . لخص مضمونه .

(٣)

على أى شىء استقر رأى خديجة ونفيسة ؟ وما دلالة ذلك بالنسبة لشخصية السيدة «خديجة» رضى الله عنها .

* * *

(١٢) اتفـــاق

الْتَفَّتْ نَفِيسَةُ بِرِدَاءِ اللَّيْلِ ، وَسَارَتْ مِنْ بَيْتِ خَدِيجَةَ إِلى بَيْتِ مُحَمَّد ، ثم اسْتَأْذَنَتْ ، وَدَخَلَتْ ، فَوَجَدَتْهُ مُطْرِقًا يُفَكِّرُ ، وبَدَا لَهَا وكَأَنَّهَا لَمْ تَرَهُ مِنْ قَبْلُ .

رَأَتْ رَجُلًا وَسِيمًا (١) ، رَبْعَةً (٢) ، ليسَ بِالْقَصِيرِ ولَا بِالطَّوِيلِ ، ضَخْمَ الرَّأْسِ ، مُرَجَّل (٣) الشَّعْرِ شَدِيدَ سَوَادِهِ ، مَبْسُوطَ الْحَاجِبَيْنِ ، وَاسِعَ الْعَيْنَيْنِ ، يُشِعُّ مِنْ وَجْهِهِ نُورٌ مُتَلَأْلِئٌ .

فَحَيَّتْهُ ، فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ إِلَيْهَا فَأُخِذَتْ بِجَلَالِهِ وَهَيْبَتِهِ ، ثم حَيَّاهَا وقالَ فى رِفْق :

ـ خَيْرًا يا نَفِيسَةُ ! ماذَا جَاءَ بِكِ السَّاعَةَ ؟ !

قالتْ باسمةً :

---

(١) وسيما : حسن الوجه .
(٢) ربعة : معتدل الجسم .
(٣) مرجل الشعر : مبسوطه .

ـ جِئْتُ أُهَنِّئُكَ بِسَلَامَةِ الْعَوْدَةِ .

ثم تَلَفَّتَتْ حَوْلَهَا فلم تجدْ فى الدَّارِ غيرَ أُمِّ أَيْمَنَ ، مَشْغُولَةً بأَعمالِ الْبَيْتِ ، فقالَتْ وهِىَ تشيرُ إِلَيها :

ـ أَلا تُحِسُّ بالْوَحْشَةِ(١) يامُحَمَّد ؟ ! أَنْتَ وَأُمُّ أَيْمَنَ ؟!!

فابتسمَ ، ثم قالَ فى رِفْقٍ :

ـ وكيفَ أَدْفَعُ هذِه الْوَحْشَةَ يانفيسةُ ؟ !

إِنَّنى فقِيرٌ لا أَستطيعُ أَنْ أُحَقِّقَ مَا تَرْمِينَ إِليه ، وليْسَتْ كُلُّ امْرَأَةٍ تَصْلُحُ زَوْجَةً يانفِيسةُ ، وليسَ الزَّوَاجُ لُعْبَةً ، بل هُوَ مُهِمَّةٌ لا تَتَحَقَّقُ أَغْرَاضُهَا إِلَّا إِذَا توفَّرَتْ وَسَائِلُهَا ، وحتى يُقْدِرُنِى اللهُ على مَهْرِ الصَّالِحَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ ، أَفْعَلُ إِنْ شاءَ اللهُ .

فاشْتَدَّ سُرورُ نَفِيسَةَ ، لأَنَّهَا أَحَسَّتْ باقْتِرَابِهَا منْ غَرَضِهَا سَرِيعًا ، قالتْ فى أَمَلٍ :

ـ وَإِذَا كانَتْ المرأَةُ الصَّالِحَةُ مُستَقِيمَةً شَرِيفَةً ، وكانتْ ذَاتَ ثَرَاءٍ كَبير !

---

(١) الوحشة : الضيق .

فَأَسْرَعَ باسمًا :

ـ يَزِيدُ الْمَهْرُ يَا نَفِيسَةُ . وَأَنْتِ تَعْرِفِينَ مُهُورَ الأَغْنِيَاءِ ، وَتَعْلَمِينَ أَنَّهَا تُثْقِلُ الأَزْوَاجَ ، وَتُعْجِزُ الكثِيرِينَ ، وَأَيْنَ لِي بِمِثْلِهِ ؟ ! !

فازْدَادَ سرورُ نفيسةَ ، وأَحسَّت بأَنَّ الهدَفَ[1] دنا أَكثَرَ مِنْ ذِي قَبْلُ ، وَقَالَتْ وَهِيَ تَتَكَلَّفُ الْهُدوءَ :

ـ وَإِذَا يُسِّرَتْ لَكَ المرأَةُ الجميلةُ ، الْغَنِيَّةُ ، الشَّرِيفَةُ ، الصَّالِحَةُ ، دُونَ أَنْ تَتَكَلَّفَ ذَلِكَ الْمَهْرَ الْكَبِيرَ ، فماذَا ترَى ؟

قالَ باسِما :

ـ ليتَ يانَفيسةُ ! منْ تكونُ هذِهِ ؟!

فَجَمَعَتْ المرأَةُ قُوَّتَهَا ، وقالتْ فى صَوْتٍ مُنْخَفِضٍ :

ـ خديجةُ يامحمدُ ! خديجةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ !

فَنَظَرَ محمدٌ إلى نَفيسةَ نظرةً طوِيلَةً ، وكانَ قدْ أَحَسَّ من قَلْبِهِ مَيْلًا إلى خَديجةَ ، وَوَدَّ لَوْ كانَ غَنِيًّا فَعَرَضَ عليها

(١) الهدف : الغرض .

الزَّوَاجَ ، فقدْ وَجَدَ رُوْحَهُ تَنْجَذِبُ إلَيها ، ورأى صِفاتها تَكْبُرُ فى نَفْسِه ، ثم قالَ فى أَمَلٍ :

— وَمَنْ لِى بِذَلِكَ يَانَفيسَةُ ؟ !

فأَسرَعتْ المرأَةُ فى سُرورٍ :

أَنَا يامحمدُ ، إنَّكَ خَيْرُ زَوْج لِمِثْلِ خَديجةَ ، سَأُقْنِعُهَا ، وَأَصْرِفُهَا عَمَّا اعْتَزَمَتْهُ مِنْ رَفْضِ الزَّوَاج .

علىَّ تَحْوِيلُهَا عنْ رَأْيِهَا ، ولاَ أَظُنُّ أَنَّهَا تَرْفُضُ إذَا بلَّغْتُها رَغْبَتَكَ .

ثُمَّ انْصَرَفَتْ مُسْرِعَةً ، وَدَخَلَتْ علَى خديجةَ فرحةً ، وَزَفَّتْ إليها الْبُشْرَى بقَبُول مُحمدٍ ، فَقَبَّلَتْهَا خديجةُ ، ونهضَتْ إلى مَخَازِنِهَا وَاخْتَارَتْ بَعْضَ الْهَدَايا الثمينةَ وقَدَّمَتْهَا إليها ، وَأَعْطَتْ جَوَارِيَهَا ، وَقَضَتْ لَيْلَتَها فى سُرُورٍ ، تُفَكِّرُ فى هذه النِّعْمَةِ التى سَيَخُصُّهَا اللهُ بها ، وَذَلكَ الْفَضْلِ الَّذى سَيَخْتَارُهَا لهُ .

ولمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ ، أَرْسَلَتْ إلى عَمِّها ، فلمَّا حضرَ وَاسْتَقرَّ به الْمَجْلِسُ ، قالتْ باسمةً :

ـ مَا رَأْيُكَ يَاعَمِّى فيما عَزَمْتُ عَلَيهِ ؟

قالَ الرَّجُلُ مُهتَمًّا :

ـ لستُ أَرَاهُ رأياً ياخديجةُ ! وما كان خُوَيْلدٌ أَبُوكِ يَرَاه لوْ كان حَيًّا ! .

امْرَأَةٌ فى مثلِ سِنِّك وَثرْوَتِك ، تصْرفُ نفْسَها عن الزَّوَاج ، وَتعيشُ وَحيدَةً ، وَتأْبَى سَادَةَ مَكَّةَ ، وَتكِدُّ مُفكِّرَةً ليلَها وَنَهَارَها ، وكانَ يُغْنِيها عنْ هذَا كُلِّه رَجُلٌ ! !

فاسْتَمَعَتْ خديجةُ حتَّى أَتمَّ حديثَهُ : ثم قالتْ فى ابتسامَة لَطيفَة :

ـ وما رَأْيُكَ لو كانَتْ خديجةُ اقْتَنَعَتْ ، وَعَزَمَتْ على الزَّواج ؟ !

فَنظرَ الرَّجُلُ إِلَيها منْ رَأْسهَا إِلَى قَدَمَيْهَا ، ثم قالَ فى دَهْشَة :

ـ تكونُ قَدْ أَحْسَنَتْ ، وَعَادَتْ إِلى الصَّواب !

وَلٰكنْ يَبْقَى الزَّوْجُ الَّذى يَليقُ ياخديجةُ !

بَقِى أَنْ تَخْتَارِى ما يُنَاسِبُ مَنْزِلَتِك فى قُرَيشٍ .

فسأَلَتْه عن أَصْلَحِ رجالِ مكةَ ، ففكَّرَ قليلاً ثم قالَ فى جِدٍّ :

ـ كُلُّهم طَامِعٌ ياخَدِيجةُ ، سَتَجدِينَ رجالاً جَاوَزُوا[١] الشَّبَابَ ، وَفِتْيانًا فى أوَّل مَرَاحِلِه ، وَآخَرِينَ بينَ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ ، كلُّهم سَيَطْرُقُونَ بابَك وَيُلِحُّونَ[٢] عَليك ، وَيَرْتَمُونَ تَحْتَ قَدَمَيْكِ . ولَكنَّ الزَّوْجَ الَّذى يُكْرِمُ زَوْجَتَهُ ، وَيَعيشُ لأُسْرَتِهِ ، وَيَفْهَمُ معنَى الزَّوَاجِ ، رَجُلٌ نادِرٌ فى مكَة ، فإذَا كانَ ، فَرَئِيسٌ مِنْ هَؤُلاءِ الرُّؤَسَاءِ .

فقالتْ خديجةُ باسمةً :

ـ وإِذَا كانَ رَجُلًا يَفْهَمُ مَعْنَى الزَّوَاجِ ، وَيُقَدِّرُ الأُسْرَةَ ، لكنَّهُ فقيرٌ ، فماذَا تَرَى ؟

فصاحَ الرَّجُلُ :

ـ فقيرٌ ! فقيرٌ !

(١) جاوزوا الشباب : تعدوه وفارقوه .
(٢) يلحون : يكثرون الطلب .

وصمتَ قليلاً ، ثم قالَ مُوافقًا :

ـ مادامَ رَجُلًا يَفْهَمُ تلكَ المعانى ، وَيُقَدِّرُ الزَّوْجَةَ ، وَيُعْطِيها حَقَّهَا ، فَلا مانِعَ من قَبُوله ، أمَّا الْغِنَى وَالْفَقْرُ فَبِيَدِ اللهِ ، وَالرَّجُلُ الْعَاقِلُ الْمُجِدُّ إِذَا وَاصَلَ جِدَّهُ ، بَلَغَ الْغِنَى وَالثَّرْوَةَ .

وَأَنْتِ بحمد الله واسعةُ الثَّرَاءِ ، فَمَنْ ذلكَ الَّذى تَعْنِينَهُ ؟

قالتْ باسمةً :

ـ وَمَا رَأْيُكَ فى مُحَمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ ؟

فصاحَ الرجلُ مُسْرِعًا :

ـ عَظِيمٌ ! عَظِيمٌ !

خيرُ زَوْجٍ ياخديجةُ ، وما كانَ لكَ أن تَرْفُضِى هذا الزَّوَاجَ ، وما كانَ لَكِ أَنْ تَنْتَظِرى هذه الْمُدَّةَ الطَّوِيلَةَ !

فأسرعتْ فَرِحَةً :

ـ قَدْ أَرْسَلَ اللَّيْلَةَ يَعْرِضُ هذَا الزَّوَاجَ ، فهلْ رَضِيتَ ياعَمِّى ؟ ما كُنْتَ قاطعَةً أَمْرًا حتَّى أَرَى رَأْيَكَ .

فاشْتَدَّ بالرَّجُل التَّأَثُّرُ ، وقال فى حَنَانٍ :

ـ عَوَّضَك اللهُ خيْرًا ياخديجةُ ! صَرَفَكِ[1] هذه المدَّةَ الطَّوِيلَةَ عنْ الزَّوَاجِ ، لِيَمْنَحَكِ أَكبرَ فَضْلٍ ، وَيَخُصَّك بأَثْمنِ هديةٍ ، فَمِثْلُ محمدٍ فى الرِّجال قَليلٌ ، وَيَالَيْتَ أَبَاكِ كانَ حَيًّا يَشْهَدُ هذه النِّعْمَةَ التى أَتَمَّهَا اللهُ عليكِ ، فعلَى بَرَكَةِ اللهِ ياخديجةُ !

مُوَافقٌ ، مُوَافقٌ !

وكانَ مُحمدٌ قد نَهَضَ فى الصَّباحِ إلى بيتِ عَمِّه أَبى طَالبٍ ، وحدَّثَهُ عنْ رغْبَتِهِ فى الزَّوَاجِ من خديجةَ فصاحَ عمُّه فى دَهْشَةٍ :

ـ وَتَرْضَى خديجةُ يامحمدُ ؟ !

قالَ محمدٌ باسمًا :

ـ رَضِيتْ ياعَمَّاهُ !

رَضِيَتْ بالْفَقِيرِ زَوْجًا لَهَا ، بعدَما صَرَفَتْ كبارَ الأَغْنيَاءِ ، ورَفَضَتْ أُولئكَ الرُّؤَسَاءَ .

---

(١) صرفك : منعك .

فَهَزَّ أبو طالبٍ رَأْسَهُ ، ثم قالَ في ثقَةٍ :

إِنَّهَا امرَأَةٌ عَاقِلَةٌ حَازِمَةٌ[١] ، تَعْرِفُ مَقَادِيرَ الرِّجَالِ ، فلم تَجِدْكَ فَقيرًا ، بل أَدْرَكَتْ أَنَّكَ غَنِيُّ النَّفْسِ ، ثَرِيُّ الْفُؤَادِ ، وَتَوَسَّمَتْ[٢] ذلك ! !

وأَخَذَ يُهَنِّئُهُ بزَواجِ خَديجةَ ، وَنِعْمَةِ اللهِ الَّتِى ادَّخَرَهَا لَه ، ومحمدٌ فرِحٌ يَشْكُرُ فَضْلَ اللهِ .

ثُمَّ طَارَ الْخبرُ في مَكَّةَ ، وَأَصْبَحَ هذَا الزَّوَاجُ حَديثَ النَّاسِ ، وَمَوْضِعَ دَهْشَتِهِمْ وَعَجَبِهِمْ ، وخديجةُ فَرِحةٌ تُعِدُّ لهٰذَا الزَّوَاجِ ، حتَّى كانَ الْيَوْمُ الْمَضْروبُ لِعَقْدِ الْعَقْدِ.

---

(١) حازمة : سديدة الرأى .

(٢) توسمت : توقعت .

الأسئلة

(١)

«وكيف أدفع هذه الوحشةَ يا نفيسةُ ؟ ! إننى فقير لا أستطيع أن أحقق ما تَرمِين إليه ، وليست كلُّ امرأة تصلح زوجة يا نفيسة ، وليس الزواج لُعبة ، بل هو مهمة لا تتحقق أغراضها إلا إذا توفرت وسائلها . . .

(ا) ما معنى «الوحشة» وما الذى كانت ترمى إليه «نفيسة» ؟

(ب) ما أثر وقع هذا الجواب من «محمد» فى نفس «نفيسة» ، ولماذا ؟

(جـ) كانت «نفيسة» بارعة فى الوصول إلى تحقيق رسالتها . وضح .

(٢)

قال عم «خديجة» :

مادام رجلا يفهم تلك المعانى ويقدر الزوجة ، ويعطيها

حقها فلا مانع من قبوله ، أما الْغِنَى والفقر فبيد الله ، والرجل العاقل المجد وإذا واصل جده بلغ الغنى والثروة . . .

قالت « خديجة » باسمة : وما رأيك فى محمد بن عبد الله ؟

فصاح الرجل مسْرعا : عظيم عظيم ؟ خير زوج ياخديجة .

(ا) متى دار هذا الحوار بين خديجة وعمها ؟ وما هدفها منه ؟

(ب) علام يدل تكرار كلمة عظيم فى العبارة السابقة ؟

(ج) ماذا صنع « محمد » بعد أن عرضت عليه « نفيسة » أن يتزوج من « خديجة » ؟

(١٣) الـــــــزواج

اسْتَعَدَّتْ دَارُ خديجةَ لاسْتِقْبَالِ اليومِ السَّعِيدِ ، كما اسْتَعَدَّ بَنُو أَسَدٍ قَوْمُهَا ، ليَظْهَرُوا بالْمَظْهَرِ اللَّائِقِ أَمامَ بَنِي هَاشمٍ قوم مُحَمَّدٍ ، ودَعا كلٌّ منْهُما الأَصْحَابَ والأَحْبَابَ .

وفى مَسَاءِ ذلكَ اليومِ ، كانَ بَنُو أَسَدٍ وَبَنُو هَاشمٍ فى دَارِ خَديجةَ ، يَجْلِسُونَ فى فِنَاءٍ وَاسعٍ ، مُدَّتْ عَلَيْه أَلوانُ الْبُسُطِ الجميلَةِ ، عَلَيْهَا الْوَسَائِدُ الْبَدِيعَةُ النَّقْشِ ، قدْ ارتَدَوا الْعبَاءَات الْمُزَرْكَشَةَ ، وَلَفُّوا علَى رُءُوسِهِم الْعَمَائمَ الْكَبِيرَةَ ، وَبَدَا شُيُوخُهُم فى وَقَارِ[1] الْمُلُوكِ ذَوِى التِّيجَانِ ، يَتَكَلَّمُونَ بِقَدَرٍ وَحِكْمَةٍ ، وَيَتَحَدَّثُونَ فى رَزَانَةٍ وَتَرْتِيبٍ ، أَمَامَهم مَجَامِرُ[2] الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، يَنْبَعِثُ منْهَا دُخانُ النَّدِّ[3] وَالْعَنْبَرِ .

---

(١) وقار : رزانة وثبات .
(٢) مجامر : مباخر .
(٣) الند : نوع من الطيب .

وَحَوْلَهُمْ أَبْنَاؤُهم وإِخْوَانُهم باشِّينَ ، يُرْسِلُونَ الْفُكَاهَاتِ الْعَذْبَةَ وَيَتَنَدَّرُونَ(١) ، وَيَتَحَدَّثُونَ فى فَرَحٍ ، وَمُحَمَّدٌ فى وَسَطِهِم مُتَلأْلِئُ الْوَجْهِ مُضِيءُ الْقَسَمَاتِ(٢) ، وعَمُّهُ أَبو طالبٍ يَتَقَبَّلُ التَّحِيَّاتِ وَالتَّهْنِئَاتِ ، وَيَرُدُّ عَلَيها بأَحسنَ منْهَا ، وَعَمٌّ خديجةَ فَرِحٌ بَاشٌّ ، يُوَزِّعُ بَسماتِه وتَحيَّاتِه علَى الْجَميعِ .

وقدْ انْبَعَثَ مِنْ جَوَانِبِ الدَّارِ غِنَاءٌ رَقيقٌ ، أَجَادَتْهُ جَوَارِى خديجةَ وَمُحِبَّاتُها ، وَمَنْ فَرِحْنَ لَهَا من الْفَقِيرَاتِ الَّلاتِى يَعِشْنَ فى نِعْمَتِهَا وَإِحْسَانِهَا .

ثمَّ دارَتْ أَكْوَابُ الشَّرَابِ ، وَأَطْبَاقُ الْفَاكِهَةِ ، فتناوَلَ الْقوْمُ منْها ما لذَّ وطابَ ، وَتندَّرَ الشُّبَّانُ بما حَلَا لَهُمْ من النَّوَادِرِ الْمُضْحِكَةِ ، وَدَاعَبَهُم بَعضُ الشُّيوخِ بِفُكاهاتٍ رَائِقَة . فلمَّا اكْتمَلَ الْمَجْلِسُ ، اسْتوَىَ أَبُو طالبٍ فى جِلْسَتِهِ ، وَنظرَ إلى الْقوْمِ فى وَقارٍ ، ثم قالَ فى سُرُورٍ :

— «الْحَمْدُ للهِ الَّذى جَعَلَنا منْ ذُرِّيَّةِ إبْرَاهيمَ، وَزَرْعِ

---

(١) ويتندرون : يرسلون النوادر والفكاهات .

(٢) القسمات : جمع قسمة وهى ما فوق الحاجب من الوجه .

إسْمَاعيلَ ، حَفَظَةَ بَيْتِهِ الْحَرَامِ ، وسدَنَة[1] حَرَمِهِ الامِنِ: وَآتَانَا الْحُكْمَ بالْحَقِّ والأَمَانَةِ .

يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ! هذَا ابْنُ أَخِى مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ، لَهُ رَغْبَةٌ فى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ ، ولها فيهِ مِثْلُ ذَلِكَ ، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ قُلاًّ فى المال ، فإِنَّ المالَ أَمْرٌ حَائلٌ[2] وَوَدِيعَةٌ مُسْتَرَدَّةٌ ، وَمَا يُوزَنُ محمدٌ بِرَجُلٍ إِلاَّ رَجَحَ بِه شَرَفًا وَعَقْلًا . . » .

والْجَميعُ مُنْصِتُونَ إِلى كَلَامِهِ ، يَهُزُّونَ رُءُوسَهُم مُوَافِقِينَ ، يَنْظُرُونَ إِلَى مُحَمَّدٍ باسِمِينَ ، وعيونُهم تَنْطِقُ بالتَّهْنِئَةِ .

حَتَّى أَتَمَّ أَبو طالبٍ خُطْبَتَهُ ، فاعتدَلَ وَرَقَةُ بنُ نَوْفَلٍ ، وَرَدَّ علَى هَذه الْخُطْبَةِ بِلِسَانِ بَنِى أَسَدٍ ، مَادِحًا مُثْنِيًا علَى مُحمدٍ وَصِفَاتِهِ ، ثم اعْتَدَلَ عَمْرُو بْنُ أَسَدٍ عَمُّ خَدِيجَةَ ، وَأَعْلَنَ فى سُرُورٍ أَنَّهُ زَوَّجَ محمدَ بْنَ عَبْد اللهِ خديجةَ بنتَ خُويلدٍ ابنةَ أَخِيـه .

فانْطَلَقَتْ الزَّغَارِيدُ مِنَ الدَّارِ ، وَرَفَعَتْ الْجَوَارِى أَصْوَاتَهُنَّ

---

(١) سدنة : خدم الكعبة .

(٢) امر حائل : شىء زائل .

بِأَعْذَبِ الأَلْحَانِ ، ثم دَارَتْ على الْجَمِيعِ كئُوسُ الشَّرَابِ ، فَشَرِبُوا ، وَمُدَّتْ السُّمُطُ(١) فَطَعِمُوا .

وَأَخَذَتْ خَدِيجَةُ تُوزِّعُ الصَّدَقَاتِ وَتَنْثُرُ الْمَالَ على الْفُقَرَاءِ ، كما تُوَزِّعُ بَسَمَاتِهَا الرَّقِيقَةَ على صَدِيقَاتِهَا ومُحبَّاتِهَا ، الَّلاتى امْتَلأَتْ بِهِنَّ الدَّارُ .

ولَمَّا انْتَهَى الْعَقْدُ والسَّمَرُ ، انْصَرَفَ رجالُ مكةَ ونِساؤُها إلى بُيوتِهم ، يَتَحَدَّثُونَ عن محمدٍ وخَدِيجَةَ .

ثُمَّ انْتَقَلَ محمدٌ إلى دَارِ خديجةَ ، وَاسْتَأْنَفَتْ الدَّارُ حياتَها كما كانَتْ ، وَبَدَأَ مُحمَّدٌ يَسْتَعِدُّ لِيُعِينَ خديجةَ فى تِجَارَتِهَا ، وَيُدَبِّرُ أَمْرَ مالِهَا .

لكِنَّهَا أَحَسَّتْ بأَنَّ محمدًا خُلِقَ لِرِسَالَةٍ أَكبرَ من المالِ ومِنَ التِّجَارَةِ ، وَآنَسَتْ(٢) مِنْ صَفَاءِ رُوحِهِ ، أَنَّهُ يُعَدُّ لِدَوْرٍ كَبِيرٍ ، يُؤَدِّيهِ لِلْبَشَرِ لا لِخَدِيجَةَ ومالِهَا ، ولا لِقُرَيْشٍ وَحْدَهَا .

---

(١) السمط : جمع سماط وهو ما يمد عليه الطعام .
(٢) آنست : وجدت وعرفت .

فأصْبَحَتْ ذاتَ يومٍ وهُوَ ناهِضٌ إلَى المخازنِ ، لِيُلَبِّيَ(١) حاجَةَ بعْضِ العملاءِ ، ونَظرَتْ إلى وَجْهِهِ ، وأطالَتْ النَّظرِ فى عَينَيهِ الواسِعَتيْنِ ، ثم قالت باسمةً :

ـ إلَى أيْنَ يامحمدُ ، ومَكَّةُ لاَ تزالُ نائِمةٌ ؟ !

قَضَيْتَ شَطْراً كبيراً من الليْلِ تَتَأَملُ السَّماءَ وتَنظُرُ فى النُّجومِ ، فهلْ استَرَحْتَ حتى يَنْهَضَ سادَةُ قُريشٍ ؟ !

فابْتَسَمَ محمدٌ ابْتِسَامَةً زَادَتْ وَجْهَهُ إشْرَاقًا ، ثمَّ قالَ فى صَوْتٍ رَقِيقٍ :

ـ لابُدَّ من النَّشَاطِ وَالْعَمَلِ ياخَدِيجَةُ ، علَى المَرْءِ أنْ يَسْعَى ، وعلَى اللهِ التَّوْفِيقُ !

قالتْ خديجةُ ، وعلَى شَفَتَيْهَا بَسْمَةٌ رَقِيقَةٌ :

ـ لاَ عَلَيْكَ(٣) يا بْنَ عَمِّى ، فالمالُ مَوْفُورٌ ، ونحنُ بحمدِ اللهِ مِنْ أكْثَرِ النَّاسِ ثرْوَةً ، وَأَوْسَعِهِمْ غِنًى !

---

(١) ليلبى : ليجيب .
(٢) شطرا : جزءا .
(٣) لا عليك : لا تهتم .

فأَجَابَ فى رفْق :

ــ لا أُرِيدُ المالَ ياخديجةُ ، ولكِنِّى أُرِيدُ الْعَمَلَ ؛ لابُدَّ أَنْ يُؤَدِّىَ الْمَرْءُ فى الْحَيَاةِ عَمَلًا وإِن كانَ المالُ مُيَسَّرًا لَهُ ، لابُدَّ أَنْ يَسْعَى وإِنْ كَانَ غَنِيًّا ، لابُدَّ أَنْ يُنْفِقَ الصِّحَّةَ الَّتى مَنَّ اللهُ بِها عليه فِيما خُلِقَتْ لَهُ .

وَالْمَالُ لا يَبْقَى ياخديجةُ ، فلابُدَّ من زِيَادَةٍ تُعَوِّضُ مَا يُنْفَقُ مِنه ، ولابُدَّ منْ مَكْسَبٍ جَدِيدٍ عليهِ ، يُعْطِى منْه حَقَّ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ .

حَتْمٌ علَينا أَنْ نَسْعَى من أَجْلِ هؤُلاءِ الضُّعَفَاءِ ، الَّذِين رَبَطَ اللهُ حياتَهم بالأَقْوِيَاءِ .

قالتْ خديجةُ فى جِدٍّ :

ــ لَنْ تَعْمَلَ بِيَدِكَ يامُحمَّدُ ، وَإِنَّمَا تُشِيرُ أَنْتَ ، وَالْخَدَمُ يُنَفِّذُونَ ، وَهُمْ كَثِيرٌ كما تَرَى ، والْكُلُّ رَهْنُ إِشَارَتِكَ[1] ، وَسَوْفَ يَسِيرُ غَيرُكَ بالتِّجَارَةِ إلى بِلادِ اللهِ الْبَعِيدَةِ ، فَلَكَ فى مَكَّةَ من الْعَمَلِ مالا يَدَعُ وقتًا للرَّحِيلِ !

---

(١) الرهن : ما وضع عندك لينوب مناب ما أخذ منك والمراد : خاضعون لأمرك واشارتك .

فسألَهَا محمدٌ باسِمًا :

ـ أىَّ عَمَلٍ تَعْنِينَ يابْنَةَ الْعَمِّ ؟ !

قالتْ فى رِفْقٍ :

ـ مكَّةُ كلُّهَا تَتَطَلَّعُ إلَى رَأْيِكَ وَمَشُورَتِكَ ، وَمَكَانُ الرِّيَاسَةِ فِيهَا يُنَادِيكَ ، وَيَفْتَحُ ذِرَاعَيْهِ لَكَ ، وَرِجَالُ مَكَّةَ سَيَفْسَحُونَ(١) لَكَ ، لِتَأْخُذَ ذلكَ المكانَ الَّذِى خُلِقْتَ لَه .

قالَ بَاسِمًا ، وَهُوَ يَهُمُّ بالسَّيْرِ إلى الْمَخَازن :

ـ سأُفَكِّرُ يابْنَةَ الْعَمِّ ، وإنْ كانَ الأَوَانُ لمْ يَحِنْ ، فما زِلْنا فى أَوَّلِ الطَّرِيق ياخَدِيجةُ .

---

(١) سيفسحون لك : يوسعون ويفرجون لك عن مكان يسعك .

الأسئلة

(١)

كيف تمت خِطبة السيدة « خديجة » لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

(٢)

ماذا فعلت « خديجة » رضى الله عنها ـ بعد أن تمت الخطبة؟ وما دلالة ذلك بالنسبة لشخصيتها ؟

(٣)

كيف تمَّ زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة رضى الله عنها ؟

(٤)

ماذا فعل صلى الله عليه وسلم بعد انتقاله إلى دار « خديجة »؟

* * *

(١٤) ابو القاسم

سَارَتْ الأَيَّامُ ، وَالزَّوْجَانِ يَزْدَادَان مَحَبَّةً ، وَيَشْتَدُّ تَعَلُّقُ كُلٍّ مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ .

وَقَدْ أَفَسَحَ رجالُ مكةَ لمحمدٍ مكانًا بينَهم ، وَأَصْبَحُوا يَسْتَشِيرُونَهُ فى أَشَدِّ أُمُورِهِم تَعْقِيدًا ، وَيَجْعَلُونَهُ مَوْطِنَ أَسْرَارِهِمْ وَمُسْتَوْدَعَ أَمَانَاتِهِمْ .

إِذَا جَلَسُوا لِلأَمْرِ الْعَظِيمِ دَعَوْهُ ، وَإِذَا قَامُوا لِمَكْرُمَةٍ لَمْ يَفُتْهُمْ رَأْيُهُ . وكُلَّمَا انْفَسَحَ لَهُ مَكَانٌ فى وَسَطِ الرُّؤَسَاءِ ، أَحَسَّت خديجةُ بالْعِزَّةِ وَتَمَنَّتْ أَنْ يُفْسَحَ له مَكَانٌ أَرْفَعُ منه ، حَتَّى يكونَ سَيِّدَ مكةَ كُلِّها .

وقَدْ حَرَصَتْ على أَنْ تُوَفِّرَ لَهُ الْهُدُوءَ وَالسَّكِينَةَ ، ولا تَشْغَلَهُ بصغائِرِ الأُمُورِ ، ولا تُسْمِعَه ما يَشْغَلُهُ عن الْعَظَائِمِ ، تَتَمَنَّى أَنْ تُوَثِّقَ الأَيَّامُ مَا بَيْنَهُمَا بِوَلَدٍ ، يَشُدُّ أَوَاصِرَ[1] هذِه الأُلْفَةِ ،

---

(١) أواصر : روابط .

وَيُقَوِّى رَوَابِطَ هذِه الْمَحَبَّةِ ، والأَيَّامُ تسيرُ على خيرِ ما يُرِيدُ زَوْجَانِ من الأَيام واللَّيَالِى .

فلمَّا انْقَضَى العامُ الثانى على زَوَاجِهِمَا ، حقَّقَ اللهُ ما تَمَنَّتْهُ خديجةُ ، وكانَ « القَاسِمُ » فى فِرَاشِهِ الصَّغِيرِ يَمْلأُ الدَّارَ بِصِيَاحِهِ وَيُحَرِّكُ رِجْلَيْهِ فى مَهْدِهِ ، وَيُدِيرُ عَيْنَيْهِ يَمِينًا وَيَسارًا ، فَيَمْلأُ قَلْبَ مُحمدٍ فَرَحًا بالْعَقِبِ(١) الذَّكَرِ الَّذِى تَحْرِصُ علَيه الْعَرَبُ ، وَتُكْثِرُ الزَّوَاجَ مِنْ أَجْلِهِ ، وَيَمْلأُ قَلبَ خديجةَ غِبطةً(٢) بهذَا الرِّبَاطِ الْمَتِينِ ، الَّذِى رَبَطَ بَيْنَهَا وبينَ مُحمدٍ ، وسَرَّ قَلْبَهُ وَاكْتَمَلَتْ بِهِ سَعادَتُه وسَعَادَتُهَا .

وَغَدَتْ خَدِيجَةُ تُنَادِى محمدًا « أَبَا القاسِم » فَيَطْرَبُ لِهَذِه الْكُنْيَةِ(٣) الْجَدِيدَةِ ، كما أَصبحَ الناسُ يُنادُونَهُ بِهَا ، فَيَطْرَبُ لَهَا .

وَصَارَتْ هذِه الْكُنْيَةُ فى أُذُنِ خديجةَ مُوسيقا عذبَةَ النَّغَمَاتِ ، يَتَفَتَّحُ قَلْبُهَا للحياةِ كُلَّمَا سَمِعَتْ الناسَ يَدْعُونَ زَوْجَهَا بِهَا ،

---

(١) العقب : الولد الذكر .
(٢) غبطة : سرور .
(٣) الكنية : ما صدرت بأب أو أم فيقال أبو فلان ، وأم فلان ، مثل أبو حسن ، وأم سعد .

فالقاسِمُ ابْنُهما ، والثَّمَرَةُ الأُولى لهذِه الْمَحَبَّةِ وذَلِكَ الإِخْلاصِ.

وكُلَّمَا مرَّ يومٌ زادَ محمدٌ فى مكةَ عَظَمَةً ، وزَادَ التِفَافُ النَّاسِ به ، وَتَقْدِيرُهم لَهُ .

ولم يَكَدْ يَخْلُو يومٌ منْ مُشْكِلَةٍ يَحُلُّهَا ، أَوْ رَأْيٍ سَدِيدٍ[١] ، يُسْدِيهِ[٢] ، يَجْلِسُ فى دَارِ النَّدْوَةِ[٣] مَعَ الْجَالِسِينَ ، لكنَّه يُكْثِرُ الصَّمْتَ ، وَيَلْتَزِمُ الْوَقَارَ ، وَيَمِيلُ إِلى الْمَظْلُوم على الظَّالِمِ ، وَيَنْصُرُ الْحَقَّ وَيَخْذُلُ الباطِلَ ، ولاَ يُجَامِلَ أَحَدًا ، ولا يُحَابِى قَرِيبًا ولا صَاحِبًا ، ولا تَعْرِضُ مَكْرُمَةٌ إلاَّ سَعَى فى تَحْقِيقِهَا ، وَشَجَّعَ النَّاسَ علَيها .

ولمْ يَنْقَضِ عامٌ علَى مَوْلِدِ الْقَاسِمِ ، حَتَّى كانَتْ «زَيْنَبُ» فى مَهْدِهَا تَبْتَسِمُ إلى أَبَوَيْهَا ، وَتُنَاغِيهِمَا ، وَتَنْظُرُ إِلَيْهِمَا بِعَيْنَيْهَا الصَّغِيرَتَيْنِ الْبَرِيئَتَيْنِ ، وخديجةُ مسْرورةٌ ، لأَنَّها أَنْجَبَتْ لمحمدٍ الْوَلَدَ وأَنْجبَتْ له الْبِنْتَ .

---

(١) سديد : صواب موفق .

(٢) يسديه : يقدمه .

(٣) دار الندوة : دار اجتماع قريش .

لكنَّ القاسِمَ لَزِمَ الْفِرَاشَ ذَاتَ يومٍ ، يَشْكُو مَرَضًا أَلَمَّ بِهِ ، فَأَسْرَعَتْ خَدِيجَةُ تُمَرِّضُهُ ، وَتَسْتَعِينُ بِمَنْ يَدْرُونَ فِى عِلاجِ الأَمْرَاضِ وَوَصْفِ الدَّوَاءِ ، ومحمدٌ بجانِبِهَا ، يُعِينُهَا ، وَيَنْظُرُ حَزِينًا إلى هذَا الصَّغِيرِ الَّذِى يَشْتَدُّ عليهِ الدَّاءُ ولا يُجْدِى[1] فيهِ الدَّوَاءُ .

وخَدِيجةُ حَائِرَةٌ ، تنظرُ إلى السَّمَاءِ ، وَتُفَكِّرُ فى هذَا الصَّغِيرِ الَّذِى يَذْوِى أمامَها ، ولا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُنْقِذَهُ مِمَّا هُوَ فيه ، وَهُوَ يُسْرِعُ إِلَى النِّهَايَةِ ، ومالُها كُلُّهُ عاجزٌ عنْ رَدِّ مَا نَزَلَ بِهِ .

اسْتَغَاثَتْ بِمَا يُؤْكَلُ ، وَمَا يُشْرَبُ ، وَمَا يُعَلَّقُ من التَّمَائِمِ[2] ، وَبالرُّقاةِ ، وَنُطُسِ[3] الأَطِبَّاءِ ، وَبَذَلَتْ لمنْ يَشْفِى الْقَاسِمَ ما يُرِيدُ مِنَ المـالِ .

وكُلَّمَا نَظَرَتْ إلى صَغِيرِهَا ، وَهُوَ يَذْوِى كغُصْنِ الشَّجَرَةِ ، الَّتِى حُبِسَ عَنْهَا الماءُ وَاشْتَدَّ بها الحَرُّ ، كادَ قَلْبُهَا يَنْفَجِرُ ، ثُمَّ يشتدُّ بها الأَسَى حِينَ تَنظرُ إلى زَوْجِهَا ، فتَرَاهُ حزينًا ،

---

(١) لا يجدى : لا يفيد .
(٢) التمائم : ما كان يعلق فى العنق من خرزة أو غيرها ليمنع العين ويشفى المريض كما كانوا يعتقدون .
(٣) نطس : مهرة .

مُشْفِقًا على الصَّغِيرِ مِنَ النِّهَايَةِ الَّتِي تَقْتَرِبُ منه ، تَوَدُّ لَوْ أنها تَحَمَّلَتْ الصَّدْمَةَ وَحْدَها دُونَه ، أَوْ أَنَّ مُعجزَةً تُنَجِّي هذَا الصَّغيرَ منْ مَخَالبِ الْمَوْتِ .

لكنَّ قضاءَ الله فَوْقَ كُلِّ يَدٍ ، وَقُدْرَتَهُ فوقَ كُلِّ قُدْرَةٍ ، فَلَمْ يُجْدِ فى عَلَاجِ الْقَاسِمِ دَوَاءٌ ، وَتَلَاحَقَتْ أَنْفَاسُهُ ، وَفَتَحَ عَيْنَيْه ، ثم أَغْلَقَهُمَا ، وَأَسْلَمَ أَنْفَاسَهُ ، فَانْفَلَقَ قَلْبُ خديجةَ نِصْفَينِ ، وَدَارَتْ بها الأَرْضُ ، وَتَذَكَّرَتْ زَوْجَهَا ، فَتَجَلَّدَتْ لِيَتَجَلَّدَ ، وَحَبَسَتْ دُمُوعَهَا فى عَيْنَيْهَا ،

لكِنَّهَا رأَتْ عَيْنَيْه تَدْمَعَانِ ، فَدَمَعَتْ عَيْنَاها ، وقالتْ وهىَ تَنظُرُ إليه :

— قَضَاءُ اللهِ يا محمدُ ، ولاَ رَادَّ لما قَضَى اللهُ !

مَا بَخِلْنَا بِجُهْدٍ ولا مالٍ ، وهلْ كانَ فى يَدِنَا أَنْ نَرُدَّ الْقَاسِمَ ، وَقَدْ اخْتَارَهُ اللهُ ؟ !

ثمَّ قاما ، ولفَّا الصَّغيرَ فى كَفَنِهِ ، وَحَمَلاهُ ، وَأَوْدَعَاهُ قَبْرَهُ ، وعَادَا إلَى الْبَيْتِ ، وخَدِيجةُ تَتَوَسَّلُ إلَى اللهِ أَنْ يُعَوِّضَهَا مِنَ

الْقَاسِمِ وَلَدًا يُخَفِّفُ ما فى قَلْبِ خَدِيجَةَ ومحمد منَ الأَسَى ، وَيُذْهِبُ ما به منَ الْحُزْنِ .

وكُلَّمَا قَرُبَتْ أَيَّامُ وَضْعِهَا ، تَوَسَّلَتْ إلى رَبِّهَا ، أَنْ يَرْزُقَهَا وَلدًا ، حَتَّى جاءَهَا المخاضُ ، فزَادَ تَوَسُّلُهَا إلى رَبِّهَا ، لكنَّها وَلَدَتْ « رُقَيَّةَ » فَرجَتْ رَبَّهَا أَنْ تَلِدَ بعدَها الْوَلَدَ ، فوَلَدَتْ « أُمَّ كُلْثُومٍ » فتَوَسَّلَتْ إلى اللهِ أَنْ يَرْزُقَهَا وَلَدًا ، فرَزَقَهَا « فَاطِمَةَ » ! !

حَزَّ(١) ذَلكَ فى قَلْبِهَا ، وَأَخَذَتْ تنظُرُ إلى مُحمَّدٍ شَديدَةَ الأَسَى ، بَادِيَةَ(٢) الْحُزْنِ ، لكنَّها رَأَتْهُ شَديدَ الْعنَايَةِ ببَنَاتِهِ ، شَديدَ الْمَحَبَّةِ لَهُنَّ ، فَخَفَّفَ ذَلكَ بَعْضَ ما تَجدُ .

ولَمْ تَلِدْ بعدَ ذلكَ بِنْتًا ولا وَلَدًا ، ولمْ تَعُدْ تُفَكِّرُ فى الْبِنْتِ ولا فى الْوَلَدِ ، فقدْ رَأَتْ زَوْجَهَا يَشْتَدُّ بِرُّهُ بها ، وَعَطْفُهُ علَيها ، وَتَقْديرُه لها .

وَوَجدَتْهُ مُهْتَمًّا بالتَّفْكِيرِ والتَّدَبُّرِ فى صُنْعِ اللهِ ، قدْ شَغَلَ قلبَه بِالْمَلَإِ(٣) الأَعْلَى ومَا فيه ، وَشَغَلَ وَقْتَهُ بخَلْقِ الله ، يُوَاسِى

(١) حز ذلك : أثر .
(٢) بادية : ظاهرة .
(٣) الملأ الأعلى : السماء .

الضُّعَفَاءَ(١) وَالْمَسَاكِينَ ، ويفتح قَلبَه للسَّائلِ والْمَحْرُوم . وَيُدَافِعُ عن الْمُسْتَضْعَفِينَ الَّذِينَ يَسْتَعْبِدُهُمْ النَّاسُ ، وَيَسْعَى فِى الْخَيْرِ ، وَالْمَحَبَّةِ وَالسَّلام .

ثُمَّ رَأَتْهُ يَمِيلُ إِلَى الْعُزْلَةِ ، والانْقِطَاعِ عن النَّاسِ ، فَهَيَّأَتْ لَهُ الْهُدُوءَ وَالسَّكِينَةَ ، فَكَانَ له فى الْبَيْتِ وَحْدَهُ حُجْرَةٌ خَاصَّةٌ بهِ ، ونابَتْ عنه ، فَقَضَتْ الحاجَاتِ ، وَوَاسَتْ الْمُصَابِينَ .

وَعَاشَتْ هذه الدَّارُ الْكَبِيرَةُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ عامًا ، فى هُدُوءٍ وَسُكُونٍ ، لاَ يَتَرَدَّدُ فيها لَغْوٌ(٢) ، ولا قَوْلٌ نَافِرٌ ، ولا يُسْمَعُ فيها غيرُ التَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ ، وغيرُ نَعَمْ ، وَأَهْلًا ، وَأَصْوَاتٌ مُرْتَفِعَةٌ إلى السَّمَاءِ ، تَدْعُو لِأَهْلِهَا بِالْعِزِّ ، وَدَوَامِ النِّعْمَةِ .

وَكُلَّمَا اقْتَرَبَ محمدٌ من الأَرْبَعِينَ ، رَأَتْ خديجةُ فى وَجْهِهِ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ تَزْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وفى قَوْلِهِ دَلَائِلَ الرِّسَالَةِ ، تَنْمُو يوْمًا بعدَ يومٍ ، وَأَصْبَحَ إِذَا اسْتَيْقَظَ ، أَخْبَرَهَا بِرُؤْيَاهُ فى نَوْمِهِ ، فلا يَمْضِى يَوْمٌ أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ ، حَتَّى تَتَحَقَّقَ هذه الرُّؤْيَا كلُّهَا كما رَآهَا ، كَأَنَّهَا تُعِيدُ نَفْسَهَا حَرْفاً حَرْفاً .

---

(١) يواسى الضعفاء : يخفف عنهم .
(٢) اللغو : قول باطل .

فَتَزْدَادُ خديجةُ سُرُورًا ، وَيَزْدَادُ أَمَلُهَا فى نُبُوَّةِ زَوْجِهَا ، وَتَشْتَدُّ عِنَايَةً بِهِ ، وَتَوْفِيرًا لِرَاحَتِهِ .

كانَ يُحِسُّ أَنَّ صفاءَ نَفْسِهِ يَزْدَادُ ، وَكَانَتْ هِيَ تُحِسُّ ذَلِكَ الصَّفَاءَ وَالإِشْرَاقَ الَّذِى يَبْدُو فى قَسَمَاتِهِ ، وَتُسَرُّ كُلَّمَا رَأَتْهُ يُجَاهِدُ نَفْسَهُ وَيُحَاسِبُهَا ، وَقَدْ اخْتَارَ جبلًا من جِبَالِ مكةَ صَعْبَ الْمُرْتَقَى ، يُسَمَّى جَبَلَ حِرَاءَ، عَلَى بُعْدِ فَرْسَخَيْنِ(١) ، لِيَنْقَطِعَ فيه شهرًا كاملاً كُلَّ عام .

فإِذَا أَقْبَلَ شَهْرُ رمَضَانَ ، أَعَدَّ زَادَه القَلِيل ، من الشَّعِيرِ والْمِلْحِ وَالزَّيْتِ ، أَوْ التَّمْرِ ، وَمَا يَكْفِيهِ مِنَ الماءِ ، ثمَّ سَارَ إلى ذَلِكَ الْجَبَلِ ، وَصَعِدَ فى طَرِيقٍ وَعْرٍ(٢) إلى قِمَّتِهِ ، حَتَّى يَبْلُغَ غارًا فى تِلْكَ الْقِمَّةِ العالِيَةِ فَيَأْوِى إِليهِ ، مُنْقَطِعًا عن النَّاسِ ، يَحْيَا فيهِ زَاهِدًا(٣) ناظرًا إِلَى اللهِ ، بَعِيدًا عَنْ الدُّنْيَا وَضَوْضَائِهَا ، وَعن النَّاسِ ، وَكَذِبِهِمْ ، وَغِشِّهِم ، وَخِدَاعِهِم ، وَلَهْوِهِمْ ، وعن كُلِّ مَا يَصْرِفُ المرْءَ عن الله ، والتَّفْكِير فى صُنْعِهِ .

---

(١) الفرسخ = ثلاثة أميال ، والميل : ١٦٠٩ مترا تقريبا .
(٢) وعر : صعب .
(٣) زاهدا : بعيدا عن زخرف الدنيا .

فإِذَا انْقَضَى رَمَضَانُ ، عَادَ إِلى خَدِيجَةَ ، وقَدْ نالَ مِنهُ الْجَهْدُ[١] ، وَأَخَذَ منه التَّعَبُ ، فَيَجِدُ فى قَلْبِهَا الْحَنُونَ دِفْئًا يُذْهِبُ ما بِهِ من الأَلَم ، وَيُعِيدُهُ إِلى قُوَّتِهِ ، وَيُهَوِّنُ عليْهِ مَا وَجَدَ مِنَ الْعَنَاءِ .

تَمْسَحُ بكلماتِهَا الرَّقِيقَةِ هَمَّهُ ، وَتُزِيلُ بِبَسْمَتِهَا الصَّافِيَةِ الرَّاضِيَةِ عَنَاءَهُ ، وَتُشَجِّعُهُ علَى ما هُوَ مُنْدَفِعٌ إِلَيهِ ، وَتُهَوِّنُ هَذَا الْعَنَاءَ فى عَيْنَيْهِ .

وَتَتَمَنَّى لو أَنَّهَا كانَتْ معَه ، تنظرُ من فَوْقِ حِرَاءَ إِلى قِمَمِ الْجِبَالِ الْعَالِيَةِ ، وَمَا بَيْنَهَا من طُرُقٍ ضَيِّقَة ، وتَرَى السَّمَاءَ وَنُجُومَهَا وَصَفَاءَهَا ، وَتَتَمَتَّعُ بِالْهُدُوءِ وَالسُّكُونِ ، بَعِيدًا عن ضَوْضَاءِ مكةَ وَصَخَبِهَا[٢] ، وَتَقْضِى شَهْرًا كاملاً فى هذِه الْمُتْعَةِ الرُّوحِيَّةِ الَّتى يعيشُ فيها .

حَتَّى إذا انْقَضَى العَامُ وَاقْتَرَبَ شَهرُ رَمَضَانَ ، قَامَتْ تُعِدُّ له مَا يُرِيدُ لِذَلِكَ السَّفَرِ ، وَأَبْدَتْ لهُ من السُّرُورِ مَا يُشَجِّعُهُ ،

(١) الجهد : التعب .
(٢) صخبها : ضوضائها .

فَيَسِيرُ إلى حِرَاءَ كما سَارَ قَبْلُ ، وقد تَزَوَّدَ مِعَ زادِه كَثيرًا من كَلِمَاتِهَا اللَّطِيفَةِ ، وَحَنَانِهَا وبِرِّهَا .

وكانتْ كلَّمَا تقدَّمَتْ الأَيامُ ، ازدادَ قلبُها انْشِرَاحًا ، وَاقْتَرَبَ مِنْ نَفْسِهَا الأَمَلُ الَّذِى تَنْتَظِرُه وَتَهْوَاهُ ، وفاضَ بها السُّرورُ حِينَ تَرَى دَلَائِلَ النُّبُوَّةِ تَزْدَادُ ظُهُورًا على زَوْجِهَا ، وَتُشْرِقُ فى وَجْهِهِ ، وكلماتِه ، وَإِشَارَاتِهِ ، وَتَرْجُو اللهَ أَنْ تَعِيشَ حَتَّى تَرَى ذلكَ اليومَ الَّذِى يَأْذَنُ اللهُ لها فيهِ بِأَنْ تكونَ زَوْجَ النَّبِىِّ .

الأسئلة

(١)

ما مكانة (محمد) فى مكة قبل البعثة النبوية ؟ وما مظهر ذلك ؟

(٢)

« وغدت خديجة تنادى « محمدا » أبا القاسم ، فيطرب لهذه الكنية الجديدة ، كما أصبح الناس ينادونه بها ، فيطرب لها ، وصارت هذه الكنية فى أذن « خديجة » موسيقا عذبة النغمات » .

(ا) ما معنى « الكنية » ؟ وما أثر ما كنى به « محمد » صلى الله عليه وسلم فى نفسه ؟

(ب) « صارت هذه الكنية فى أذن « خديجة » موسيقا عذبة النغمات » اشرح .

(جـ) كان « محمد » صلى الله عليه وسلم قبل البعثة يشارك فى حل المشكلات . وضح .

(٣)

«وأصبح إذا استيقظ أخبرها برؤياه فى نومه ، فلا يمضى يوم أو بعض يوم حتى تتحقق هذه الرؤيا كلها كما رآها ، كأنها نفسها حرْفاً حرْفاً» .

(ا) علام يدل ذلك ؟

(ب) رأت «خديجة» — «محمداً» يميل إلى العزلة . فماذا صنعت وعلام يدل ذلك بالنسبة لها ؟

(ج) ماذا كان يصنع صلوات الله وسلامه عليه فى شهر رمضان قبل البعثة ؟

* * *

(١٥) ايمـــــان

أَصْبَحَتْ خديجةُ فى شُغْلٍ بِمُحَمَّدٍ ، وَمَا هُوَ مُقْدِمٌ عَلَيْهِ ، تُدَبِّرُ تجارتَهَا ومالَها ، وتُدبِّرُ له ما يُعينُه على تَصْفِيَةِ نَفْسِهِ ، وَتُؤَهِّلُ نَفْسَهَا لذلكَ اليومِ الْعَظِيم الَّذِى اقْتَرَبَ .

وكانتْ تُحَدِّثُ ابْن عَمِّهَا ورقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ بما تَرَاهُ من مُحمدٍ، فَيُبَشِّرُهَا ، وَيُؤَكِّدُ لها أَنَّ كلَّ ما تَرَاهُ منَ الدَّلاَئِلِ بَشِيرُ النُّبُوَّةِ .

فإِذَا اطْمَأَنَّ قلبُهَا إلى أَمَلِهَا ، بَدَا أَمامَهَا ما يُحَدِّثُهَا بِهِ «وَرَقَةُ» مِنَ الْجِهَادِ وَالْعَنَاءِ ، الَّذِى سيُلاقِيهِ ذلِكَ النَّبِىُّ ، فَتُحِسُّ بِقُوَّةِ نَفْسِهَا ، وَتَوَثُّبِهَا للْعَمَلِ ، وَمُلاقاة الصِّعَابِ ، وَتَتَمَنَّى لو تَمَّ هذَا الأَمْرُ ، وَشَمَّرَتْ معَ محمدٍ للنِّضَالِ[1] !

أَصْبَحَ قَلْبُهَا مُعَلَّقًا بمحَمَّدٍ ، فى الْبَيْتِ ، أَوْ فى الغارِ ، أَو بينَ سَادَةِ مكةَ .

---

(١) النضال : الكفاح .

فإذا كانَ فى الْغَارِ أَحَسَّتْ بدافعٍ يَدْفَعُهَا إليهِ ، فسارَتْ فى ذلك الطَّرِيقِ الْوَعْرِ ، وَصَعِدَتْ إلَى أَعْلَى الْجَبَلِ ، وَاطْمَأَنَّتْ عليه ، ثمَّ عَادَتْ ، فَيُحِسُّ محمدٌ منْ هذا الْقَلْبِ الرَّحِيمِ عطفًا يُعِينُه على ما هُوَ فيه .

وكانَ قدْ حَدَّثَهَا بمخَاوِفِهِ ، وَأَخْبَرَهَا أنَّه يَسْمَعُ أصْوَاتًا فى جَوْفِ الصَّحَرَاءِ ، فَيَضْطَرِبُ قلبُه حينَ تَبْلُغ أُذنيهِ ، فاشتَدَّ خوفُها علَيه فكانَتْ إذَا تَأَخَّرَ عن الْبَيْتِ قليلاً ، بَعَثَتْ بعضَ خَدَمِهَا لِيَطْمَئِنُّوا عليه ، ثم يَعودُوا لِيُطَمْئِنُوهَا .

حَتَّى كانَتْ ليلةٌ من لَيَالى رَمَضَانَ ، وَهُوَ فى غارِ حِراءَ ، وكانَ الظَّلامُ يَلُفُّ الْجِبَالَ وَالْوِهَادَ(١) بِرِدَاءٍ قَاتِمٍ(٢) ، وَالنُّجُومُ تُطِلُّ مِنْ وَسَطِهِ ، كأَنَّهَا عُيونٌ تنظرُ من عَليائِهَا إلى الأَرْضِ ، وَرُءُوسُ الْجِبَالِ قد بَدَتْ فى ضَوْءِ النُّجومِ الْخَافِتِ أَشْبَاحًا وَاقِفَةً ، ينظرُ بعضُها إلى بعضٍ ، وَاللَّيْلُ سَاكِنٌ هَادِئٌ ، لا يَقْطَعُهُ إلا زَئِيرُ الْوُحوشِ الْمُتَنَقِّلَةِ بينَ الْجِبَالِ تَتَحَسَّسُ فَرَائِسَهَا هُنا وَهُنَاكَ ، وَقَدْ اخْتَفَتْ مكةُ فى وَسَط الظَّلام ، فلا

---

(١) الوهاد : الأمكنة المنخفضة .
(٢) قاتم : شديد السواد .

يُرَى مِنْهَا سِوَى نُورٍ ضَئِيلٍ يَنْبَعِثُ مِنْ بعضِ الْمَصَابِيحِ ، كَأَنَّهُ نُجُومٌ وَقَعَتْ علَى الأَرْضِ .

ومُحمدٌ فى الغارِ علَى قِمَّةِ حِرَاء ، ينظرُ إلى السَّماءِ واللَّيْلِ ، قد أَحَسَّ بالصَّفاءِ ، وَانفتَحَ قلبُه للسَّماءِ .

وخَديجةُ فى بيتِهَا ، لم يُغْمَضْ لها جَفْنٌ ، ولم تَنْطَبِقْ لها عينٌ ، يحدِّثُها قلبُها شَتَّى[1] الأَحَادِيثِ ، ويصوِّرُ لها تلكَ الأَشْبَاحَ التى تُحيطُ بمحَمَّدٍ ، وَتِلْكَ الأَصْوَاتَ التى يَسْمَعُهَا منْ بينِ الجبالِ ، حتَّى ازْدَحَمَ الْخَوْفُ فى قَلْبِهَا ، فلم تَصْبِرْ حَتَّى يُشْرِقَ الصَّبَاحُ وَسَارَتْ مَعَ بَعْضِ خَدَمِهَا إلى الْغَارِ .

وَأَسْرَعَتْ تَتَسَلَّقُ الْجَبَلَ ، غيرَ عَابِئَةٍ بتلكَ الصُّخورِ النَّاتِئَةِ التى تَضْرِبُ قَدَمَيْهَا فَتَشُقُّهُمَا ، ولا بِأَنْفَاسِهَا الْمُتَلاحِقَةِ من شِدَّةِ الْجَهْدِ ، حَتَّى بلغتْ الغارَ ونظرَتْ فيه فلمْ تَجدْ مُحمدًا ، فارْتَدَّتْ خائفةً مُرْتَعِدَةً ، وَتَلَفَّتَتْ صَائِحَةً :

ــ أَيْنَ ذهبَ ؟ ! المكانُ كُلُّهُ خالٍ ، فَأَيْنَ هُوَ ؟ ! !

ثُمَّ أَسْرَعَتْ هَابِطَةً ، وَالْخَدَمُ يَسْبِقُونَهَا إلى الْوَادِى ،

(١) شتى الأحاديث : مختلف الأحاديث .

وَانْطَلَقُوا يَبْحَثُونَ عن مُحمَّدٍ ، وَأَسْرَعَتْ هِيَ إِلَى الْبَيْتِ عَلَّها تَجِدُهُ هُنَاكَ .

لكنَّهَا لم تَجِدْهُ فى الْبَيْتِ ، فَاشْتَدَّ بها الْقَلَقُ ، وَوَقَفَتْ حَائِرَةً ، تُفَكِّرُ فيما يَكُونُ قد حَدَثَ ، تسأَلُ نَفْسَهَا :

— أَيْنَ يكونُ قدْ ذَهَبَ ؟ ! ليسَ فى الغار ولا فى الْبَيْتِ !!

ثم أَخَذَتْ تُطَمْئِنُ نفسَها قَائِلَةً :

— قد يكونُ فى الْوادِى !

لكنَّ الْخَدَمَ أَقْبَلُوا ، تَرْتَسِمُ عَلَى وُجُوهِهِمْ دلائلُ الإِخْفَاقِ(١) والأَلم ، وَأَخْبَرُوها بِأَنَّهم لم يَتْرُكوا قِطْعَةً فى جَوَانِبِ الْوَادِى ، فلمْ يعثرُوا لَه على أَثَرٍ .

فكادَتْ الصَّرْخَةُ تَنْطَلِقُ من فمِها ، مُدَوِّيةً ، تَشُقُّ سكونَ اللَّيْلِ ، تَسْتَغِيثُ بالنَّاسِ ، لكنَّها صَرَخَتْ فى خَدَمِها ، لِيَعُودوا إِلَى الْجَبَلِ وَالسَّهْلِ ، يَبْحَثُونَ ، وَيُفَتِّشُونَ .

فانْطَلَقُوا ، وَوَقَفَتْ تَرْتَجِفُ من شِدَّةِ الْخَوْف ، وَالأَشْبَاحُ

(١) الاخفاق : عدم التوفيق .

تَتَرَاقَصُ أَمَامَ عَيْنَيْهَا ، بِمَخَالِبِهَا الْحَادَةِ ، وَأَنْيَابِهَا الْقَوِيَّةِ ، وَأَفْوَاهِهَا الْواسِعَةِ ، وَوَثْبَتِهَا الْقَاتِلَةِ ، وَيَبْدُو محمدٌ أمامَهَا يُدَافِعُ تِلكَ الأَشْبَاحَ وَيَرُدُّهَا ، فَيَفْتَرُ ثَغْرُهَا[1] حِينَ ترَى محمدًا الْقَوِيَّ الماهِرَ فى الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ ، قد هَجَمَ على تلكَ الأَشْبَاحِ فردَّهَا وأخافَهَا .

ثم يَعْبَسُ وَجهُها ، حينَ تَبْدُو لها تِلْكَ الأَشْبَاحُ كبيرةً ، يُنادى بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَتُقْبِلُ مُسْرِعَةً ، تَقْفِزُ منْ جبلٍ إلى جَبَلٍ ، وَتَتَجَمَّعُ ثمَّ تُحِيطُ بمحمدٍ وَتَخْطِفُه كما خَطِفَتْ غيرَه مِمَّنْ تَرْوِى مكةُ قِصَصَهُم وأخبارَهم .

وَهَمَّتْ أَنْ تعودَ مَرَّةً أُخْرَى إلى الغارِ ، لكنَّها أَحَسَّتْ وقعَ أَقْدَام ، ثم رَأَتْ مُحمدًا يَدْخُلُ الدَّارَ مُرْتَعِدًا ، خَائِفًا ، يصيحُ :

— زَمِّلُونِى[2] ، زَمِّلُونِى !

فأَسْرَعَتْ إليهِ ، وَعَاوَنَتْهُ حَتَّى أَبْلَغَتْهُ فِراشَه ، وقلبُهَا

---

(١) يفتر ثغرها : تبتسم .

(٢) زملونى : غطونى .

يَرْتَعِدُ ، حتى إذا بَلَغَهُ رَقَدَ فيهِ ، وغطَّتْه كما أَمَرَ ، ثمَّ وَقَفَتْ بجانِبِهِ صامِتَةً ، تنظرُ إليهِ وَتُرْهِفُ سمعَها إلى أَنْفَاسِهِ ، فَتَطْمَئِنُّ حينَ تَسْمَعُهَا تَتَرَدَّدُ فى صَدْرِهِ .

ولم تُغَادِرْ سَرِيرَه حتىَّ ذهبَ عنهُ الرَّوْعُ(١) ، وفَتحَ عَيْنَيْهِ ، فَعَاوَنَتْهُ على النُّهُوضِ ، وكشفَتْ عنه الْغِطَاءَ ، وبدَّلَتْ ملابِسَه الَّتى بَلَّلَهَا الْعَرَقُ الْغَزِيرُ ، وَجَلَسَتْ بجانِبه ، ونظرتْ إليهِ نظرةً مَمْلُوءَةً بالحنانِ ، ثم قالتْ بَاسِمَةً :

ــ أَيْنَ كُنْتَ يا أَبا القاسِم ؟ ! شَغَلْتَ قُلُوبَنَا عَلَيْكَ !

فنظرَ إلى أَعْلَى الْحُجْرَةِ ، ثمَّ قال فى خَوْفٍ :

ــ لا أَدْرِى يا خديجةُ ما سَيَكُونُ ! !

إِنِّى خائِفٌ عَلَى نَفْسِى ، فقد رَأَيْتُ عَجَبًا !

أَخافُ يا خديجةُ أَنْ أَتَحَدَّثَ بما رَأَيْتُ ، فيقول النَّاسُ إنَّ عَقْلِى قَدْ ذَهَبَ ، فقدْ رأيتُ مالا يُصَدِّقُهُ الْعَقْلُ !

فابْتَسَمَتْ خديجةُ ، ثم قالَتْ فى حَنَانٍ :

---

(١) الروع : الفزع .

ـ وكيفَ يا أبا القاسِم ؟ ! واللهِ مَا يُخْزِيكَ رَبُّكَ أَبَدًا !

وكيفَ يُخْزِيكَ ربُّكَ وأنتَ وَاصِلٌ للرَّحِمِ ، مُسَاعِدٌ للضَّعِيفِ، تَقْرِى[١] الْضَّيْفَ ، وَتُعِينُ علَى نَوَائِبِ الدَّهْرِ ، وَتَقِفُ فى جانبِ الحقِّ ، لَعَلَّكَ رأَيتَ الْخيرَ يامحمدُ !

قالَ فى اهْتِمَامٍ :

ـ كنتُ فى الغارِ أَنْظُرُ فى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، نَفْسِى مُشْرِقَةٌ ، وَقَلْبِى فَرِحٌ ، وَقَدْ طابَ لىَ النَّظَرُ ، وحَلا لىَ الْوُقُوفُ ، فرأَيْتُ جِسْمًا لَطِيفًا ليسَ مثلَ النَّاسِ ، فارْتَعَدَتْ فرائِصِى[١] ، وَاهْتَزَّ جِسْمِى ، فما عَهِدْتُ أَحَدًا يَتَسَلَّقُ هذَا الجبلَ غيرَكِ أَنْتِ .

وعَلَّقْتُ عَيْنِى بهذا الْجِسْمِ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَصِيحَ بِه، فسمعتُ صوتًا قَوِيًا ، ملكَ عَلَىَّ سَمْعِى، وهزَّ جِسْمِى، ونادَى صائِحًابى :

ـ اقْرَأْ يا مُحَمَّدُ !

---

(١) تقرى : تكرم .
(٢) فرائصى : عروق رقبتى .

قُلْتُ وَأَنَا فى يَدِ الْخَوْفِ ، كما تَتَحَرَّكُ الرِّيشَةُ الْخَفِيفَةُ فى مَهَبِّ الرِّيَاحِ الْعَاصِفَةِ :

ـ مَا أَنَا بِقَارِئٍ[1] ! .

فَصَاحَ فى قُوَّةٍ زَادَتْنِى خوفاً ، وزادَتْ جِسْمِى اهْتِزَازًا ، وَرَدَّدَ قَائِلًا :

ـ اقْرَأْ يا مُحَمَّدُ !

قلتُ فى رِعْدَةٍ شَدِيدَةٍ :

ـ مَا أَنَا بقَارِئٍ .

فَاشْتَدَّ صَوْتُه ، حتىَّ كِدْتُ أَذُوبُ منْ شِدَّتِهِ ، وَرَدَّدَ قَائِلًا :

ـ اقْرَأْ !

فلم أَجِدْ مَفَرًّا مِنْ أَنْ أُجَارِيَهُ ، فَقُلْتُ فى صَوْتٍ مُرْتَعِدٍ

ـ وَمَاذَا اقْرَأْ ؟ !

فقالَ فى صوتٍ رقيقٍ يذوبُ حَلاوةً :

---

(١) ما أنا بقارىء : لا أعرف القراءة .

ــ « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ[١] . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

فلما قَرَأْتُ مَا قالَ ، انْصَرَفَ عَنِّى وَتَرَكَنِى حَائِرًا خَائِفًا ، حَتّى[٢] اسْتَعَدْتُ قُوَّتِى ، فَأَسْرَعْتُ نَازِلاً من الْجَبَلِ مُيَمِّمًا شَطْرَ الْبَيْتِ[٣] .

قالتْ خديجةُ فى طَرَبٍ :

ــ مَا أَحْلَى هذا الكلامَ يا أَبَا الْقاسِمِ ! إنَّ لهُ لَحَلَاوَةً ، وَإِنَّ عليهِ لَطَلاوَةً[٤] !

ليسَ هذا قولَ الْبَشَرِ يا أَبَا القاسِمِ !

وعلَّقَتْ عَيْنَيْهَا بوَجْهِهِ ، وقد تَفَتَّحَتْ نَفْسُهَا وَأَشْرَقَتْ ، ثم قالَتْ فى صوتٍ رَقِيقٍ :

ــ وَأَيْنَ ذَهَبَ هذا الرَّجُلُ يا أبا القاسِمِ ! ؟

---

(١) علق : دم متجمد .
(٢) من سورة اقرأ الآيات من ١ الى ٥ .
(٣) ميمما شطر البيت : متجها ناحية البيت الحرام .
(٤) لطلاوة : لحسن .

قَالَ فى اهْتِمَام :

ـ تَجَلَّى[١] لى ياخديجةُ فى السَّمَاءِ مَرَّةً أُخْرَى ، وَسَمِعْت صوتَه يَقولُ فى قُوَّةٍ :

ـ أنا جِبْرِيلُ يا محمدُ ، وأَنْتَ نَبِىُّ اللهِ وَرَسُولُه !

فهتفتْ خديجةُ مِنْ قَلْبِهَا :

ـ تَبَارَكَ اللهُ ! تَبَارَكَ اللهُ الكبيرُ الْمُتَعَال[٢] !

ثم ضَمَّتْ مُحمَّداً إِلَى صَدْرِهَا ، وَقَبَّلَتْ رَأْسَهُ ، وَهِىَ تقولُ فى سُرُورٍ :

ـ أَبْشِرْ يا أَبَا الْقَاسِمِ ! أَبْشِرْ فأَنْتَ رسولُ الله الَّذِى بَشَّرَ به النَّاسُ ، وَارْتَقَبُوهُ[٣] طُولَ الزَّمَانِ .

ثُمَّ رَجَتْهُ أَنْ يَنَامَ ، لِيَأْخُذَ قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ بعدَ هذا الْعَنَاءِ ، وَوَقَفَتْ بجانِبِ سريره حَتَّى أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ ، ثم أَسْرَعَتْ إلى

---

(١) تجلى : ظهر .
(٢) الكبير المتعال : المرتفع الشأن .
(٣) انتظروه : ارتقبوه .

مَلابِسِهَا فَارْتَدَتْهَا وَذَهَبَتْ إلى ابْنِ عَمِّهَا وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ ، وَقَصَّتْ عليهِ الْخبرَ كُلَّهُ ، فصاحَ مُهَلِّلاً :

ـ قُدُّوسٌ(١) ! قُدُّوسٌ !

زَوْجُكِ هُوَ النَّبِيُّ ياخديجةُ ! جاءَه جِبْرِيلُ كما جاءَ الأَنبياءَ من قَبْلِهِ .

ناصِرِيْهِ ، وقِفِي بِجَانِبِهِ ، وَعَاوِنِيهِ على أداءِ رِسَالتِه .

وصَمَتَ قَلِيلاً ثم قالَ فى جِدٍّ :

ـ تَشَجَّعِى ياخَدِيجةُ ، فالطَّرِيقُ طويلٌ وَعْرٌ !

فعادَتْ مُسْرِعَةً ، لِتُبَشِّرَ محمدًا ، وتخبرَهُ بما قالَ وَرَقَةُ ، فوجدَتْهُ لم يَزَلْ نائِمًا ، فجلستْ قريبًا منه تنظرُ إليهِ فى إشْفَاقٍ(٢) .

لكِنَّهَا رَأَتْهُ يَهْتَزُّ ، وَرَأَتْ الْعَرَقَ يُبَلِّلُ جَبِينَهُ ، فَأَخَذَتْها الدَّهْشَةُ وَهَمَّتْ بإِيقَاظِهِ ، ثمَّ فَضَّلَتْ أَنْ تَصْبِرَ حتَّى يَذْهَبَ

---

(١) قدوس : اسم من أسماء الله تعالى .

(٢) اشفاق : عطف .

ما بِه ، لكنَّها رأته يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ ، وَيُرْهِفُ سَمْعَهُ وَيَظَلُّ صَامِتًا كأَنَّهُ ينظرُ إلى شَيْءٍ أَمَامَهُ ، فَلَمَّا هَدَأَ ما بِهِ أَطْرَقَ صَامِتًا ، فقالتْ فى صَوْتٍ رَقِيقٍ :

ـ أَلاَ تَأْخُذُ قِسْطَكَ من الرَّاحَةِ يا أَبا القاسِمِ ؟ !

قالَ فى إشْفَاقٍ :

ـ انْقَضَى عَهْدُ الرَّاحَةِ ياخديجةُ ! فقدْ أَمَرَنِى جِبْرِيلُ بِالْعَمَلِ وَالْجِدِّ لإِنْقَاذِ النَّاسِ مِمَّا هُمْ فيهِ من الضَّلالِ .

وصمتَ قليلاً ، ثمَّ قال فى صَوتٍ رَقِيقٍ :

ـ أَتَسْمَعِينَ كلامَ الله يا خَدِيجةُ ؟

فازْدَادَ بها السُّرورُ ، وَأَرْهَفَتْ أُذُنَيْهَا ، وَهُوَ يَتْلُو عليها ما نَزَلَ عليهِ فى هذهِ السَّاعَةِ ويَقُولُ فى تَأَثُّرٍ :

« يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ(١) قُمْ فَأَنْذِرْ(٢) ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ

(*) سورة المدثر : الآيات من ١ الى ٧ .
(١) المستدفىء فى ثيابه وغطائه .
(٢) انذر قومك بعذاب يهلك الكافرين .

فَطَهِّرْ ، والرُّجْزَ فاهْجُرْ(١) ، وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ(٢) ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ »(٣) .

فاهْتَزَّتْ خديجةُ طَرَباً لآياتِ اللهِ ، وَأَحَسَّتْ فى نفسِهَا قوةً وَاسْتِعْدَادًا للجهادِ فى سبيلِ اللهِ ، وَأَخَذَتْ تُبَشِّرُ الرَّسُولَ بالْخَيْرِ ، وَتُهَنِّئُهُ بفضلِ اللهِ ، وَهُوَ يقولُ فى اهْتِمَامٍ :

ـ سَأَقومُ بأَمرِ اللهِ ياخديجةُ ، سَأُنْذِرُ عِبادَ اللهِ ، وَأَدْعُو إلَى اللهِ الْحَقِّ ، وإلَى صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيم .

وَصَمَتَ قَلِيلاً ثمَّ قالَ فى أَلَمٍ :

ـ ولكنْ كَيْفَ يَتْرُكُ قَوْمِى ما هُم عليهِ من ضَلَالٍ ؟ ! وكيفَ يُقْلِعُونَ(٤) عَمَّا نَشَئُوا فيهِ من الْظُّلْمِ وَالْفَسَادِ ؟!

إنَّهُم سَيُقَاوِمُونَ يا خَديجةُ ، ولا أَدْرِى أَيْنَ يَنْتَهِى بنا ذَلِكَ الْجِهَادُ !

---

(١) الرجز هو العذاب : والمعنى اهجر الأعمال التى تؤدى الى عذاب ربك .
(٢) تمنن : تعط ، تستكثر : تطلب اكثر مما أعطيت ، والمعنى: لا تهب شيئا وانت طامع فى عوض اكثر .
(٣) اصبر لأوامر ربك : وأدها وانت صابر .
(٤) يقلعون : يتركون .

قالتْ خَدِيجةُ مُهْتَزَّةً لحلاوَة كلام الله ، وَمُرَدِّدَةً لَهُ :

ـ «وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ» .

«قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ».

اصبرْ يا محمدُ كما أَمَرَكَ رَبُّكَ ، فما أَشَقَّ انْتِزَاعَ الْبَاطِلِ من الصُّدُورِ الَّتِى شَاخَتْ[1] عَلَيْهِ ، وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَنْ يَنْسَاكَ ، وَهُوَ مَعَكَ يُعِينُكَ وَيُقَوِّيكَ ، وكيفَ يَتْرُكُكَ وقدْ أَرْسَلَكَ تَهْدِى إليهِ وإلَى طريقهِ الْمُسْتَقِيم ؟ !

ثُمَّ ارْتَفَعَ صوتُها فى فَرَحٍ :

ـ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِكَ !

أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ وَنَبِيُّه .

وقد وَهَبْتُ نَفْسِى وَمَالِى للهِ ، وَللجِهَادِ فى سَبِيلِ الله .

فَأَشْرَقَ السُّرُورُ فى وَجْهِ الرَّسُولِ ، ثُمَّ هدأَ البيتُ ، وكانتْ خُيُوطُ الْفَجْرِ قدْ أَخَذَتْ تَمْتَدُّ فى وَجْهِ السَّماءِ .

(١) شاخت : كبرت .

الأسئلة

(١)

كانت السيدة خديجة (رضى الله عنها) مهتمة «بمحمد» فى البيت أو فى الغار ، أو بين سادة مكة .

فما مظهر هذا الاهتمام ؟

(٢)

«كنت فى الغار أنظر فى ملكوت السموات والأرض ، نفسى مشرقة ، وقلبى فرح ... فرأيت جسما لطيفاً ليس مثل الناس ، ... وعلقت عينى بهذا الجسم ، وهممت أن أصيح به ، فسمعت صوتاً قوياً ملك على سمعى ، وهز جسمى ، ونادى صائحاً بى : «اقرأ يا محمد» .

(ا) ماذا كان رد محمد على هذا الأمر ؟

(ب) وماذا كان موقفه من الرد ؟

(جـ) ما الذى أمره بقراءته فى المرة الثالثة ؟ وماذا حدث بعد ذلك :

(د) ما موقف «خديجة» مما سمعت ؟

(٣)

كانت السيدة «خديجة» المعين الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين رجع من الغار مرتجفا .

(ا) فماذا صنعت ؟

(ب) ماذا قال «ورقة» لخديجة حين ذهبت تستفسر منه عما حدث ؟

(جـ) اكتب ما نزل من القرآن بعد اقرأ . . وبين دلالته ؟

(١٦) حديث مكة

أَشْرَقَ الصَّبَاحُ ، فَاسْتَيْقَظَتْ خديجةُ مُبَكِّرَةً يَدُبُّ(١) فى أَوْصَالِهَا نَشَاطٌ وَقُوَّةٌ ، كأَنَّهَا لم تَقْطَعْ لَيلَتَهَا سَاهِرَةً ، وَاسْتَيْقَظَ الرَّسُولُ مبكرًا ، ثمَّ خَرَجَ إلى الْكَعْبَةِ فطافَ بها .

وكانَ ورقةُ بْنُ نوفلٍ قد أقبلَ إلى الْكَعْبَةِ مُبَكِّرًا ، فَاشْتَدَّ سُرورُه حينَ قابلَ الرَّسولَ ، وصاحَ به يُهَنِّئُهُ ، ويُوصِيه بالثَّبَاتِ ، وَالْمُضِيِّ فى طَرِيقِهِ ، ثمَّ جَلَسَ إليهِ يُحَدِّثُهُ بما سَيُلاقِيه من قَوْمِه ، منَ التَّكْذِيبِ والاضْطِهَادِ ، وَأَدْنَى(٢) رَأْسَهُ مِنْه وَقَبَّلَ هَامَتَهُ .

وكانَ الْقُرَشِيُّونَ قَدْ أَقْبَلُوا يَطُوفُونَ ، فَسَمِعَ بعضُهم حَدِيثَ ورَقَة ، فلمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلُوا عَلَى مُحمَّدٍ يَسْأَلُونَهُ عمَّا بهِ ، وعَمَّا يقولُ وَرَقَةُ ، فنظرَ الرسولُ إليهم ، ثم قالَ فى جِدٍّ :

---

(١) يدب : يسير .
(٢) أدنى : قرب .

ـ أُوحِيَ إِلَيَّ اللَّيْلَةَ !

فَالْتَفَتَ الْقُرَشِيُّونَ بَعْضُهُم إلى بَعْضٍ ، ثم قال واحِدٌ منهم فى دَهْشَةٍ :

ـ مَنْ الَّذِى أَوْحَى إليكَ يامُحَمَّدُ ؟

فأَجَابَ الرَّسولُ فى قُوَّةٍ :

ـ أَوْحَى إِلَيَّ اللهُ الَّذى خَلَقَنِى وَخَلَقَكُمْ ، وخَلَقَ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ ، وَالرَّمْلَ وَالْحَجَرَ ، وَالماءَ وَالشَّجَرَ .

فصاحَ آخرُ باسِمًا :

ـ وبماذَا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ ؟ !

قالَ الرَّسُولُ فى جِدٍّ :

ـ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ أَهْدِيَ إِلَيْهِ ، وَأُرْشِدَ النَّاسَ إلى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَأَرُدَّهُمْ عَمَّا هُم فيهِ مِنْ ضَلالٍ وَفَسَادٍ .

أَلَسْتَ تَرَى هذِه الْحياةَ الْفَاسِدَةَ ، ومَا يَجِبُ لها مِنْ تَغْيِير ؟!

فَقَهْقَهَ وَاحِدٌ مِنْهُم ، ثمَّ اعْتَدَلَ وقالَ سَاخِرًا :

ـ فَهِمْنَا ! عَرَفْنَا !

تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ ذَلِكَ النَّبِيَّ الَّذِي يَتَحَدَّثُ النَّاسُ عنه !

سَبَقَكَ غَيْرُكَ يا مُحَمَّدُ ! ادَّعَوْا مَا تَدَّعِي ، فَلَمْ يَجْنُوا غَيْرَ السُّخْرِيَةِ وَالأَذَى ، ولَمْ يَسْتَطِيعُوا المُضِيَّ فيما أَرَادُوا .

فَأَوْلَى لَكَ أَنْ تَثُوبَ(١) إلى رُشْدِكَ مِنَ الْيَوْمِ ، وَإِلَّا فَسَتَمْضِي فِي طَرِيقٍ شَائِكٍ(٢) ، يُؤْذِيكَ ، وَيُضِلُّكَ كما أَضَلَّ غَيْرَكَ !

وكَانَتْ خَدِيجةُ قَدْ جَمَعَتْ جَوَارِيَهَا وَصَاحِبَاتِهَا ، وَبَشَّرَتْهُنَّ بِنُبُوَّةِ زَوْجِهَا ، وَإِرْسَالِ الْوَحْيِ إِلَيهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، فاسْتَمَعْنَ إِلَيْهَا دَهِشَاتٍ مِمَّا قَصَّتْ عَلَيْهِن مِن أَمْرِ الرَّسُولِ ، ثُمَّ انْصَرَفْنَ يُخْبِرْنَ أَزْوَاجَهُنَّ بما تَقولُ خَدِيجةُ .

فَلَمْ يَمْضِ غَيْرُ قَلِيلٍ حتَّى اسْتَفَاضَ(٣) الْخَبَرُ ، وملأَ بُيُوتَ مَكَّةَ ، فقابَلَهُ الْكَثِيرُونَ بِالسُّخْرِيَةِ وَالاسْتِهْزَاءِ

لَكِنَّهُم عادُوا إلى أَنْفُسِهِم ، يَتَسَاءَلُونَ فِي دَهْشَةٍ :

---

(١) تثوب : ترجع .
(٢) شائك : صعب .
(٣) استفاض : انتشر .

ـ لماذا صَنَعَ مُحمَّدٌ هذا الَّذِى شَاعَ ؟

لَمْ نُجَرِّبْ عليهِ كَذِبًا ، ولم يَسْمَعْ عنه أَحَدٌ غيرَ الصِّدْقِ وَالأَمَانَةِ !

وما بالُ خَدِيجةَ ؟ !

لم نُجَرِّبْ علَيها غَيْرَ الْعَقْلِ وَالرَّزَانَةِ[1] ، فما بالُها تقولُ هذا الْقَوْلَ ؟ !

ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ يَتَّهِمُونَ خَدِيجَةَ بِجُنُونٍ اعْتَرَاهَا[2] ، وَأَخْرَجَهَا عَنْ عَقْلِهَا الثَّابِتِ ، لكِنَّهم أَخذوا يَتَسَاءَلُونَ :

ـ وَهَلْ يَتَّفِقُ أَنْ يَعْتَرِيَهَا الْجُنُونُ ، هِيَ وَزَوْجُهَا فى لَيْلَة وَاحِدَةٍ ؟ !

ثم امْتَلأَتْ دَارُ خَدِيجةَ بكَثِيرٍ مِنَ النِّسَاءِ ، يَسْأَلْنَ عَنْ هَذَا الْخَبَرِ الَّذِى ذاعَ ، وَأَخذَتْ خَدِيجةُ تُخْبِرُهُنَّ بقِصَّتِهِ ، وَتُؤَكِّدُ لَهُنَّ صِحَّتَهُ ، وَتَقْرَأُ عليهنَّ من كلام اللهِ الَّذِى نَزَّلَ

---

(١) الرزانة : الوقار .
(٢) اعتراها : أصابها .

علَى رَسُولِهِ ، وَهُنَّ يُدَقِّقْنَ النَّظَرَ إِلَيها ، وَيَفْحَصْنَ وَجْهَهَا ، لِيَعْرِفْنَ شَيْئًا مِنْ آثَار ذَلِكَ الْجُنُونِ الَّذِى اعْتَرَاها مُنْذُ الْمَسَاءِ !

لكِنَّهُنَّ لَمْ يَرَيْنَ أَثَرًا لِجُنُونٍ ، ولم يَجدْنَ خَدِيجةَ إِلاَّ كما عَهِدْنَ : حُلْوَةَ الْحَدِيثِ ، دَقِيقَةَ الْحُكْمِ ، رَاجِحَةَ الْعَقْل ، فَانْصَرَفْنَ فى حَيْرَةٍ ، يُخْبِرْنَ أَزْوَاجَهُنَّ بما رَأَيْنَ وَسَمِعْنَ .

ثُمَّ أَخَذْنَ يَتَرَدَّدْنَ علَى خَدِيجةَ كُلَّ يَوْمٍ ، يَسْأَلْنَ عَمَّا نَزَلَ من السَّمَاءِ ، وكانَ الْوَحْىُ قدْ انْقَطَعَ ، وَحَارَ الرَّسُولُ فى أَمْرِهِ ، وَوَقَفَتْ خَدِيجةُ مِنْ أُولئِكَ النِّسَاءِ فى حَيْرَةٍ شَدِيدَةٍ ، فَبِمَاذَا تُجِيبُ ، وَقَدْ انْقَطَعَ الْوَحْىُ ؟ !

وَاشْتَدَّ بِها الْحُزْنُ مَخَافَةَ أَنْ يكونَ اللهُ قَدْ تَخَلَّى[1] عنْ نَبِيِّهِ ، فَيَفُوتُهَا ذَلِكَ الشَّرَفُ الَّذِى أَعَدَّتْ نَفْسَهَا ومَالَهَا لَهُ .

وزادَ حُزْنَهَا مارَأَتْ علَى رَسُولِ اللهِ منَ الْهَمِّ وَالْقَلَقِ ، وَأَخَذَتْ تُوَاسِيهِ وَتُطْمِعُه فى فَضْلِ اللهِ ، وَتُؤَكِّدُ لَهُ قُرْبَ عَوْدَةِ الْوَحْيِ بِآيَاتِ اللهِ .

---

(١) تخلى : ترك .

لكِنَّ الْوَحْىَ لم يَعُدْ ، فاشْتَدَّ بالرَّسُولِ الْقَلقُ وَالْحُزْنُ ، فَوَقَفَتْ خَدِيجَةُ بجَانِبِهِ ، تُشَجِّعُهُ وَتُقَوِّى فُؤَادَهُ ، وتَقولُ له كُلَّمَا فاضَ[١] به الْهَمُّ :

ــ لا تَحْزَنْ يا رسولَ اللهِ ، فما شِدَّةٌ إلاَّ وتَزُولُ ، وما ضِيقٌ إلاَّ وبَعْدَهُ الْفَرَجُ ، وَللهِ فِيما يَصْنَعُ إرَادَةٌ !

ثُمَّ تَتَوَسَّلُ إلَى اللهِ أَنْ يَرْحَمَ نَبِيَّهُ ، وَيُزِيلَ عنْه ما أَهَمَّه ، وَالرَّسُولُ شَارِدُ الْفِكْرِ ضَائِقٌ بما حَلَّ به .

وَبَيْنَمَا هِىَ تَنْظُرُ إليهِ ، وَتُلْقِى على سَمْعِه عِبَارَاتِ التَّشْجِيعِ ، رَأَتْهُ يَنْتَفِضُ وَالْعَرَقُ يَتَصَبَّبُ مِنْ جَبِينِهِ ، فَاهْتَزَّ جِسْمُهَا إشْفَاقًا وَأَمَلاً ، حتىَّ هَدَأَ ، فقالتْ فى رِفْقٍ :

ــ مَا تَرَكَكَ رَبُّكَ يا أَبا القاسِمِ وما تَخَلَّى عَنْكَ !

فَابْتَسَمَ الرَّسُولُ ابْتِسَامَةَ الرِّضَا ، ثُمَّ تَلا علَى سَمْعِهَا بصَوْتِهِ اللَّطِيفِ مَا نَزَلَ به الْوَحْىُ ، رَافِعًا صَوْتَهُ :

---

(١) فاض : زاد .

— «وَالضُّحَى(١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى(٢) ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَا(٣) ، وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى(٤) ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ(٥) رَبُّكَ فَتَرْضَى ، أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى(٦) ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ، وَوَجَدَكَ عَائِلًا(٧) فَأَغْنَى ، فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ(٨) ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ(٩) ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ» .

(سورة الضحى : ١ — ١١)

فَغَمَرَتْ قَلْبَ خَدِيجَةَ الْفَرْحَةُ وَالرِّضَا ، وزادَ سُرورَهَا مَارَأَتْ فِي وَجْهِ الرَّسُولِ منَ الْغِبْطَةِ ، وَمَا شَاهَدتْ فى قَسَمَاتِهِ مِنَ الرِّضَا والاطْمِئْنَان .

ثُمَّ أَخَذَتْ تُفَكِّرُ فى هَذِهِ الآيَاتِ الْجَدِيدَةِ .

---

(١) وقت ارتفاع الشمس .

(٢) سكن وهدأ . يقسم الله بالضحى وبالليل الهادىء من آياته العظيمة .

(٣) قطعك وتركك .

(٤) الدنيا .

(٥) يعطيك الكمالات وظهور أمرك وانتشاره .

(٦) جعل لك مأوى .

(٧) فقيرا .

(٨) لا تغلبه على ماله .

(٩) تزجر .

إِنَّهَا أَوَامِرُ اللهِ وَتَعَالِيمُهُ .

يَدْعُو إِلَى الآخِرَةِ وَالْعَمَلِ لَهَا ، لأَنَّ الآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى مِن الأُولَى ، وَيُذَكِّرُ الرَّسُولَ بِنِعَمِهِ عَلَيْهِ ، وَيَدْعُوه إِلَى التَّشْمِيرِ وَالْجِدِّ ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ طَاهِرًا مُطَهَّرًا ، ويُوصِي بالْيَتِيمِ وَالْمِسْكِينِ .

ثم ابْتَسَمَتْ ابْتِسَامَةً لَطِيفَةً ، وَهِيَ تُفَكِّرُ فى آيَاتِ اللهِ ، فَسُرَّ الرَّسُولُ لِسُرُورِهَا ، ونظرَ إِلَيها ، وقالَ فى حَنَانٍ :

ـ حَفِظَ اللهُ لكِ جميلَكِ يا خَدِيجَةُ ، مِنْهُ الْفَضْلُ وَإِلَيْهِ ، لٰكِنَّهُ سَخَّرَكِ لِي ، فَأَغْنَانِي بمالِكِ وَنَفسِكِ وَرُوحِك ، وَذَكَّرَنِى السَّاعَةَ بِذَلِكَ الْفَضْلِ ، أَما سَمِعْتِ يا خَدِيجَةُ ؟ !

فأَسْرَعَتْ خَدِيجَةُ ، وَالدُّمُوعُ تَتَرَقْرَقُ[1] فى عَيْنَيْهَا :

ـ لله وَلِرَسُولِهِ نَفْسِي وَمَالِي وَجُهْدِي !

فانْهَضْ يَارَسُولَ اللهِ بما أَمَرَكَ اللهُ ، وَأَنَا مَعَكَ واللهُ مَعَكَ .

---

(١) تترقرق : تتحرك .

الأسئلة

(١)

ماذا فعل — صلى الله عليه وسلم — بعد أن أُمِرَ بإنذار عشيرته ؟ وما موقف «ورقة بن نوفل من ذلك» ؟

(٢)

دار حوار بين بعض القرشيين الذين سمعوا حديث «ورقة بن نوفل» وبين «محمد» صلى الله عليه وسلم . فما ملخصه ؟

(٣)

ما بال خديجة ؟ ! . لم نجرب عليها غير العقل والرزانة ، فما بالها تقول هذا القول ؟ !

(ا) ما الذى أثار استغراب القرشيين من شأن «خديجة»؟

(ب) وما موقفهم من تصرفها ؟ ولماذا ؟

(ج) وما أثر ذلك بالنسبة لنساء قريش ؟

(٣)

«غمرت قلب خديجة الفرحة والرضا ، وزاد سرورها ما رأت فى وجه الرسول من الغبطة ، وما شاهدت فى قسماته من الرضا والاطمئنان» .

(ا) متى حدث ذلك ؟

(ب) وماذا كان بعد هذا السرور والرضا ؟

(ج) كيف كان حال الرسول صلى الله عليه وسلم ، و «خديجة» قبل نزول سورة «والضحى» ؟ ولماذا !؟

* * *

(١٧) أم المؤمنين

تَوَالَى[١] نُزُولُ الآيَاتِ علَى رَسُولِ اللهِ ، وَخَدِيجَةُ تَسْمَعُهَا فَتُذِيعُهَا بين مَنْ يَوَدُّهَا منَ النِّسْوَةِ .

وَتَوَالَتْ تَعَالِيمُ اللهِ لِنَبِيِّهِ ، فكانَتْ خَدِيجَةُ أَوَّلَ مَنْ يَتَلَقَّاهَا وَيَعْمَلُ بِهَا .

صَلَّتْ معَه أَوَّلَ منْ صَلَّى ، وَتَعَلَّمَتْ الْوُضُوءَ أَوَّلَ منْ تَعَلَّمَ ، وَخَرَجَتْ مَعَهُ إلى الْكَعْبَةِ تُصَلِّى خَلْفَهُ غَيْرَ عَابِئَةٍ بِالسُّخْرِيَةِ التى تَنْبَعِثُ حَوْلَهُمَا مِنْ كُلِّ مكانٍ .

وبدأتْ تعالِيمُ الرَّسُولِ تَنْتَشِرُ بَيْنَ ذَوِى الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ ، والْقُلُوبِ الْخَيِّرَةِ وَالنُّفوسِ الصَّافِيَةِ .

آمنَ بها بَعْضُ كُبَرَاءِ مكةَ ، وكَثِيرٌ مِنْ ضُعَفَائِهَا لأَنَّهُمْ وَجَدُوا فى هذا الدِّينِ الْجَدِيدِ مُنْقِذًا مِمَّا يُلاقُونَ من الذُّلِّ ، وَالاسْتِعْبَادِ .

---

(١) توالى : تتابع .

وجَدُوه يَنْهَى عنِ الْفَسَادِ ، وَيُسَاوِى بينَ النَّاسِ ، وَيَـ
الْقُوَى الْمُتَفَرِّقَةَ فى وَحْدَةٍ وَاحِدَةٍ ، تَعْمَلُ لِلْخَيْرِ فى جَـ
اللهِ .

وكانَ بَيْتُ النَّبِيِّ أَوَّلَ مَنْ اسْتَجَابَ لِدَعْوَتِهِ ، فَآمَنَ
بناتُهُ كُلُّهن ، لَكِنَّ إِيمانَهُنَّ خَلَقَ لخديجةَ مُشْكِلَةً جَدِيـ
وَأَضَافَ إِلَى مَتَاعِبِهَا مَتَاعِبَ أُخْرَى .

فَقَدْ أَسْلَمَتْ بناتُهَا الْمُتَزَوِّجَاتُ ولم يُسْلِمْ أَزْوَاجُهُنَّ ،
بَدَأَ رُؤَسَاءُ مكةَ يَرْتَابُونَ[1] فى هَذَا الدِّينِ الْجَدِيدِ وَيَخَـ
قُوَّتَهُ ، وَتَنَبَّهُوا إِلَى كَثْرَةِ مَنْ يَعْتَنِقُونَهُ[2] يومًا بعدَ يو
فَأَخَذُوا يَكِيدُونَ[3] لِمَنْ يَدْخُلُونَ فى هَذَا الدِّينِ الْجَدِيدِ .

إِذَا كانُوا عبيدًا أَوْ ضُعَفَاءَ ، عَذَّبُوهم وَأَذَلُّوهُم ، لِيُخْرِجُو
من دينهم الجَدِيد ويَرُدُّوهم إلى دينِهم الْقَدِيمِ .

وَإِنْ كَانُوا زَوْجَاتٍ سَعَّرُوا[4] النَّارَ بَيْنَهُنَّ وبينَ أَزْوَاجِهِنَّ
وآلِ أَزْوَاجِهِنَّ .

---

(١) يرتابون : يشكون .
(٢) يعتنقونه : يؤمنون به .
(٣) يكيدون : يُدبرون الأذى .
(٤) سعروا : أشعلوا .

فَكَيْفَ تَحُلُّ خديجةُ مُشكِلَةَ بناتِهَا ، وَتُوَفِّقُ بَيْنَهُن وبينَ أَزوَاجِهِنَّ وَآلِ(١) أَزوَاجِهِنَّ ؟ !

وكيفَ تحلُّ مُشكِلَةَ الْمُضْطَهَدِينَ ، الَّذِينَ يَفِرُّونَ بِدِينِهِم مِن قَسْوَةِ الْكُفَّارِ وَظُلمِهِمْ ؟ !

كانَ عليها أن تَمُدَّ هؤُلاءِ الضُّعَفَاءَ بمالِها ، بَعْدَمَا طَرَدَهُم الْكُفَّارُ وَحَرَمُوهم الْعَمَلَ .

وكانَ عَلَيْهَا أَن تَحْتَالَ بمالِهَا لِتَعْتِقَ الْعَبِيدَ الَّذِينَ يَتَعَرَّضُونَ لأَقسَى أَلْوَانِ الأَذَى صَبَاحًا وَمَسَاءً ، لأَنَّهُم نَبَذُوا(٢) الأَصْنَامَ وَقَالُوا رَبُّنَا اللهُ .

عَلَيْهَا أَن تُوَاسِىَ الْمَظلُومَ ، وَتُطعِمَ الْجَائِعَ ، أَكثَرَ مِمَّا كانَت تُوَاسِى وَتُطعِمُ ، وقدْ غَدَت دارُها مَلجَأً الْخَائِفِ وَالْمَكرُوبِ(٣) فيها طعَامُ الْجَائِعِ وَمَأْوَى الطَّرِيدِ(٤) .

---

(١) وآل : أهل .
(٢) نبذوا : تركوا .
(٣) المكروب : الذى نزل به البلاء والغم .
(٤) ومأوى الطريد : مقر المطرود .

كانَت مُفَتَّحَةَ الْقَلبِ لهذَا الْجِهَادِ ، وَكُلَّمَا اشتَدَّ زادَت فَرْحَتُهَا وَسُرُورُهَا ، لكِنَّ شَيْئًا وَاحِدًا كانَ يَتَرَدَّدُ فى صَدْرِهَا ، فَتَتَوَجَّهُ إلَى اللهِ تَسْأَلُهُ أَن يُحَقِّقَهُ .

وَجَدَتْ نَفسَهَا تَقتَرِبُ منَ السِّنِّ الَّتى لا تَلِدُ فيها الْمَرْأَةُ ، فَتَنظُرُ إلَى بناتِهَا وَتَتَمَنَّى لَوْ رُزِقْنَ أَخًا ! وَتَنظُرُ إلَى زَوْجِهَا فَتَتَمَنَّى لَوْ رُزِقَ ابْنًا يَضَعُ فيه أَملَه !

فَظَلَّتْ تَدْعُو اللهَ وَتَتَوَسَّلُ(١) إِلَيْه ، وَتَرْجُوه أَن يُتِمَّ علَيها هذه النِّعْمَةَ ، كما أَتَمَّ علَيها نعْمَةَ الإِسْلام .

وما أَكثَرَ ما كَانَت فَرْحَتُهَا حينَ اكتَمَلَ حَمْلُهَا ! وكَمْ كان رَجَاؤُها من اللهِ أَن يَكون وَلدًا ! وكم كان سُرُورُها حين جَاءَ وَلدٌ !!

كان الرَّسُولُ بجَانِبِها حين وَضعَت ، فلمَّا عَرَفت أَنَّهُ ذكرٌ ، نظرَت بعَيْنَيْنِ مَمْلُوءَتيْن بالْعَطف وَالْحَنان ، ثم قالت فى صَوْتٍ رَقيقٍ :

— بماذا نُسَمِّيه يا أَبَا الْقاسِمِ ؟

---

(١) تتوسل إليه : ترجوه .

ولمْ تتمَالك دُمُوعَها فانهمَرَت على خدَّيْها ، فمدّت يدَها تُجَفِّفُها ، وَالرَّسُولُ يقولُ فى حَنانٍ :

ـ عَبْدُ اللهِ يا خديجَةُ ، نُسَمِّيه عبدَ اللهِ .

عبدُ اللهِ بْنُ مُحمَّدِ بْن عَبْدِ اللهِ ، إِنَّهُ الطَّاهِرُ ، إِنَّهُ الطَّيِّبُ ، قَدْ وُلِدَ فى الإِسْلاَمِ ، فَفَاقَ مَن وُلِدَ فى الْجَاهِلِيَّةِ(٢) .

وَاهتَزَّت الدَّارُ فَرَحًا لخَدِيجَةَ ، وَأَقبَلَ الأَحِبَّاءُ يُهَنِّئُونَ ، وَوَهَبَت خديجةُ للفُقَرَاءِ ، وَبَذَلَتْ للمُحْتَاجِينَ ، وَاضعَةً كُلَّ أَمَلِها فى عَبْدِ اللهِ .

لكنَّ اللهَ يُريدُ ولا رَادَّ لقَضَائه ، لحكْمَةٍ يَعْلَمُهَا وَتَصْرِيفٍ أَحْكَمَهُ ، اخْتَارَ عَبْدَ اللهِ لجوَارِه بعدَ قليلٍ ، فَارْتَجَّتْ الدَّارُ ، وَوَجَمَ بَنَاتُهَا ، وَبَكَتْ خَديجةُ ، وَأَقْبَلَ الرَّسُولُ عَلَيْهَا يُغَالبُ حُزْنَهُ ، يُوَاسيْها وَيَقُولُ لها بِصَوْتِهِ الرَّقِيقِ :

ـ أَرَادَ اللهُ بكِ الْخَيْرَ يَا خَدِيجةُ ، لَمْ يُرِدْكِ أَنْ تَكُونِى أُمًّا لِوَاحِدٍ مِنْ خَلْقِهِ فَحَسْبُ ، ولمْ يَشَأْ لَكِ أَنْ تَكُونِى أُمَّ

---

(١) الجاهلية : ما قبل الاسلام .

القاسِمِ أَوْ عَبْدِ اللهِ ، بلْ اخْتَارَ لَكِ أَنْ تكُونِى أُمًّا للمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا .

أَلا يَسُرُّكِ هذا اللَّقَبُ يا خَدِيجةُ ؟ !

لكِنَّ دَمْعَتَيْنِ تَحَدَّرَتَا علَى خَدَّيْها ، فَمَسَحَهُمَا رسولُ اللهِ بِيدِه الشَّرِيفَةِ ، وَهُوَ يقولُ فى رِفْقٍ :

ـ الآخِرَةُ يا خَدِيجةُ ! الآخِرَةُ خَيْرٌ منَ الأُوْلَى !

ثم قَرَأَ قولَه تعالَى : «وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى» .

فَرَطَّبَتْ الآيَةُ قَلْبَ خدِيجةَ ، وَرَضِيَتْ بِقَضَاءِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَالرَّسُولُ يقولُ فى حَنانٍ :

ـ نَحْنُ عَارِيَةٌ مُسْتَرَدَّةٌ ياخَدِيجَةُ ، فى أَيَّةِ لَحْظَةٍ نَعُودُ ! فَهُبِّى لِلْجِهَادِ كما وَعَدْتِ رَبَّكِ ، وَالطَّرِيقُ طَوِيلٌ ، وَالسَّيْرُ شَاقٌّ !

الأسئلة

(١)

«بدأ رؤساءُ مكة يرتابون فى هذا الدين الجديد ، ويخافون قوته ، وتنبهوا إلى كثرة من يعتنقونه يومًا بعد يوم ، فأخذوا يكيدون لمن يدخلون فى هذا الدين الجديد» .

(أ) ما معنى : «يرتابون – يعتنقونه» ؟

(ب) ماموقف رؤساء مكة من الدين الجديد ؟ بم تعلل ذلك .

(جـ) ما موقف السيدة (خديجة) رضى الله عنها من تصرفات رؤساء مكة ؟

(٢)

«أراد الله بك الخير يا خديجة ، لم يردك أن تكونى أما لواحد من خلقه فحسب ، ولم يشأ لك أن تكونى أُم القاسم أو عبد الله ، بل اختار لك أن تكونى أمّا للمؤمنين جميعا» .

(أ) ما المناسبة التى ورد فيها ذلك القول الكريم ؟

(ب) ما أثر ذلك فى نفس السيدة (خديجة) رضى الله عنها

* * *

(١٨) المعـــركة

كانَ رُؤَسَاءُ مَكَّةَ يَنْظُرُونَ إلَى دَعْوَةِ الرَّسُولِ فى أَوَّلِ أَمْرِهَا ، كما نَظَرُوا إلَى دَعْوَةِ مَنْ سَبَقَهُ منَ الْحُكَمَاءِ ، وَإنْ كَانُوا يَسْخَرُونَ من أَتْبَاعِهِ ، وَيَتَسَلَّوْنَ بِمُدَاعَبَتِهِمْ أَوْ تَقْرِيعِهِمْ(١) حينَ يَرَوْنَهم ، أَوْ يَتَعَامَلُونَ مَعَهُم .

ولمْ يَكُنْ الرَّسُولُ قد وَجَّهَ الدَّعْوَةَ إلَى هَؤُلَاءِ الرُّؤَسَاءِ عَلَنًا ، بلْ كانَ يَدْعُو إلَى اللهِ فى الْخَفَاءِ ، وَيُحَدِّثُ برِسَالَتِهِ مَنْ يَتَوَسَّمُ(٢) فِيهِم الْخَيْرَ ، فَيَدْخُلُونَ فى دِينِهِ ، وَيَزِيدُونَ يوماً بَعْدَ يوم ، ودارُ خَدِيجَةَ تَسْتَقْبِلُ مَنْ يَفِدُونَ علَيها من هَؤُلَاءِ المسلمين ، وهِىَ تُرَحِّبُ بِهِم ، وَتَمْنَحُهُمْ الْكَثِيرَ مِنْ عَطْفِهَا وَبِرِّهَا .

واسْتَمَرَّتْ هذهِ الدَّعْوَةُ فى الْخَفَاءِ ثَلاثَ سَنَوَات ، يَفِرُّ فيها

---

(١) تقريعهم : توبيخهم بالكلام الشديد .
(٢) يتوسم : يتوقع ويرجو .

الْمُسْلِمُونَ بِصَلَاتِهِم إلى شِعَابِ(١) مكةَ ، وَيَخْتَمُونَ سِرًّا فى دَارِ أَحَدِهِم ، وَيَتَحَدَّثُ بعضهم إِلَى بَعْضٍ فى هَمْسٍ ، وَيَبْتَعِدُونَ عنْ أَعْيُنِ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ ما اسْتَطَاعُوا إلى ذَلِكَ سَبِيلًا .

وَذَاتَ يوم دخَلَ الرَّسُولُ علَى خديجةَ قَلِقًا ، فأَحَسَّتْ بما فى نَفْسِهِ ، وَدَنَتْ منه باسمةً ، ثمَّ سَأَلَتْهُ فى رِفْقٍ :

ـ خَيْرًا يَارَسُولَ اللهِ !

قالَ فى إِشْفَاقٍ :

ـ أَمَرَنِى ربِّى بإظهارِ هذِه الدَّعْوَةِ وَالْجَهْرِ بها ، وَإِنْذَارِ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ وَعَشِيرَتِى(٢) الأَقْرَبِينَ فقَالَ تعَالَى شَأْنُهُ :

« وَأَنْذِرْ(٣) عَشِيرَتَكَ(٤) الأَقْرَبِينَ ، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ(٥) لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ، وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيم ، الَّذِى يَرَاكَ حِينَ

(١) شعاب : الطرق فى الجبل .
(٢) عشيرتى : أهلى
(٣) أنذر : خوف من العاقبة .
(٤) عشيرتك : بنى أبيك .
(٥) جناحك : ألن جانبك .

تَقُومُ(١) ، وَتَقَلُّبَكَ فى السَّاجِدِينَ(٢) ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

قالَتْ خدِيجةُ فى هُدُوءٍ :

— حَقٌّ يارَسُولَ الله ، لابُدَّ من إِنْذَارِ عَشِيرَتِكَ الأَقْرَبِينَ ، وَتَبْلِيغِهِمْ رِسَالَةَ رَبِّكَ ، حَتَّى يَسْمَعُوا كلامَ اللهِ وَيَتَدَبَّرُوا أَمْرَ الله ، وَيَعُمَّهم ما نالَ غيرَهم مِنْ فَضْلِ اللهِ !

وَمَنْ أَحَقُّ بِهذِه الدَّعْوَةِ منَ الأَقْرَبِينَ ؟ !

فَنَظَرَ الرَّسُولُ إِلَيها ، ثمَّ قالَ مَادًّا بَصَرَهُ فى الْفِنَاءِ الواسِعِ :

— سَيُثِيرُونَهَا حَرْبًا يَا خَدِيجةُ ! نُفُوسُهم ثَائِرَةٌ عَلَيْنَا ، وَقُلُوبُهُم مُتَّقِدَةٌ تَفُورُ ، تَوَدُّ لو نَالَتْنَا فَأَحْرَقَتْنَا .

هُمْ حَاقِدُونَ علَى الإِسْلَامِ الَّذِى جَذَبَ بعضَ أَبنائِهم وَأَقْرِبَائِهم وَعَبِيدِهم ، يَرَوْنَ أَنَّهُ أَفْسَدَ بِتَعَالِيمِهِ حَيَاتَهم ، وَنَغَّصَ(٣) عَلَيْهِم عَيْشَهُمْ ، وَنَبَّهَ النَّاسَ إلى حُقُوقِهِم(٤) ، فماذا يَصْنَعُونَ لو دَعَوْتُهم أَنْفُسَهُمْ إِلَى هذَا الدِّين ؟!

---

(١) تقوم : يراك حين تقوم للتهجد بالليل .
(٢) تقلبك : تنقلك لتعرف أحوال المتهجدين من الصحابة .
(٣) نغص : عكر .
(٤) حقوقهم : عرف كل انسان حقه الذى كان ضائعـا فى أيدى المستبدين .

سَتَنْفَجِرُ ثَوْرَتُهم ، وَيُسْفِرُ(١) أَذَاهم بعدَ ما كانَ مُسْتَتِرًا كما أَسْفَرَتْ الدَّعْوَةُ ، ولا قِبَلَ(٢) لنا بِهِمْ ياخَدِيجَةُ !!

قالَتْ وقدْ ظهرَ فى وَجْهِهَا الْجِدُّ وَالْعَزْمُ :

ـ أَلَسْتَ تَدْعُو إِلَى الْحَقِّ وإِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيم ؟ !

إِنَّ اللهَ مَعَكَ وَلَنْ يَخْذُلَكَ(٣) أَوْ يَتَخَلَّى عَنْكَ ، فَادْعُهم كما أَمَرَكَ رَبُّكَ ، وَحَادِثْهم وَاقْرَأْ عليهم الْقُرْآنَ ، فَعَسَى أَنْ تلينَ قُلُوبُهُم لِمَا يَسْمَعُونَ من الْحَقِّ ، وتَميلَ نُفوسُهم لما يَعْرِفُونَ من الصِّدْقِ ، وَيَتَغَلَّبُوا علَى شياطِينِهم وَيَدْخُلُوا فى دينِ اللهِ الْقَويمِ ، وإلاَّ فَرَبُّكَ للظَّالمينَ بالْمِرْصَادِ(٤) !

ثم اسْتَقَرَّ الرَّأْىُ على أَنْ تَصْنَعَ لهم خَديجَةُ طعامًا يَدْعُوهم الرَّسُولُ إليه ، ثمَّ يَعْرِضُ عليهمْ أَمْرَ اللهِ .

وفى الصَّبَاحِ خَرَجَ الرَّسُولُ يَدْعُوهُم إلَى وَلِيمَةٍ قدْ أَعَدَّهَا لَهُمْ ، وَانْهَمَكَتْ خَديجَةُ فى إِعْدَادِ الطَّعَام ، رَاجيَةً أَنْ يُلَبِّىَ

---

(١) يسفر : يظهر .
(٢) قبل : قدرة .
(٣) يخذلك : يتركك .
(٤) المرصاد : الطريق . والمعنى ان الله مراقبهم .

هَؤُلَاءِ الرُّؤَسَاءُ دَعْوَةَ النَّبِيِّ ، وَيَدْخُلُوا فِى دِينِه ، وَيَنْتَهِىَ الأَمْرُ وَيَسُودَ السَّلامُ .

فَلَمَّا حانَ وَقْتُ الْغَداءِ ، اجْتَمَعَ الْقَوْمُ فِى دارِ خَدِيجَةَ ، وَجَلَسُوا يَتَحَدَّثُونَ عن المالِ وَأُمُورِه ، وَالتِّجَارَةِ وَأَنْوَاعِهَا وَطُرُقِهَا ، وَشُئُونِ الْحَرْبِ وَالسِّلْمِ ، فَلَمَّا أَرادَ الرَّسُولُ أَنْ يُحَدِّثَهُم عَنْ دَعْوَتِه ، نَفَرُوا وَثَارُوا ، وَخَرَجُوا غَاضِبِينَ سَاخِطِينَ .

فدَخَلَ الرَّسُولُ علَى خَدِيجَةَ وَالْحَسْرَةُ بَادِيَةٌ(١) فِى مُحَيَّاهُ(٢) ، وقالَ فِى صَوْت تَقْطَعُهُ الزَّفَرَاتُ :

— أَرَأَيْتِ يَا خَدِيجَةُ ؟ !

إِنَّهُم مُصِرُّونَ(٣) علَى الْكُفْرِ ، وَلَنْ يَسْتَجِيبُوا لِهَذَا الدِّينِ ! وَكَيْفَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُ وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهم أَرْفَعُ مِنَ النَّاسِ ، وأَنَّ غَيْرَهم لا بُدَّ أَنْ يَظَلَّ أَدْنَى مِنْهُم ؟

(١) بادية : ظاهرة .
(٢) محياه : وجهه .
(٣) مصرون : عازمون على البقاء على الشىء .

وَكَيْفَ يَسْتَجِيبُونَ لَه وَهُوَ يُعْلِنُ فى صَرَاحَةٍ أَنَّه سَيَأْخُذ مِنْ مَالِهِم حَقَّ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِين وَالْعَاجِز ؟ !

فقالتْ خديجةُ باسمَةً فى صَوْتٍ هادىءٍ :

ـ لا تَيْأَسْ يَارَسُولَ اللهِ ، إِنَّكَ تَدْعُوهم إِلَى خَيْرِهم ، فَإِذَا اهْتَدَوْا فلأَنْفُسِهم ، وَإِنْ ضَلُّوا فَعَلَيْهم إِثْم عِنَادِهِم ، وهلْ هُنَاكَ مَانِعٌ إِذَا دَعَوْتَهُمْ مَرَّةً أُخْرَى ؟ !

فقالَ الرَّسُولُ فى عَزْمٍ :

ـ بلْ سَأَدْعو أَهْلَ مكةَ جَمِيعًا ، وَسَأُبَلِّغهُم جميعًا أَمْرَ اللهِ .

ثُمَّ صَعِدَ « الصَّفَا »[١] ذاتَ صَبَاح ، ونَادَى بِأَعْلَى صَوْتِه :

ـ يامَعْشَرَ قُرَيْشٍ ! يَامَعْشَرَ قُرَيْشٍ !

فلمَّا سَمِعُوا نِدَاءَهُ ، أَسْرَعُوا يَنْظُرُونَ ، وَيَسْتَوْضِحُونَ مَا يُرِيدُ ، ثُمَّ أَقْبَلُوا عَلَيْهِ يَسْأَلُونَهُ عن سَبَبِ هذَا الصِّياحِ وتِلكَ الدَّعْوَة ، فَأَخْبَرَهُم أَنَّ رَبَّهُ أَمَرَهُ بِإِنْذَارِهِم ، فَوَقَفَ لِيُبَلِّغَهُم أَمْرَ اللهِ ، وَيُحَذِّرَهم غَضَبَه ، وَيَدْعُوهم إِلَى اللهِ الْوَاحِدِ الأَحَدِ الَّذِى لا شَرِيكَ لهُ ولا وَلَدَ .

---

(١) الصفا : مكان بأصل جبل أبى قبيس بمكة .

فانْفَجَروا سَاخِرِينَ ، وَصَاحَ عمُّه «عَبْدُ العُزَّى» فى غَضَبٍ :

ـ تَبًّا[١] لَكَ أَلِهَذَا جَمَعْتَنا وَأَقْلَقْتَ رَاحَتَنَا ؟ !

فَنَزَلَ الْوَحْىُ علَى الرَّسُولِ بالإِجَابَةِ علَى عمِّهِ الَّذِى يُهَدِّدُه وَيَسْخَرُ منْه ، فقرأَها الرَّسُولُ علَى النَّاسِ وصاحَ بأَعْلَى صَوْتِه :

ـ « تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ[٢] وَتَبَّ[٣] ، مَا أَغْنَىَ عَنْهُ مَالُه وَمَا كَسَبَ[٤] ، سَيَصْلَى[٥] نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ[٦] ، فى جِيدِهَا[٧] حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ »[٨] ..

فَنَظَرَ النَّاسُ بَعضُهم إلى بَعْضٍ ، وَابْتَسَمَتِ الأَفْوَاهُ لِهَذَا

---

(١) تبا لك : هلاكا .
(٢) تبت يدا : هلكت نفس أبى لهب .
(٣) وتب : هلك .
(٤) كسب : لم ينفعه ما كسب من مال وجاه .
(٥) سيصلى : يدخل .
(٦) حمالة الحطب : تحمل حطب جهنم . والمعنى : سيدخل نار جهنم وامرأته تحمل فيها الحطب .
(٧) جيدها : عنقهـــا .
(٨) مســـد : مفتول .

السَّاحِرِ ، وَزَادَتْ ابْتِسَامَاتُهَا وهِىَ تُرَدِّدُ هذِهِ الْكُنْيَةَ بِدَةَ «لِعَبْدِ الْعُزَّى» ، وكأَنَّها قِيسَتْ عَلَيْهِ ، وَفُصِّلَتْ سِيلاً دَقِيقًا ، وَحَرَّكَ النَّاسُ شِفَاهَهُم بِهَا ، وقالُوا : لَهَبٍ !

ثم ازْدَادُوا ابْتِسَامًا وَهُمْ يَتَخَيَّلُونَ امْرَأَتَهُ بِهذِهِ الصِّفَةِ الْجَدِيدَةِ ، حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ، وَذَلِكَ الْحَبْلُ مِنَ اللِّيفِ فى جِيدِهَا .

وانْطَلَقَ هذَا الرَّدُّ الإِلَهِىُّ كأَنَّهُ الْبَرْقُ حَتَّى شَمِلَ مَكَّةَ ، ورَدَّدَتْه أَفْوَاهُ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، والكِبَارِ وَالصِّغَارِ ، وَوَصَلَ إلى مَسَامِعِ «عَبْدِ الْعُزَّى» وَامْرَأَتِه «أُمِّ جَمِيلٍ» سُخْرِيَةً لاذِعَةً ، فاسْتَشَاطَا غَضَبًا ، وَأَقْسَمَتْ أُمُّ جَمِيلٍ بالَّلاتِ وَالْعُزَّى[1] أَنْ تَنْتَقِمَ من مُحَمَّدٍ وَمِنْ خَدِيجةَ ، وكانا مُتَجَاوِرَيْنِ فى السَّكَنِ .

وَأَسْرَعَتْ إِلَى زَوْجِهَا غَاضِبَةً منْ سُخْرِيَّةِ النِّسَاءِ بِهَا ، وَمِنَ الْحبلِ الَّذى وَضَعَهُ محمدٌ فى جِيدِها ، والْحَطبِ الَّذى تَحْمِلُه ، وَصَاحَتْ بِهِ :

---

(١) العزى : من أصنام العرب .

ـ مَاذَا بَقِىَ بعدَ الْيَوْمِ ؟ !

إمَّا أَنا فى الدَّارِ وإما طَلاقُ ابْنَتَىْ خَدِيجَةَ !

ولم يَكُنْ زَوْجُهَا بِأَقَلَّ مِنها غَضَبًا ، فَأَسْرَعَ إلى ابْنَيْهِ : وكانا قَدْ عَقَدَا[1] على رُقَيَّةَ وَأُمِّ كُلْثُومَ وَلَمْ يَدْخُلا بِهِمَا ، وَصَاحَ بِهِمَا فى شِدَّةٍ :

ـ أَسَمِعْتُمَا ما قالَ مُحمَّدٌ فِيَّ وفى أُمِّكُما ؟ ! إمَّا أَنا وَإِمَّا ابْنَتَا خَدِيجَةَ !

فأَطْرَقا قليلاً يُفَكِّرَانِ ، فاشْتَدَّ به الْغَضَبُ ، وَصَاحَ يُهَدِّدُهُمَا :

ـ إنْ لم تُطَلِّقَاهُما فَلَسْتُ أَباكُما ، وَسَأَقْطَعُ حَبْلَ صِلَتِي بِكُما حتىَّ أَمُوتَ سَاخِطًا عَلَيْكُمَا ! !

ولم يُتِمَّ كلامَه حتَّى كانَتْ زَوْجَتُه تَعْدُو[2] صَارِخَةً إلى ابْنَيْهَا ، تَسُبُّ وَتَلْعَنُ ، وَتُهَدِّدُ وَتَتَوَعَّدُ[3] ، فَلَمْ يَجِدْ الابْنَانِ

(١) عقـدا : عقدا عقد الزواج .
(٢) تعدو : تجرى .
(٣) تتوعد : تنذر بالشر .



أم جميل وزوجها أبو لهب يهددان ابنيهما فى غضب شديد
ليطلقا ابنتى الرسول عليه السلام

أَمَامَ ثَوْرَةِ أَبِيهِمَا وَأُمِّهِما إِلاَّ أَنْ يَخْضَعا لما أَرَادَا وطلَّقا الْفَتَاتَيْنِ .

فلمَّا بلغَ خَدِيجَةَ ذَلِكَ ، رَفَعَتْ يَدَيْهَا إِلَى السَّمَاءِ شَاكِرَةً فَضْلَ اللهِ الَّذِى فَرَّقَ بينَ ابْنَتَيْهَا وبينَ ابْنَىْ أَبِى لَهَبٍ ، وَانْتَزَعَهُمَا مِنْ بَيْتِ أُمِّ جَمِيلٍ ، وبَاعَدَ بَيْنَهُمَا وبينَ شَرِّها .

وَسُرَّ الرَّسُولُ وَشَكَرَ رَبَّهُ على إِنْقَاذِ ابْنَتَيْهِ مِنْ شَرِّ أَبِى لَهَبٍ وَامْرَأَتِهِ . . .

لَكِنَّهُ عَرَفَ أَنَّ حَرْبَهُمَا لَنْ تَنْتَهِىَ ، وَأَنَّ هَذَيْنِ الشِّرِّيرَيْنِ سَيُشَمِّرَانِ لِلْعَدَاوَةِ الظَّاهِرَةِ ، وَالْمَكَايِدِ السَّافِرَةِ ، وَتَوَقَّعَتْ خَدِيجَةُ أَنْ تبدأَ « أُمُّ جميلٍ »(١) الْكيدَ لَهَا بما تَكِيدُ النِّسَاءُ بَعْضُهُنَّ لِبَعْضٍ .

---

(١) أم جميل : زوج أبى لهب .

الأسئلة

(١)

كيف كان يدعو رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى رسالته فى أول الأمر ؟ ولماذا ؟ وكم استمرت هذه الفترة .

(٢)

ماذا حدث حين أراد رسول الله أن يحدث قومه عن دعوته ؟ وما أثر ذلك فى نفسه ؟ وما موقف خديجة من ذلك ؟

(٣)

صمم – صلى الله عليه وسلم – على مواجهة قومه بالدعوة حين صعد على الصفا ونادى قومه فماذا قال ؟ وبم أجابوه ؟

(٤)

كان « لأبى لهب » موقف معارض للدعوة وقد رد القرآن على تهجمه . وضح . وبين دلالة ذلك الرد بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبالنسبة لأبى لهب وزوجته « أم جميل » ؟

* * *

(١٩) إشتداد المعركة

أَخَذَتْ الْمَعْرَكَةُ بَيْنَ النَّبِيِّ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ تَكْبَرُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وَالرَّسُولُ مَاضٍ فِى دَعْوَتِهِ ، وَقُلُوبُ قُرَيْشٍ تَكَادُ تَتَمَيَّزُ(١) مِنَ الْغَيْظِ يُفَكِّرُونَ وَيُدَبِّرُونَ .

وَقَدْ أَعْلَنَ أَبُو لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ عَدَاوَتَهُمَا لِلرَّسُولِ ، وَأَخَذَتْ امرأَتُهُ تُدَبِّرُ لِكَيْدِ خَدِيجَةَ ، حَتَّى بَدَأَ النَّبِيُّ يَسْخَرُ مِنَ الأَصْنَامِ الْمَنْصُوبَةِ حَوْلَ الكعبةِ ، لا تَدْفَعُ ضَرًّا ولاَ تَجْلِبُ نَفْعًا ، يُلْفِتُ الأَنظارَ إِلَيها ، وإِلَى مَوَاقِفِهَا الزَّرِيَّةِ(٢) مِنَ الشَّرِّ حِينَ تَرَاهُ ولا تَتَحَرَّكُ ، ومِنَ الْمَكَارِمِ حِينَ تَنْظُرُ إِليها ولا تَتَأَثَّرُ .

فَتَمَزَّعَتْ قُرَيْشٌ لِهٰذِهِ السُّخْرِيَةِ ، وَاجْتَمَعَتْ لِتَرَى الرَّأْىَ فِى ذَلِكَ الَّذِى يَعِيبُ آلِهَتَهَا وَيُحَقِّرُهَا ، وتَضَعُ حَدًّا لِدَعْوَتِهِ وَلِلْفِتْنَةِ الَّتِى أَثارها فِى مَكَّةَ .

---

(١) تتميز : تتقطع .
(٢) الزرية : المشينة .

قالَ بعضُهم لِبَعْضٍ :

ــ إنْ لَمْ نَضْرِبْ علَى يَدِ مُحمَّدٍ ضَرْبًا عَنِيفًا ، فلَيْسَ لنا بَعْدَ الْيَوْمِ سُلْطانٌ !

ثُمَّ اتَّفقُوا علَى الْعَمَلِ وَوَزَّعُوه بَيْنَهُم .

قالَ الشُّعَرَاءُ : عَلَيْنا أَنْ نهْجُوَهُ[١] بِشِعْرِنا ، وَنُسَفِّهَ[٢] رَأْيَه وَنسْخَرَ منْه . فإذا ذاعَ[٣] هذَا الشِّعْرُ ، أَثَّرَ فى نُفوسِ النَّاسِ فَانْصَرَفُوا عَنْهُ .

وقالَ الْقَصَّاصُون : عَلَيْنا أَنْ نَجْلِسَ لِلنَّاسِ ، وَنُحَدِّثَهم بما سَمِعْنَا من أَخْبَارِ الأَوَّلِينَ وَقِصَصِ السَّابِقِينَ ، حتَّى نُغَطِّيَ بتلكَ الْقِصَصِ علَى قُرْآنِه وَنَصْرِفَ عنْه الأَذْهَانَ ، فلا يَجِدَ النَّاسُ فيهِ ما يَجِدُونَ من الرَّوْعَةِ وَالْجَمَالِ .

وقالَ التُّجَّارُ : سَنُضَيِّقُ علَيهِ وعلَى أَتْبَاعِهِ ، وَنَحْرِمُهُم مِنَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالرِّبْحِ ، فإذا ضاقَ بِهِم الْعَيْشُ تَرَكُوهُ وَرَجَعُوا عَنْ دِينِه .

(١) نهجوه : نسبه .
(٢) نسفه : نحقر .
(٣) ذاع : انتشر .

وأَخَذَ أَبُو جَهْلٍ وَأَبُو لَهَبٍ عَلَى عَاتِقِهِمَا نَصِيبًا كبيرًا مِنْ إِيذاءِ الرَّسولِ ، وَتَعَهَّدَ أَبُو لَهَب – وَهُوَ جَارُه – بأَنْ لا يُرِيحَهُ ولا يَدَعَه يَهْنَأُ فى بَيْتِهِ ، وَأَنْ يُقْلِقَ زَوْجَتَه خَدِيجَةَ الَّتِى تُشَجِّعُه وَتَتَحَمَّسُ لِدَعْوَتِهِ ، وَتَنْشُرُهَا بما أُوتِيَتْ من قُوَّة وَمَال . ثُمَّ انْصَرَفوا يَعْمَلُونَ .

اتَّفَقَ أَبو لَهَبٍ مع زَوْجَتِهِ علَى الْخُطَّةِ ، وقالَ لها فى غَيْظٍ :

– سَأُرِيه كَيْفَ يُطْلِقُ فينَا لِسَانَه ، وَسَأُرِى وَحْيَه كَيْفَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ بِمِثْلِ ذلكَ الْقُرْآنِ الَّذى أَلْقاهُ يومَ الصَّفَا !

وقالتْ زَوْجَتُه :

– وَسَأُرِى خَدِيجَةَ كَيْفَ تَصْنَعُ أُمُّ جَمِيل ، وَكَيْفَ تُدبِّرُ لأَعْدَائِهَا ! ومَا هَذَا الْحَبْلُ الَّذِى رَبَطَهُ مُحَمَّدٌ فى جِيدِى !!

وَنَظَرَتْ أُمُّ جَمِيلٍ مِنْ بابها إِلَى بَيْتِ خديجةَ ، وَضَغَطَتْ بفَكِّهَا الأَسْفَلِ على فكها الأَعْلَى ، فَسُمِعَ لهُمَا صريرٌ(١) يُعْلِنُ الْغَضَبَ ، ثمَّ قالَتْ فى حِقْدٍ :

---

(١) صرير : صوت .

ـ إِمَّا أَنْ تَرْحَلِي ياخَديجةُ مِنْ هذَا الْبَيْتِ ، وَإِمَّا أَنْ نَرْحَلَ نَحْنُ ! لَنْ أُرِيَكِ رَاحةً بعدَ اليومِ !

ثم بَدَأَ الْعَمَلُ .

فما أَشْرَقَ الصَّباحُ حَتَّى كانَ بَابُ خَدِيجةَ مُلَطَّخًا(١) بالأَقْذَارِ ، وَمَدْخَلُ الْبَيْتِ مُغَطًّى بمقَادِيرَ كبيرةٍ منها ، فَلَمَّا خَرَجَ محمَّدٌ وَوَجَدَهَا عاد إلى خَدِيجةَ وقال بَاسمًا :

ـ بَدَأَتْ امْرَأَةُ أَبِي لَهَبٍ ! هذَا أَوَّلُ الْغَيْثِ ياخَدِيجةُ !

فَهبَّتْ خديجةُ إِلَى البَابِ ، وَرَأَتْ ما عَلَيْهِ وما أَمَامَه ، فَقَالَتْ بَاسِمَةً :

ـ سَأُنَظِّفُه يَارَسُولَ اللهِ !

ثمَّ دَعَتْ جَوَارِيَهَا وَأَمَرَتْهُنَّ بإِزَالَةِ تِلْكَ الأَقْذَارِ ، وَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّ امْرَأَةَ أَبِي لَهَبٍ قَدْ وَقَفَتْ تَنْظُرُ ، وَتَتَربَّصُ(٢) أَنْ تَثُورَ خَدِيجةُ فَتَشْتَبِكُ مَعَهَا ، ثم تسيرُ الأُمورُ مِنْ سَيِّءٍ إلَى أَسْوَأَ .

---

(١) ملطخا : مغطى .
(٢) تتربص : تنتظر .

لكِنَّ خديجةَ فَوَّتَتْ عليها ما أَرادَتْ مِنَ الشَّرِّ ، وَوَطَّنَتْ[1] نَفْسَهَا على مِثْلِ هذا الْكَيْدِ ، فكَانَتْ تسمَعُ بِأُذُنَيْهَا أَقْذَرَ الشَّتَائِمِ وَأَقْذَعَ السِّبَاب ، فلا تَزِيدُ على بَسْمَةٍ لَطِيفَةٍ ، ثم تقولُ فى ثَباتٍ :

— سَأَدَعُهم يَمُوتُونَ بِغَيْظِهِمْ ، وَلَنْ أُفَرِّجَ عنْهم برَدٍّ أَوْ ثَوْرَةٍ ، فَذَلِكَ أَجْدَى وَأَشَدُّ !

ثُمَّ تَلْتَفِتُ إلى جَوَارِيها الثَّائِرَاتِ ، وقدْ حَذَّرَتْهُنَّ أَنْ يَفْتَحْنَ أَفْوَاهَهُنَّ بِكَلِمَةٍ ، وتقولُ بَاسِمَةً :

— ما الْفَرْقُ بينَ الْمُسْلِمَةِ وَالْكَافِرَةِ ؟ !

وَإِذَا كُنَّا سَنَجْزِى السَّيِّءَ بالسَّيِّءِ ولا نَعْفُو ولا نُقَابِلُ الإِهَانَةَ بالْمَغْفِرَة ، فهلْ نكونُ أَدَيْنا وَاجِبَ دِينِنا ، وَسِرْنا علَى سُنَّةِ نَبِيِّنا ؟ !

ثم تَتَقَبَّلُ أَذى كُلِّ يَوْمٍ بِهَذَا الصَّبْرِ ، فإذا عادَ إليها الرَّسُولُ وَحَدَّثَهَا بما أَلْقَاهُ أَبو جهلٍ وأَبو لَهَبٍ علَى سَمْعِه منَ

---

(١) وطنت نفسها : هيأت نفسها لتقبله .

الْكَلِمَاتِ اللَّاذِعَةِ وَالشَّتَائِمِ الْمُرَّةِ ، افْتَرَّ ثَغْرُهَا وقالتْ فى صَوْتٍ هَادِئٍ :

— إنَّمَا هِىَ أَصْوَاتٌ فى الْهَوَاءِ ، تَذْهَبُ معَ الرِّيْح ، وَتَتَلَاشَى[1] فى الْفَضَاءِ الْفَسِيحِ !

فَلَمَّا رَأَتْ قريشٌ أَنَّ أَمْرَ مُحمدٍ يَعْلُو يومًا بعدَ يومٍ ، وَأَنْصَارَهُ يَزِيدُونَ يومًا بعدَ يومٍ ، اجْتَمَعُوا لِيُقَرِّرُوا أَمرًا غيرَ ما يَصْنَعُ أَبو جهلٍ وأَبو لَهَبٍ وَامْرَأَتُه مِنَ الإِيذَاءِ .

قالَ بعضُهم : اقْطَعُوا مَدَدَهُ تُعْجِزُوه ، وَتَتَمَكَّنُوا مِنْه !

فَصَاحُوا فى لَهْفَةٍ :

— وَمَا هَذَا الْمَدَدُ ؟

تَعْنِى عَمَّه أَبا طالبٍ ؟ !

إنْ لَمْ يَتَخَلَّ عَنْهُ كانَ لَنَا وَإِيَّاهُ شَأْنٌ !

قالَ الرَّجُلُ فى قُوَّةٍ :

— أَعْنِى خديجةَ ! تِلْكَ الْمَرْأَةَ الَّتى يَعْتَمِدُ علَى سُلْطَانِهَا وَمَالِهَا ، وَقَلْبِهَا .

---

(١) تتلاشى : تذهب .

إِنَّهَا تَبُثُّ(١) الدَّعْوَةَ بِقُوَّةٍ ، وَتَحْسَبُهَا تِجَارَةً تُنَمِّيهَا ، وَسِلَعًا تَدْعُو لها وَتُحَسِّنُهَا فى أَعْيُنِ مُشْتَرِيها !

أَلَمْ تَرَوْا إِلَى إِسْلَامِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِهَا ، وَتَعَصُّبِهِم لِصِهْرِهِم مُحمدٍ ، وَعَزْمِهِم على الْوُقُوفِ بِجَانِبِه وَالدِّفَاعِ عنْه بِأَرْوَاحِهِمْ ؟!

ما هَذَا كُلُّه ؟ !

قُلْنَا مُحمدٌ سَاحِرٌ ؟ فمَا بَالُ خديجةَ تَشْتَرِكُ معَه فى هَذَا الْخِدَاعِ وَالسِّحْرِ ؟ !

إنْ لمْ تَقِفُوهَا وَتُبْطِلُوا سِحْرَها فَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَنَالُوا كَثِيرًا مِنْ مُحمدٍ !

قالوا : وَمَا الْعَمَلُ ؟

قالَ فى حَمَاسَةٍ :

ـ إذا نَجَحْنَا فى صَرْفِ أَبِى طَالِبٍ عنْ محمد ، ثَنَّيْنَا بِخَدِيجَةَ ، فَهَدَّدْنَاهَا حَتَّى نَفْصِلَهَا عنه ، فإِذًا فقدَ هَاتَيْنِ الدِّعَامَتَيْنِ(٢) ، صَمَتَ ولَمْ يَتَكَلَّمْ !

فَاسْتَحْسَنُواْ هذَا الرَّأْىَ ، وَأَسْرَعُوا يَعْمَلُونَ .

---

(١) تبث : تنشر .
(٢) الدعامة : عماد البيت .

قال أبوطالب: لَنْ أتخَلَّى عن ابْنِ أخِي، ولَنْ أتْرُكَهُ لَكُمْ!

فأَخْفَقُوا فى الشَّطْرِ الأوَّلِ منَ الْخُطَّةِ ، وَرَأَوا أنَّهم أخْفَقُوا فى الشَّطْرِ الثَّانِى ، وَهُوَ الانْفِرَادُ بِخديجةَ بعدَ أبى طالب ، فقَرَّرُوا أمْراً آخَرَ .

قرَّرُوا الْقَضَاءَ على أتْبَاعِ مُحمدٍ ، حتَّى يَكونوا عِبْرَةً(١) لمَنْ يُفَكِّرُ فى دُخُولِ هَذَا الدِّين ، فلا يجدُ مِنْ حَوْلِه أنْصَارًا ، ولا يَجِد مَنْ يَدْعُوه ، ثم انْصَرَفُوا يَعْمَلُونَ .

وَتَرَدَّدَ فى مَكَّةَ الصُّرَاخُ وَالْعَوِيلُ ، وَشَاعَتْ مناظِرُ التَّعْذِيبِ وَالتَّنْكِيلِ بالأرِقَّاءِ(٢) وَالضُّعَفَاءِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، مِنْهم مَنْ يُلْقَى فى الشَّمْسِ الَّتى تُذِيبُ الْحَدِيدَ ، وَيُوضَعُ حَجَرٌ كبير عَلَى صَدْرِهِ ، فلا يَتَحَرَّكُ ولا يَسْتَطِيعُ الْفِرَارَ من تِلْكَ الأشِعَّةِ الَّتى تَشْوِيهِ .

وَمِنْهُم مَنْ يُلْقَى فى حُجْرَةٍ مُظْلِمَةٍ بِلاَ طَعَامٍ ولا شَرَابٍ حَتَّى يُمَزِّقَ الْجُوعُ أحشاءه .

---

(١) عبرة : عظة .

(٢) التنكيل : التعذيب الشديد .

وَمِنْهم مَنْ يُشَقُّ بَطْنُه بِعُمُدٍ منَ الْحَدِيد ، وَتُكْشَفُ سَوْأَتُه[١] أَمَامَ الْجُمُوع الْمُحْتَشِدَة[٢] ، لِتَرَى هذَا التَّعْذِيبَ وَالتَّنْكِيلَ[٣] .

وأمامَ الْبُيُوتِ تَدُورُ رَحَى الشَّتَائم والسِّبَابِ ، وقدْ نَهَضَتْ كُلُّ امْرَأَة تُجيدُ هذَا اللَّوْن ، لِتَشْتَرِكَ بِنَصِيبِهَا فى المعْرَكَةِ .

وَأَصْبَحَ الْمُسْلمُ فى مَكَّةَ شَيْئًا يَنْبَغِى الْفِرَارُ منْه ، ولو كانَ قَرِيبًا أَوْ صَدِيقًا حَمِيمًا[٤] ، وإلاَّ رَأَتْه عيونُ الْكُفَّارِ ، وَامْتَدَّتْ إليه أَيْدِيهِمْ ، وَيَا وَيْلَهُ إِذَا وَقَعَ فى تلْكَ الْقَبَضَاتِ الْقَاسِيَةِ !

وفى وَسَط هذه الْمَعْرَكَةِ ، كَانَتْ خَدِيجَةُ تَعْمَلُ فى ثَبَاتٍ ، وَعَزْم ، وَجَلَدٍ[٥] .

مَدَّتْ يَدَهَا تَمْسَحُ بِها علَى جُرْحِ الْمَجْرُوحِ ، وَتوَاسِيه ، وَتُشَجِّعُه ، وَتُبَشِّرُه بالنَّصْر والظَّفَر .

وَفَتَحَتْ خَزَائِنَهَا لِلْمُسْلمينَ يَأْخذونَ منْها ما يَشَاءُونَ ،

---

(١) سوأته : عورته .
(٢) المحتشدة : المجتمعة .
(٣) التنكيل : التعذيب .
(٤) حميما : شديد الاخلاص .
(٥) جلد : صبر .

وبَذَلَتْ أَمْوَالها فى سَبيلِ الله ، تَدْفَعُ الْغُرْمَ(١) ، وَتَشْتَرى الأَرِقَّاءَ الْمُعَذَّبينَ وَتُطْلِقُهُم ، وَتُفَوِّتُ علَى الْقرَشِيِّينَ تَضْيِيقَهُمْ علَى الْمُسْلِمِينَ فى تجَارَتِهِم وَأَعْمَالِهِم .

ولا تَهْتَمُّ بِذَلكَ الْعَبَثِ الَّذى كانوا يَصْنَعُونَهُ ، فلا تُلْقى بَالَها إلَى تلْكَ الْحِجَارَةِ الْمُتَسَاقِطَة على دَارهَا ، والضَّاربَة بابَها ، ولا إلَى ذَلكَ الصِّيَاح الَّذى يَصيحُ به الْمُشْرِكُونَ وَأَطْفَالُهُم حَوْلَ دَارِهَا .

ولا تَثُورُ لِمَنْظَرِ أُولَئِكَ الأَشْرَارِ وَهمْ يَسيرُونَ خَلْفَ الرَّسُولِ .

بَلْ تَبْتَسِمُ وَتَنْتَظِرُ حتى يَدْخُلَ الدَّارَ ، فَتقَابِلُهُ ضَاحكَةً ، سَاخرَةً من هذا الصَّغارِ الَّذى تَصْنَعُه قرَيْشٌ ، وَتُزيلُ بابْتسَامِهَا وَرِضَاهَا ما أَهَمَّهُ .

فَلَمَّا رَأَى الرَّسُولُ ما يَحُلُّ بأَصْحَابِهِ ، آثَرَ(٢) أَنْ يُبْعِدَهُم عَنْ هَذَا الأَذَى ، وَأَذِنَ لَهُم بالْهجْرَةِ إلى الْحَبَشَةِ ، فَطَرِبَتْ(٣)

---

(١) الغرم : الدين .
(٢) آثر : فضل .
(٣) طربت : فرحت .

خَدِيجَةُ لِهَذَا الرَّأْي ، وَعَاوَنَتْ الْمُهَاجِرِينَ على التَّجَهُّزِ لِلسَّفَرِ ، وَقَدَّمَتْ إِلَيْهِم ما يُعِينُهُم علَى الرَّحِيلِ .

وَزَادَ طَرَبُهَا حينَ جَاءَهَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ زَوْجُ ابْنَتِهَا رُقَيَّةَ ، يُخْبِرُهَا بِعَزْمِهِ هُوَ وَرُقَيَّةُ عَلَى الْهِجْرَةِ ، وَقَالَتْ فى رِضًا :

ــ بَارَكَ اللهُ فيكَ يا عُثْمَانُ ، وَبَارَكَ فى رُقَيَّةَ ! أَمَّا نَحْنُ فَسَنَظَلُّ هُنَا حتَّى يَأْذَنَ اللهُ .

وَفى سِتَارِ اللَّيْلِ ، كانَ هَؤُلاءِ الْمُهَاجِرُونَ يَفِرُّونَ مِنْ مَكَّةَ بِدِينِهِم ، وَخَدِيجَةُ تُوَدِّعُهُم بَاسِمَةً مُتَجَلِّدَةً .

ثم طَبَعَتْ قُبْلَتَيْنِ على خَدَّىْ ابْنَتِهَا ، وَرَجَتْ لَها وَلِزَوْجِهَا رِحْلَةً سَعِيدَةً ، وَتَوْفِيقًا فى تِلْكَ الْبِلادِ الْبَعِيدَةِ ، وَظَلَّتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِم مِنْ بينِ أَسْتَارِ الظَّلامِ حتَّى اخْتَفَوْا عن الأَنْظَارِ ؛ وعادَتْ إلى بَيْتِهَا تَنْتَظِرُ ما تَصْنَعُ قُرَيْشٌ .

الأسئلة

(١)

سخر الرسول صلى الله عليه وسلم ـ من الأصنام . فلماذا ؟
وما أثر هذه السخرية فى نفوس القرشيين ؟

(٢)

قابلت (خديجة) رضى الله عنها ـ سوء فعل « أم جميل » بحسن التصرف . وضح ذلك وبين دلالته على كل منهما .

(٣)

«إنما هى أصوات فى الهواء ، تذهب مع الريح ، وتتلاشى فى الفضاء الفسيح» .

(أ) من القائل ؟ وما دلالتها على شخصيته ؟
وما المناسبة التى قيلت فيها ؟

(ب) ما معنى العبارة ؟

(٤)

حاولت قريش مقاومة رسول الله صلى الله عليه وسلم بشتى الوسائل .

وضح ذلك ، وبيِّن موقف المسلمين منه

* * *

(٢٠) معركة القوت

بَلَغَ الْمُهَاجِرُونَ شَاطِئَ الْبَحْرِ ، وهُمْ يَنْظُرُونَ أَمَامَهُم ، يَتَلَفَّتُونَ بَاحثِينَ عن سَفِينَةٍ يَرْكَبُونَهَا ، وَيَتَلَفَّتُونَ خَلْفَهم خَائفِينَ أَنْ تَلْحَقَ بهمْ قُرَيْشٌ .

وكَأَنَّ الماءَ قدْ انْفَلَقَ عَنْ سَفِينَةٍ كَبيرَةٍ بَرَزَتْ لَهُمْ ، فَرَكِبُوهَا وَرَجَعَتْ بهم تَشُقُّ عُبَابَ[1] الماءِ .

وكانَتْ قُرَيْشٌ قد عَلِمَتْ بفِرَارِهِمْ ، وَخَافَتْ خَطَرَ هذَا الْفرَارِ ، فَأَسْرعَتْ خَلْفَهُم لتَرُدَّهُم وَتُؤَدِّبَهُمْ ، فلَمَّا بَلَغَتْ شَاطِئَ الْبَحْر لم تَجدْ لهم أَثَرًا فَاشْتَدَّ بها الْغَيْظُ وعادَ رِجَالُها بقلُوبٍ تكادُ تَنْفَجرُ ، وَزَفراتٍ تكادُ تَلْتَهِبُ ، وَهُمْ يَصِيحون في شدَّةٍ :

- لا بُدَّ من عَمَلٍ ! ماذا نَنْتَظِرُ ؟ !

---

(١) عباب الماء : كثرته .

قالَ بعضُهم حينَ اسْتَقَرَّ بهم الْمَجْلِسُ :

ـ نَقْتُلُ مُحَمَّدًا !

وَقالَ آخَرُونَ :

ـ نَقْتُلُ خديجةَ وأَبا طالب !

وَرَدَّ غيرُهُم :

ـ بَلْ نَقْتُلُ هؤلاءِ ومَعَهُم بنُو هَاشِمٍ وبَنُو المطَّلبِ !

ثم اتَّفَقُوا علَى مُحَاصَرَتِهِم وَمَنْعِ الْقُوتِ[1] عَنْهُم ، حَتَّى يقْتُلَهُم الْجُوعُ أَوْ يَتَخَلَّوْا عن مُحمَّدٍ .

وَكَتَبُوا بينَهم كِتابًا يَتَعَاهَدُونَ فيه أَلاَّ يَبِيعُوهم شيئًا ، أَوْ يَبْتَاعُوا[2] منهُم شَيْئًا ، أَوْ يُخَالِطُوهم ، أَو يُصَاهِرُوهم[3] ، وَأَنْ يَكُونُوا يَدًا وَاحدَةً على مَنْ يَعْطِفُ عَلَيهم ، ثمَّ عَلَّقُوا هذه الصَّحيفَةَ علَى الْكَعْبَةِ .

---

(١) القوت : الطعام .

(٢) يبتاعوا : يشتروا .

(٣) يصاهروهم : يزوجوهم أو يتزوجوا منهم .

وَأَمَامَ هذه الْمُعَاهَدَةِ الشِّرِّيرَةِ ، اجْتَمَعَ بنو هاشم وَبنو الْمُطَّلب وَتَشَاوَرُوا فى الأَمْر ، وَقَرَّرُوا الاتِّحَادَ أَمامَ هذه الْمُخَالَفَةِ الآثِمَةِ(١) ، وأَلاَّ يَتْرُكوا مُحمَّدًا ولو ماتُوا جُوعًا .

وَرَأَوْا أَنْ يَدْخُلُوا جَميعًا فى شِعْبٍ منَ الشِّعَابِ ، يَجْمَعُهُم كُلَّهم ، وَيَعيشُوا فيه معًا بَعيدًا عنْ كَيْدِ مَكَّةَ الْواقفَةِ أَمَامَهم ، وَأَسْرَعُوا يَدْخُلُونَ فى هذَا الشِّعْبِ ، وَدَخَلَتْ خَدِيجةُ مَعَهم بما اسْتَطَاعَتْ منَ المالِ وَالزَّادِ ..

ثُمَّ انْتَشَرَ الْقُرَشِيُّونَ فى السُّوقِ ، إِذَا ما رَأَوْا قَافِلَةً مُقْبلَةً على مَكَّةَ ، أَحَاطُوا بهَا ، وَوَقَفُوا يَنْظُرُونَ .

إِذَا رَأَوْا أَحَدًا مِنْ أَتْبَاع مُحمَّدٍ أَقْبَلَ شَاريًا لِبَعْضِ السِّلَعِ ، تَقَدَّمَ وَاحِدٌ مِنْهُم وَعَرَضَ ضِعْفَ مَا يَعْرِضُ الْمُسْلِمُ ثمنًا ، فإِذَا زادَ الْمُسْلِمُ زَادُوا ضِعْفَ مَا زادَ ، ولاَ يَزالُونَ حتى يَعجز وَيَتْرُكَ السِّلْعَةَ ، وَهُمْ يَسْخَرُونَ مِنْهُ .

وَلَمْ يَدْخُلْ أَبُو لَهَبٍ ولا زَوْجَتُه معَ بنى هاشِمٍ وَبَنى الْمُطَّلِبِ

---

(١) الآثمة : الشريرة .



تجار قريش يستقبلون السفن القادمة

فى شِعْبهم ، لأَنَّ الْحِقْدَ دَفَعَهُ إلى نِسْيَان قَرَابَتِهِ لِلرَّسُولِ ، وَجَرَّهُ إلى الإِضْرَارِ به .

فكانَ يسيرُ فى السُّوقِ صَائِحًا بالتُّجَّارِ أَلاَّ يَبيعُوا شَيْئًا لِأَتْبَاعِ مُحمَّدٍ ، وَيُؤَكِّدُ لَهُم أَنَّه ضَامِنٌ لما يَلْحَقُ مَتَاجِرَهم مِنْ خَسَارَةٍ .

فانْقَطَعَ الزَّادُ عَمَّنْ فى الشِّعْبِ منْ بَنِى هاشِمٍ وَالْمُطَّلِبِ ، وَخافَ الصَّدِيقُ فلمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَقْرَبَه ، وَنَفِدَ ما كانُوا حَمَلُوه حِينَ سارُوا إلى مَحْبِسِهِمْ ؛ فاشْتَدَّ بهم الأَذَى ، وَتَجَلَّدَ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ ، لكِنَّ الأَطْفَالَ عضَّهم الْجُوعُ ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهم حتَّى كانَتْ تُسْمَعُ مِنْ خَلْفِ الشِّعبِ ، ولمْ يَنْفَعْ فيهم تَعْلِيلٌ(١) ولا زَجْرٌ(٢) .

وكانَتْ خَدِيجَةُ بينَ هَؤُلاَءِ جَميعًا مِثَالًا للصَّبْرِ وَالشَّجَاعَةِ ، وقَدْ بَذَلَتْ مَا تَسْتَطيعُ منْ مَالٍ ومنْ مُوَاسَاةٍ ، وَصَبَرَتْ قَوِيَّةَ النَّفْسِ كَبيرَةَ الْقَلْبِ ، تَشْتَدُّ بَسْمَتُهَا كُلَّمَا اشْتَدَّتْ الْمِحْنَةُ(٣) وَزَادَ الْبَلاءُ .

---

(١) تعليل : تلهية .
(٢) زجـر : منع .
(٣) المحنة : ما يمتحن به الانسان من بلاء .

كانَتْ فى وَسَطِ الشِّعْبِ بَعيدَةً عن قُرَيْشٍ ، لكنَّهُم كانُوا خائفينَ منْ تَدْبيرهَا ، يُشَدِّدُونَ مُرَاقَبَتَهُمْ علَى الشِّعْبِ ، وَيُحْكِمُونَ حِصَارَهُ ، وَيُرَاقِبُونَ مَنْ يَخَافُون أَنْ يَصلَ تَدْبيرُ خديجةَ إِلَيْهم .. لكنَّهم أَحَسُّوا أَنَّ بَعْضَ الطَّعَامِ يَدْخُلُ بتَدْبيرِها ، فَأَحْكَمُوا الْمُرَاقَبَةَ ، وكانَ أَبو جَهْل يُشْرِفُ على تَنْظِيمِ هذَا الْحِصَارِ ، فزادَ منْ يَقْظَتِه .

وَذَاتَ لَيْلَةٍ رَأَى غُلامًا يَحْملُ قَمْحًا ، وَيَتَسَلَّلُ به إِلَى الشِّعْبِ فى جُنْحِ (١) اللَّيْلِ ، وَمنْ خَلْفِه رجلٌ منَ الْمُشْرِكِينَ يُسْرِعُ مُهْتَمًّا ، فَأَمْسَكَ أَبو جَهْلٍ بالْغُلام ، وَسَأَلَ الرَّجُلَ فى غَضَبٍ :

ـ أَلَمْ نَتَعَاهَدْ علَى مُقَاطَعَةِ هَؤُلاءِ ، حَتَّى يَرْتَدُّوا (٢) أَوْ يَمُوتُوا جُوعًا ؟ !

فَأَسْرَعَ الرَّجُلُ فى سُخْرِيَةٍ :

ـ هذَا دَيْنٌ كانَ عَلَيَّ لخَديجةَ !

أَلاَ تُريدُ أَنْ يَفِىَ (٣) النَّاسُ بما علَيهم منْ دُيون ؟ !

---

(١) جنح الليل : ظلامه .
(٢) يرتدوا : يرجعوا عن دينهم .
(٣) يفى : يؤدوا .

فانْتَفَضَ أَبُو جَهْلٍ صَائِحًا :

ـ خَدِيجَةُ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تَدْبِير !

سَنَقْتُلُ خَدِيجَةَ وآلَ خَدِيجَةَ !

ثُمَّ أَسْرَعَ إِلى رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ لِيَرَوْا رَأْيَهم فى خَدِيجَةَ ، وَتَدْبِيرِهَا ، فَأَخَذُوا يُفَكِّرُونَ .

وَاسْتَمَرَّ الْحِصَارُ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ ، أَنْفَقَتْ خديجةُ فيها كُلَّ مالها ، راضيَةَ الْقَلْبِ ، مرْتَاحَةَ النَّفْسِ ، تَبْعَثُ فى قُلوب الرِّجَالِ الْقُوَّةَ ، وفى قُلوبِ النِّسَاءِ التَّضْحيَةَ وَالصَّبْرَ . . .

حتَّى أَذِنَ اللهُ بِتَحْطِيم هَذَا الْحِصَارِ ، فعادَ الْمُسْلِمُونَ الْمُحَاصَرُونَ إلى دُورِهم يَنْقِلُونَ خَطْوَهُم على مَهَلٍ ، وَعَادَتْ خديجَةُ إلى بَيْتِهَا وَقَدْ زَادَتْهَا هَذِه الْمِحْنَةُ قوَّةً ، تفَكِّرُ فيما سَتَصْنَعُ قرَيْشٌ بعدَ إِخْفَاقِهَا فى هَذَا الْحِصَارِ ، وَأَخَذَتْ تُقَلِّبُ الرَّأْيَ فيما بَقِيَ لَدَى قرَيْشٍ من أَلوانِ الْقَسْوَةِ والشَّرِّ .

ثم انْتَفَضَتْ فى خَوْفٍ وَجَزَعٍ ، حينَ تَذَكَّرَتْ أَنَّه لمْ يَبْقَ فى جُعْبَتِهِم غَيْرُ السَّهْمِ الأَخيرِ ، وَصَاحَتْ فى قوَّةٍ :

ـ لَنْ يَقْتُلُوهُ ! لَنْ يَسْتَطِيعُوا !

الأسئلة

اتفقت قريش على محاصرة «بنى هاشم وبنى المطلب» .

(أ) فماذا فعلت من أجل ذلك ؟

(ب) ما موقف «بنى هاشم وبنى المطلب» مما حدث ؟

(جـ) ما موقف : (أبى لهب وزوجته) من هذه المقاطعة ؟

(د) حدث موقف أثار (أبا جهل) على خديجة اذكره .

(هـ) كم سنة استمر هذا الحصار ؟ وما دلالته بالنسبة للمحاصرين ولمن حاصروهم ؟

(و) كانت السيدة «خديجة» رضى الله عنها فى هذه المحنة مثلا أعلى فى التضحية والصبر . وضح ذلك .

* * *

(٢) السهم الأخير

عَادَتْ خَدِيجَةُ إِلَى دَارِهَا بَعْدَ هذه الْغَيْبَةِ الطَّوِيلَةِ ، فَدَبَّتْ الْحَيَاةُ فى الدَّار بعدَمَا كانَتْ مُقْفِرَةً(١) ، وَأَشْرَقَتْ بعدَما كانَتْ مُظْلِمَةً ، وَأَسْرَعَتْ صديقاتُ خَدِيجَةَ يُهَنِّئْنَهَا بالسَّلامَة ، وَأَقْبَلَتْ عليها النِّسْوَةُ اللَّاتِى انْقَطَعَ عَنْهُنَّ بِرُّهَا(٢) فى تلْكَ السَّنَوَاتِ الثَّلاثِ ، وَعُيُونُهُنَّ مَمْلوءَةٌ بدُمُوعِ الْفَرَحِ ، وَقلوبُهُنَّ مملوءَةٌ بالسُّخْطِ على كُفَّارِ مكة الْقُسَاةِ .

وَأَخَذَتْ الدَّارُ تَمُوجُ بالْوَافِدِينَ منَ الْمُسْلمِينَ ، تَتَجَاوَبُ(٣) فى أَنْحَائِها آياتُ الْقُرْآنِ ، يُرَتِّلُهَا الرَّسُولُ وَأَتْبَاعُه ، فُرَادَى(٤) أَوْ جَمَاعَاتٍ ، وَلم يَعُدْ الْمُسْلمُونَ يَسْتَخْفُونَ بدِينِهم ، بعدَ

---

(١) مقفرة : خالية .

(٢) برها : عطاءها .

(٣) تتجاوب : تتردد .

(٤) فرادى : واحدا واحدا .

ما أَسْلَمَ أَمْثَالُ حَمْزَةَ بْن عَبْدِ الْمُطَّلبِ عَمِّ النَّبِيِّ ، وَعُمَرَ ابْن الْخَطَّابِ ، وَاعْتَزَّ بِهم الإِسْلامُ .

وَقَدْ غَاظَ الْكُفَّارَ أَنْ يَعُودَ الْحِصَارُ بغَيْر ما كَانُوا يَأْمَلُونَ . كانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهم سَيَقْتُلُونَ مُحَمَّدًا وَمَنْ مَعَهُ جُوعًا ، وَسَتُرِيحُهم الأَيَّامُ منْهم ، لكنَّ الْحصَارَ حُطِّمَ بقُوَّةِ اللهِ ، وَخَرَجُوا سَالمينَ ، وَسَارَتْ أَخْبَارُهُم فى أَنْحَاءِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَأَصْبَحَتْ حَديثَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ .

يعْجَبُ لها بَعْضُ النَّاسِ ، وَيَقِفُونَ عنْدَ هذا الْعَجَبِ[1] ، ويعْجَبُ لها آخَرونَ وَيَرَوْنَ فيها مُعْجِزَةً تَدُلُّ على اتِّصالِ مُحمَّدٍ باللهِ ، وَوُقُوفِ رَبِّهِ بِجَانِبِهِ ، فَيُقْبِلُونَ عَلَيْهِ ، وَيَمُدُّونَ أَيْدِيَهم إِلَيهِ ، مُقِرِّينَ مُسْلِمِينَ ، مُنْضَمِّينَ إِلَى صُفُوفِهِ الَّتى تَنْمُو كُلَّ يوم ..

وعَادَتْ خَدِيجَةُ إِلَى تِجَارَتِهَا ، وَأَقْبَلَ علَيهَا عُمَلاؤُهَا يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ ، وَهِيَ مَسْرُورَةٌ بنورِ الإِسْلام الَّذِى يَشْتَدُّ

---

(١) العجب : يكتفون بالعجب .

ضِيَاؤُهُ وَيَمْتَدُّ ، ولا يَعُوقُه(١) مَا يُحَاوِلُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ سُدُودٍ وَعَوَائِقَ . .

كانَ الْمُشْرِكُونَ يَنْظُرُونَ إِلَى بَيْتِ خَدِيجَةَ وَيَوَدُّونَ لَوْ هَدَمُوه وأَزالُوه ، وكَانَ أَبُو لَهَبٍ وَزَوْجَتُهُ يَنْظُرَانِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ وهمْ يَدْخُلُونَ هَذَا الْبَيْتَ وَيَخْرُجُونَ منه فَيَزْدَادُ غَيْظُهُمَا ، وَيَتَأَجَّجُ(٢) حِقْدُهُمَا .

حَتَّى إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ حَاوَلاَ أَنْ يَسْتَقِرَّا فى فِرَاشِهِمَا ، فَيَأْبَى النَّوْمُ أَنْ يُخَالِطَ أَجْفَانَهُمَا ، وكَيْفَ يَنامَان وَأَصْوَاتُ الْمُسْلِمِينَ تَنْبَعِثُ مِنْ بَيْتِ خَدِيجَةَ بِالْقُرْآنِ ، فَتَصِلُ إِلى قَلْبَيْهِمَا سِهَامًا قَاتِلَةً ؟ !

فَلاَ يَمْلِكَانِ إِلاَّ أَنْ يَصْعَدَا إِلى سَطْحِ الدَّارِ ، وَيَنْظُرَا إِلى بَيْتِ خديجةَ نَظَرَاتٍ مُلْتَهِبَةً وَيُرْهِفَا آذَانَهُمَا إِلى ما يَقُولُ الْمُسْلِمُونَ وَيَتْلُونَ ، يَوَدُّ كلٌّ منهما لَوْ أَشْعَلَ النَّارَ فَالْتَهَمَتْ هذَا الْبَيْتَ الَّذِى أَقَضَّ مَضْجَعَهُمَا(٣) .

---

(١) ولا يعوقه : ولا يقف فى طريقه .
(٢) يتأجج : يتقد .
(٣) مضجعهما: جعل المضجع خشنا : والمراد طرد منهما الراحة .

وذاتَ لَيْلَةٍ سَهِرَتْ دارُ خَدِيجةَ إلَى الْفَجْرِ ، وَسَهِرَ أَبُو لَهَبٍ وَامرَأَتُهُ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّباحُ ، انْطَلَقَ أبو لَهَبٍ إلى مُنْتَدَى[1] قُرَيْشٍ ؛ ثمَّ صَاحَ وَالْغَضَبُ يَهُزُّه ، وَعيناهُ تَنْطِقَانِ بما نَالَهُما من الأَرَقِ[2] :

ـ إلَى مَتَى أَيُّهَا الْقَوْمُ ؟ !

كَيْفَ نَصْبِرُ علَى ما نَحْنُ فيهِ ؟ ! قَدْ فاضَ الإِنَاءُ[3] ، ولمْ يَبْقَ في قَوْسِ الصَّبْرِ مَنْزَعٌ[4] !

فَلمَّا أَرَادَ بَعْضُهم أَنْ يُهَدِّئَ ثَوْرَتَه ، اشْتَدَّ غَضَبُه ، وَصَاحَ هائِجًا :

ـ لَوْ كُنْتَ جاراً لِخَدِيجةَ لَعَرَفْتَ ما نَحْنُ فِيه ، وَلَوْ مَدَدْتَ بَصَرَكَ قَلِيلًا لَرَأَيْتَ مَا يَسِيرُ إليهِ دينُ مُحمَّدٍ !

أَنَصْبِرُ حَتَّى يُفْلِتَ الأَمْرُ مِنْ أَيْدِينا ؟ !

---

(١) منتدى : نادى .
(٢) الأرق : السهر .
(٣) فاض الاناء : بلغ الأمر نهايته .
(٤) المنزع : السهم الذى ينتزع . والقوس : مايرمى به السهام وهو من عدد الحرب والصيد والمعنى : بلغ الأمر غايته .

لم يَعُدْ الأَمْرُ أمرَ سِبابٍ وَشَتَائِمَ ، ولا أَمْرَ حِصارٍ وَحَبْس ، ولم يَعُدْ غيرُ السَّهْمِ الأَخِيرِ !

قالَ وَاحِدٌ فى هُدوءٍ :

ــ لكنَّ مُحمَّدًا ابْنُ أَخيكَ يا عَبْدَ الْعُزَّى !

فاشتدَّ هَيَجَانُه ، وقالَ فى قَسْوَةٍ :

ــ فَصَلْنَا(١) تِلْكَ الصِّلَةَ ، وَقَطَعْنَا تِلْكَ الْقَرَابَةَ ، ولم يَبْقَ بَيْنَنَا وبينَ مُحَمَّدٍ نَسَبٌ(٢) ولا سَبَبٌ(٣) .

فلمَّا لفَتَ نَظَرَهُ إلى أَخِيه أَبى طالِبٍ وَعَوْنِه لِمُحَمَّدٍ ، قالَ فى حِدَّةٍ :

ــ وَأَبُو طَالِبٍ كَذَلِكَ ! قَطَعْتُ مَا بَيْنِى وَبَيْنَهُ مِنْ أَجْلِ مُحمَّدٍ ، فَاصْنَعُوا مَا شِئْتُم .

أَطْفِئُوا هذِهِ النَّارَ الَّتِى تَمْتَدُّ !

أَلا تَرَوْنَ أَنَّهَا خَرَجَتْ مِنْ مكَّةَ إلى غَيْرِهَا ؟ !

---

(١) فصلنا : قطعنا .
(٢) نسب : قرابة .
(٣) ولا سبب : ولا صلة .

أَلم تَرَوْا مُحمَّدًا يَعْرِضُ نَفْسَهُ على الْقَبائِلِ ، وَيَنْشُرُ دينه بَيْنَهَا ؟ !

هلْ حَرَّكَ أَبو طالبٍ ساكِنًا ؟ ! أَلا تَرَوْنَ أَنَّه حَرَسَ مُحمَّدًا وَدَخَلَ مَعَه الشِّعْبَ ؟ ! فماذا تَرْجُونَ مِنْهُ ؟ !

لكِنَّ الدَّاءَ الأَكْبَرَ يَكْمُنُ فى بَيْتِ خَدِيجَةَ وَمَالِها ...

وَصَمَتَ قليلاً ، ثمَّ قالَ فى غَضَبٍ شَدِيدٍ :

ـ قَوْمُ خَدِيجةَ معَ مُحمَّدٍ ، ولاَ يَغُرَّنَّكُمْ بعض مَنْ تَأَخَّرَ إسْلامُهُم مِنْهُم ، أَلا تَرَوْن أُخْتَها هالَةَ وَابْنَهَا ، لم يُسْلِمَا ولكنَّهُما لمْ يُخَاصِمَا مُحمَّدًا ، ولم يَنْقَطِعَا عنْ دَار خَدِيجةَ !

أَلم تَرَوْا بعضَهم ممَّنْ لمْ يَدْخُلْ فى الإِسْلام ظَاهِرًا ، لم يَتَأَخَّرْ عنْ التَّسَلُّلِ فى الظَّلام إلى الشِّعْبِ بالطَّعَام ، لِيُفْسِدَ عَلَيْنَا خُطَّتَنَا ؟ ! .

أَلَمْ تَرَوْا إِلَى أَوْلادِ إِخْوَتِهَا ، قدْ اعْتَنَقُوا الإِسْلامَ وَاحِدًا وَاحِدًا ، وَتَعَصَّبُوا لَهُ .

وصَمَت لَحْظَةَ ، ثمَّ قالَ وَالْغَضَبُ يَهُزُّه :

— لا يَغُرَّنَّكُمْ بَعْضُ مَنْ يُظْهِرُ لكُم الْعَدَاوَةَ لِمُحَمَّدٍ مِنْ قَوْمِهَا ، فإِنَّهُمْ إنْ لم يكُونُوا عُيونًا[١] لِخَدِيجةَ ، فإِنَّهم يُفَكِّرُونَ فى الإِسْلام !

ثمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ ، وَدَقَّ بيدِهِ الأَرْضَ قائِلًا :

— أَرَى أَنْ تَبْدَءُوا بِخَدِيجةَ ، فَكُلُّ شَيْءٍ يَهُونُ بَعْدَها !

فقالَ وَاحِدٌ فى هُدُوءٍ :

— وَإِذَا بَدَأْنَا بِأَبِى طالِبٍ ؟ !

فاسْتَشَاطَ أَبو لَهَبٍ غَضَبًا ، وقالَ فى حَيْرَةٍ :

— قَدْ بَيَّنْتُ رَأْيِى ، فابْدَءُوا حَيْثُ شِئْتُم ، لكِنْ لا تَتَبَاطَئُوا ، فالأَمْرُ جِدٌّ ، وَتَأْخِيرُ الْعَمَلِ يومًا يُؤَخِّرُنَا سَنَةً ، وإِذَا تَأَخَّرْنا انْتَصَرَ مُحمَّدٌ وَانْهزَمْنَا ..

فاتَّفَقُوا علَى أَنْ يَبْدَءُوا بأَبِى طالِبٍ ، فقالَ وَاحِدٌ مِنْهُم فى رِفْقٍ :

---

(١) عيونا : جواسيس .

ـ دَعُوا أَبا طالِب فى مَرَضِهِ ، فإِنَّهُ يُعَانِى[1] الشَّيْخُوخَةَ ، وَيُقَاسِى ما أَلَمَّ بِهِ[2] هذهِ الأَيَّامَ مِنْ مَرَضٍ عَنِيفٍ .

ثُمَّ اسْتَقَرَّ رَأْيُهم علَى أَنْ يُخَاطِبُوا أَبا طالِبٍ فى أَمْرِ مُحمَّدٍ ، فإِمَّا أَقْنَعَهُ بالْعُدُولِ عنْ دِينِه ، وَإِمَّا نَفَضَ يَدَهُ مِنْه ، وَإِمَّا الثَّالِثَةُ الَّتى لا مَفَرَّ مِنها ، وَهِيَ الْعُدْوَانُ عَلَيْهِ وعَلَى مُحَمَّدٍ .

فَذَهَبُوا إليه وَحَادَثُوهُ فى ذَلِكَ الأَمْرِ ، فلَم يَصِلُوا معَه إِلَى حَلٍّ ، فَخَرَجُوا يُفَكِّرُونَ . .

كانَ الرَّسُولُ مَعَهم فى دارِ أَبى طالبٍ ، فَرَأَى ما فى عُيونِهِم من الشَّرِّ ، وَما فى أَصْوَاتِهم منَ الْقَسْوَةِ ، فخرجَ بعدَهم ، وَذهَبَ إلى دَارِه وَجَلَسَ صَامتًا .

قالتْ خَديجةُ بَاسِمَةً :

ـ مَاذَا يَا رَسُولَ الله ؟ ! مَاذَا أَهَمَّكَ الْيَوْمَ ؟

قَالَ فى تَأَثُّرٍ :

---

(١) يعانى : يقاسى .
(٢) ما ألمّ : ما نزل .

ـ أَبو طالب ياخديجةُ ! أَبو طالب أَشْرَفَ على الْمَوْت ؛ والكُفَّارُ يَرْقُبُونَ وَفَاتَه لِيَصُبُّوا كُلَّ ما لَدَيْهِم مِنْ أَذًى ، هذا ما أَهَمَّنِى اليومَ يا خَدِيجةُ !

فَنَظَرَتْ إليهِ بِوَجْهِهَا الْمُشْرِقِ ، ثمَّ قالَتْ فى بَسْمَة لَطِيفَةٍ :

ـ لَنْ يَصلُوا يا رَسُولَ اللهِ إلَى مَا يَشْتَهُونَ ! إنَّ اللهَ مَعَنَا ، وَلَنْ يَنْتَصِرَ الْبَاطِلُ على الْحَقِّ .

وإذَا كانَ أَبو طَالِبٍ سَيُلبِّى نِدَاءَ اللهِ ، فإِنَّ رَبَّ أَبِى طَالِبٍ أَقْوَى مِنْهُ وَمِنْهُم !

فانْفَرَجَتْ شَفَتَا الرَّسُولِ سُرُوراً ، وَزَالَ هَمُّه ، لكِنَّهُ لم يَقُمْ من مَقَامِه حتَّى أَقْبَلَ النَّاعِى[1] يَنْعَى إِلَى مَكَّةَ أَبَا طَالِبٍ .

فَتَغَيَّرَ وَجْهُ الرَّسُولِ ، وَبَدَا الْجَزَعُ فى قَسَمَاتِهِ ، وَأَحَسَّ بأَنَّ رُكْنًا كَبِيرًا منْ حِصْنِه[2] قَدْ انْهَدَّ ، ثُمَّ أَسْرَعَ إلى عَمِّه الَّذى نَاصَرَهُ لِيُلْقِىَ عَلَيْهِ النَّظْرَةَ الأَخيرَةَ ، وَهُوَ يَقُولُ فى أَلَمٍ :

ـ لَمْ يَبْقَ غَيْرُكِ يا خَديجَةُ :

---

(١) الناعى : الذى يخبر بخبر الوفاة .
(٢) حصنه : المكان الذى لا يقدر أحد أن يناله .

وَأَخَذَ يَدْعُو اللهَ أَنْ يُبَارِكَ فِى عُمْرِهَا ، وَيَمُدَّ فِى حَيَاتِهَا ، ثُمَّ انْصَرَفَ مِنْ مَأْتَم عَمِّهِ يَرَى أَنْيَابَ قُرَيْشٍ كَاشِرَةً عَنِ الشَّرِّ، وَوُجُوهَهُمْ مُنْذِرَةً بِمَا فِى قُلُوبِهِم مِنْ تَدْبِيرٍ ، وقَسَماتِهُم ناطقةً بالشَّمَاتَةِ[1] ، كأَنَّها تَقُولُ فِى صَرَاحَةٍ :

ـ ماتَ نَصيرُكَ أَبو طالبٍ يامُحَمَّدُ ، ولم يَبْقَ غيرُ خَديجةَ ، وَسَوْفَ نَهْدِمُ هذه الدَّعَامَةَ الثَّانِيَةَ ، وَتُصْبِحُ فِى أَيْدِينَا كما يَقَعُ الْعُصْفُورُ فِى الْفَخِّ !

وكانَ مَا تَوَقَّعَ ، فلَم يَمْض قَليلٌ على مَوْتِ أَبِي طَالبٍ ، حتّى بَدَتْ نُذُرُ الشَّرِ ، وَاشْتَدَّتْ الْمَعْرَكَةُ ، وَأَخذَ مُحمَّدٌ يَخُوضُ غِمَارَهَا ، وَخَديجةُ تَقفُ بِجانبه ، وَتُعينُه ، وَتُوَاسِيهِ ، وَتَدْفَعُ عنه أَذَى الْقَوْمِ .

وكُلُّ يَوْمٍ تَشْتَدُّ الْمَعْرَكَةُ ، وَيَظْهَرُ فيها لَوْنٌ جديدٌ من الْقَسْوَةِ وَتُسْرِعُ إِلى النِّهَايَةِ الَّتى أَرَادَ الْكُفَّارُ أَنْ تَصلَ إِلَيها ، وكُلُّ يومٍ يَمُرُّ يُقْنِعُ الْكُفَّارَ أَنَّهُ يَتَحَتَّمُ التَّخَلُّصُ من خديجةَ ، ليَتَخَلَّصُوا منْ مُحَمَّدٍ :

---

(١) الشماته : الفرح بمصيبة العدو .

الأسئلة

« أخذت الدار تموج بالوافدين من المسلمين تتجاوب فى أنحائها آيات القرآن يُرتلها الرسول وأتباعه فرادى أو جماعات ، ولم يعد المسلمون يستخفون بدينهم بعد ما أسلم حمزة بن عبد المطلب عم النبي وعمر بن الخطاب واعتزَّ بهم الإسلام » .

(أ) ما معنى : « تموج بالوافدين » ؟

(ب) ما أثر إسلام : (حمزة وعمر) فى الدعوة الإسلامية ؟

(جـ) ما موقف المشركين من ذلك ؟

(د) صمم المشركون على الشر فما الذى استقر عليه رأيهم ؟ وما موقف « أبى طالب » منهم ؟

* * *

(٢٢) فـــراق

اشْتَدَّ خَوْفُ خَدِيجَةَ على رَسُولِ اللهِ ، وَنَشِطَت فيمَا تَقومُ به مِنْ مُعَاوَنَتِهِ وَمُوَاساتِه .

ومعَ أَنَّهَا أَوْفَتْ[1] على الْخَامِسَةِ وَالسِّتِّينَ ، فَقَدْ كانَ قَلْبُها شَابًّا يَنْبِضُ بصادِقِ الإِيْمَانِ ، وَيَتَحَرَّكُ بقُوَّةِ الْيَقِين .

كانَ الرَّسُولُ يَرْجُو أَنْ تمتَدَّ حَياتُها حتّى يَتِمَّ النَّصْرُ لِدِينِ اللهِ ، وكَانَتْ تَرْجُو أَنْ تَطُولَ هذِه الْحَيَاةُ حتى ترَى ذَلِكَ النَّصْرَ ، وتُشَاهِدَ الشَّمْسَ الْكَبيرَةَ وهِيَ تُضِيءُ جوانِبَ الدُّنيا وَتَمْحُو مَا غَشِيَهَا[2] مِنَ الظَّلام ...

وكُلَّمَا اشْتَدَّ إيذاءُ الْمُشْرِكِينَ للرَّسُولِ ، زَادَ إِشْفَاقُهَا عَلَيْهِ وَتَعَلُّقُهَا بِه ، وكُلَّمَا تَقَدَّمَتْ بها السِّنُ ، زادَ تعلُّقُ الرَّسُولِ بها

---

(١) أوفت : أشرفت .
(٢) ما غشيها : ما غطاها .

وَحُبِّه لَها ، ولكِنَّهُ لمْ يَكُنْ يَظُنُّ أَنَّهَا تَسْعَى إلَى جِوارِ ربِّها ، تَارِكَةً الْمَيْدَانَ وسِهَامُ الْمُشْرِكِينَ تُوضَعُ فى الأَقْواسِ ، ولمْ يَكُنْ يُقَدِّرُ أَنَّ رسَالَتَهَا سَتَنْتَهِى سَرِيعًا بعدَ أَبِى طالبٍ ، ولَمْ يَبْقَ له بعدَهُ مُعِينٌ سِواها ...

فَبَيْنَمَا كانا جَالِسِين ذاتَ لَيْلَةٍ يَدْعُوَانِ اللهُ وَيَقْرَآنِ الْقُرْآنَ أَحَسَّتْ خديجةُ بِرَعْدَةٍ فى جَسَدِهَا ، وَشَعَرَتْ بِفُتُورِ اعْتَرَاهَا ، فَنَظَرَتْ إلَى رَسُولِ اللهِ بَاسِمَةً ، وقالتْ فى حَنَان :

ـ سَيَنْصُرُكَ اللهُ يا رَسُولَ اللهِ ، لَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ وَلَنْ يَتْرُكَ اللهُ نورَه ، بلْ سَيُتِمُّه ولو كَرِهَ الْكَافِرُونَ !

فأَحَسَّ الرَّسُولُ بما بَدَا عَلَيْهَا مِنَ الْفُتُورِ ، وَمَدَّ يَدَه وجَسَّ كَفَّها ، فشَعَرَ بما دَبَّ فى جِسْمِهَا من الْحَرَارَة ، فقالَ فى اهتِمَام :

ـ أَمَرِيضَةٌ يا خَدِيجةُ ؟ !

قالتْ وَهِيَ تُغَالِبُ الْمَرَضَ :

ـ بَلْ حَرَارَةٌ خَفِيفَةٌ لا تَلْبَثُ أَنْ تَزُولَ !

فَمَدَّ رَسُولُ الله يدَه وأَعَانَها علَى النُّهُوضِ ، وَأَسْنَدَهَا حَتَّى

بَلَغَ بِها الْفِرَاشَ فَرَقَدَتْ ، وَجَلَسَ بجَانِبِهَا يَمْسَحُ بِيَدِهِ عَلَى صَدْرِهَا ، وَيَضَعُ الماءَ الْبَارِدَ عَلَى رَأْسِهَا ، وَيَسْأَلُ اللهَ لها الشِّفَاءَ ، وَهِيَ تَنْظُرُ إِليهِ وَتَشْكُرُ له عِنَايَتَهُ ، وَتَدْعُوهُ لِيَأْخُذَ قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ ، فيقولُ فِى حَنَان :

— وكيفَ أُوَفِّيكِ حَقَّكِ ياخَدِيجةُ ؟ !

كُنْتُ فَقِيرًا فَأَغْنَانِى بِفَضْلِكِ اللهُ ! وَكُنْتُ مُهَدَّدًا فَوَجَدْت فى بَيْتِكِ النَّصْرَ وَالْحِمَايَةَ ، كُنْتِ الأُمَّ والأُخْتَ وَالزَّوْجَةَ !

فإِذَا اشْتَدَّ بها الأَلَمُ ، اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ بالدُّموع ، وَنَظَرَ إِليها وقالَ فى حُزْنٍ :

— بِرَغْمِى[1] يا خَدِيجَةُ ما بِكِ ! وَعَطْفُ اللهِ كبيرٌ وَرَحْمَتُه وَاسِعَةٌ ! فإِذَا رَأَتْ مَا بهِ مِنَ الْحُزْنِ ، قالَتْ فى صَوْتٍ رَقِيقٍ :

— سَيَنْصُرُكَ اللهُ يَا رَسُولَ اللهِ ، لَنْ يُطْفِئُوا نُورَ الله ، وَلَنْ يَتْرُكَ اللهُ نُورَه ، بل سَيُتِمُّهُ ولو كَرِهَ الْكَافِرُونَ !

وَتَصْمُتُ قَلِيلًا ، ثُمَّ تَقولُ بَاسِمَةً :

---

(١) برغمى : على غير ارادتى .

— كُنْتُ أَوَدُّ أَنْ أَرَى الشَّمْسَ الْكَبِيرَةَ ، وَهِيَ تُبَدِّدُ[١] ظَلاَمَ الدُّنيا وَتَهْزِمُ ما فى مَكَّةَ وما وَرَاءَهَا مِنْ ضَلالٍ !

فَيُسْرِعُ الرَّسُولُ باسِمًا :

— سَتَرَيْنَهَا يا خَدِيجةُ ! سَتَزُولُ هذِهِ الشِّدَّةُ ، وَتَعُودُ إليكِ الصِّحَّةُ وَتَنْهَضِينَ لِتُتِمِّى رِسَالَتَكِ .

وَيَصْمُتُ قليلاً ، وينظرُ إليها ثُمَّ يقولُ فى حُزْنٍ :

— سَيَشْفِيكِ اللهُ يا خَدِيجةُ ولَنْ يَتْرُكَنِى وَحْدِى !

فَتُغَالِبُ ما بِهَا وتقولُ فى رِفْقٍ :

— اللهُ مَعَكَ يَا رَسُولَ الله . إِنَّهُم يُدَبِّرُونَ وَسَيَرُدُّ اللهُ كيدَهُم فى نُحُورِهِم[٢] ، سَيُنْقِذُكَ من مَخَالِبِهِم ، وَلَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ وَأَنْتَ فى كَنَفِ[٣] اللهِ !

وَتَصْمُتُ قَلِيلاً ثمَّ تَسأَلُ بَاسِمَةً :

— ماذَا أَعَدَّ لِى رَبِّى يا رسولَ الله ؟! هل تَقَبَّلَنِى وَرَضِىَ عَنِّى ؟ !

---

(١) تبدد : تفرق .
(٢) نحورهم : صدورهم .
(٣) كنف : جانب .

فَيُغْمِضُ النَّبِيُّ عَيْنَيْهِ ، لِيُخْفِيَ ما تَرَقْرَقَ فِيهما مِنَ الدَّمْعِ ، ثمَّ يقولُ فى بَسْمَةٍ رَقِيقَةٍ :

— رَضِيَ اللهُ عنكِ ياخَدِيجةُ وَشَكَرَ لَكِ !

آوَيْتِ ، وَنَاصَرْتِ وَبَذَلْتِ ، وَكُنْتِ لِرَسُولِ اللهِ ، وَمَنْ أَعَانَ اللهُ وَرَسُولَهُ كانَ اللهُ لهُ !

إنَّ لَكِ يا خَدِيجةُ قُصُوراً فى جَنَّاتِ عَدَنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، بُنِيَتْ لَكِ مِنْ لُؤْلُؤٍ ، وَحُفَّتْ بالوُرُودِ ، وَأَطَلَّتْ على يانعِ[1] الشَّجَرِ وجارِى الماءِ !

ثُمَّ يَضَعُ الماءَ الْبَارِدَ علَى رَأْسِهَا ، ويقولُ فى عَطْفٍ وَإِشْفَاقٍ :

— سَتَزُولُ هذِه الْحَرَارَةُ وَتَرْتَدُّ لَكِ الصِّحَّةُ ، وَتَنْهَضِينَ لِتُتِمِّى رِسَالَتِكِ ، وَاللهُ لَنْ يُشْمِتَ فِينا أَعْدَاءَنَا ، وَلَنْ يُمَكِّنَهُمْ مِنْ دِينِه .

فَتَفْتَحُ عَيْنَيْهَا الْوَاسِعَتَيْنِ ، وَتَسْأَلُ فى إِشْفَاقٍ :

— وكيفَ حالُ قُرَيشٍ الْيومَ ؟ !

---

(١) يانع : مثمر .

فَتَرُدُّ إِحْدَى بَنَاتِهَا الْوَاقِفَاتِ حَوْلَ سَرِيرِهَا وَتَقُولُ فى حُزْنٍ :
— يَنْتَظِرُونَ يا أُمَّاهُ !

ثُمَّ تَنْفَجِرُ بَاكِيَةً ، فَتَدْمَعُ عَيْنَا الرَّسُولِ ، وَيُطَمْئِنُهَا على أُمِّهَا وَيَدْعو خَدِيجَةَ لِتُحَدِّثَه .

لكِنَّ الْمَرَضَ كانَ يَشْتَدُّ ساعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ ، فَيَشْتَدُّ قَلَقُ الرَّسُولِ وَبَنَاتُه ، وَيَشْتَدُّ حُزْنُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ مَلأُوا الدَّارَ ، يَسْأَلُونَ عَنْ خَدِيجَةَ وَيَدْعُونَ لَهَا ..

وَيَشْتَدُّ حُزْنُ الْفَقِيرَاتِ ، اللاتِى يَعِشْنَ فى بِرِّ(١) خَدِيجَةَ وَنِعْمَتِهَا . وَأَبو لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ أَمَامَ بَيْتِهِمَا ، يَسْأَلان مَنْ خَرَجَ عَنْ حَالِهَا فَلا يَجِدَان غيرَ الأَلْفَاظِ الْقَاسِيَةِ جَوَابًا عَنْ هذِهِ الأَسْئِلَةِ الَّتِى تَظْهَرُ فيها الشَّمَاتَةُ وَالتَّلَهُّفُ على أَنْ تَنْطَوِىَ هذِهِ الصَّفْحَةُ النَّاصِعَةُ ، وَيُغْمَدَ(٢) هذا السَّيْفُ الْقَوِىُّ .

كُلُّ مكةَ كانَتْ تَسْأَلُ عَنْ خَدِيجَةَ : الْمُحِبُّونَ وَالْمُبْغِضُونَ ، وَكُلُّ نادٍ كانَ يَتَحَدَّثُ عنها بما يَحْلُو لَهُ ، يُنْصِفُهَا بَعْضُهم

---

(١) بـــر : عطـــاء .
(٢) يغمد : يدخل فى الغمد ، والغمد الجراب .

وَيَذْكُرُ مَحَاسِنَهَا ، وَيُسِيئُهَا بَعْضُهُم وَيَقْلِبُ تلكَ الْمَحَاسِن ، وَيُصَوِّرُهَا كما شاءَ لَهُ الْحِقْدُ وَالْهَوَى[1] ، وَأَسْمَاعُهم مُرْهَفَةٌ ، لِتَسْمَعَ النَّبَأَ الَّذِى يُؤَكِّدُ الْكَثِيرُونَ أَنَّه سَيُذَاعُ وَيَنْتَشِرُ .

والرَّسُولُ وَبَنَاتُه يَنْظُرُونَ إِلَى خديجةَ ، وَهِىَ تَسِيرُ إلى نِهَايَتِهَا ، لا يَهُمُّهَا إِلَّا الرَّسُولُ وَمَا سَيَنَالُه بعدَها من أَذَى قُرَيْشٍ .

وكانَتْ لَيْلَةً طَوِيلَةً ، سَهِرَتْ فيها دَارُ خديجةَ ، دَامِعَةَ الْعُيُونِ ، مُضْطربَةَ الْقُلُوبِ ، تتوَسَّلُ وَتدْعُو ، وخديجةُ فى فِرَاشِها وَالرَّسُولُ بجَانِبِها قدْ أَسْلَمَ أَمْرَه إلى رَبِّهِ .

حتَّى كانَ وَقْتُ السَّحَرِ ، فَفَتَحَتْ خديجةُ عَيْنَيْهَا وَنَظَرَتْ إلى بَنَاتِهَا وإلى الرَّسُولِ ، ثمَّ أَطْبَقَتْ عَيْنَيْهَا بَاسِمَةً رَاضِيَةً .

وَسَكَنَ هذا الْجَسَدُ الَّذِى تَحَرَّكَ طَوِيلاً فى سَبِيلِ اللهِ ، وِمنْ أَجْلِ دِينِه ، فَدَمَعَتْ عَيْنَا الرَّسُولِ ، وَبَكَتْ بَنَاتُها ، وَضَجَّتْ الدَّارُ بِالْبُكَاءِ .

---

(١) الهوى : الميل المذموم .

وَفى الصَّباح كانَ نَعْشُ خَدِيجَةَ يَسيرُ من بَيْتِهَا ، مَحْمُولًا علَى أَكْتَافِ الْمُسْلِمِينَ إلى مَقَابِرِ قُرَيْشٍ ، فى الشَّمَالِ الشَّرْقِىِّ من مكةَ ، حتَّى بَلَغُوا الْحَجُونَ(١) ، وَوَصلُوا إلى الْمَقْبَرَةِ الَّتى رَقَدَ فِيهَا الْقُرَشِيُّونَ مُنْذُ بَعِيدٍ ...

ثُمَّ وَضَعُوا نَعْشَهَا على حافَةِ قَبْرِهَا ، وَنَزَلَ الرَّسُولُ الْقَبرَ ، وَسَوَّى لَحْدَهَا بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ ، وَتَقَبَّلَ جُثْمَانَهَا الطَّاهِرَ ، وَأَرْقَدَهُ فى مَضْجَعِهِ ، وَأَلْقَى علَى وَجْهِهَا نَظْرَةَ الْوَدَاعِ .

ثمَّ خَرَجَ ناكِسَ(٢) الرَّأْسِ دَامِعَ الْعَيْنَيْنِ ، يَتَقَبَّلُ عزاءَ الْمُسْلِمِينَ فى خَدِيجَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ ، ثمَّ عَادَ إِلَى الْبَيْتِ يَرْتَقِبُ ما يَصْنَعُ الْمُشْرِكُونَ ، بَعْدَمَا فَقَدَ هذا الرُّكْنَ الرَّكِينَ ...

---

(١) الحجون : جبل بمكة عنده مدافن أهلها .
(٢) ناكس : مائل .

(٢٣) ذكرى دائمة

أَحَسَّ النَّبِيُّ بعدَ خَدِيجةَ بِفَرَاغٍ وَوَحْشَةٍ ، وَكُلَّمَا تَذَكَّرَ جِهَادَهَا وَعَطْفَهَا وَبِرَّهَا ، اشْتَدَّ بِهِ الْحُزْنُ حَتَّى بدَا أَثَرُهُ فى وَجْهِهِ وَجِسْمِه .

أَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَقَدْ هزَّهُمْ الْفَرَحُ لموْتِهَا ، وقالَ بعضُهم لِبَعْضٍ :

ـ لم يَبْقَ أَمَامَكُم أبو طالبٍ ولا خَدِيجَةُ !

فما كَادَ يَخْرُجُ النَّبِيُّ منْ بَيْتِهِ بعدَ الْعَزَاءِ حتَّى اعْتَرَضَهُ سُفَهَاؤُهم يُؤْذُونَهُ ثُمَّ أَلْقَوْا التُّرَابَ على رَأْسِه ، فعَادَ إلى الْبَيْتِ حَزِينًا ، يَذْكُرُ خَديجَةَ وَابْتِسَامَتَهَا الْعَذْبَةَ حينَ كانَتْ تُقابلُه فى مِثْل هذَا الظَّرْفِ ، فَتُزِيلُ هَمَّهُ وَتَصْرِفُ ما به .

فلمَّا رأَتْه ابنته فاطِمةُ ، أَسْرَعَتْ إِلَيهِ وَغَسَلَتْ التُّرَابَ عنْ رَأْسِهِ بَاكِيَةً ذَاكِرَةً أُمَّهَا وما كانَتْ تَصْنَعُه ، فاشتَدَّ التَّأَثُّرَ بالرَّسولِ وَبَكَى وَدَعا لِخَديجةَ .

ثم أخذَ يدْعو إلَى اللهِ ، وَيَتَعَرَّضُ لأذَى الْمُشْرِكِينَ ، لا يَنْسَى خَدِيجَةَ ، ولا يَطِيبُ حديثٌ حتىَّ يَذْكُرَ بِرَّهَا ، وحَنَانَهَا .

وقدْ رَأَى الْمُسْلِمُونَ ما بَدا عليهِ من آثارِ الْحُزْنِ ، فَرَأَوا أَنَّ يُخَفِّفُوا حُزْنَهُ ، وفَكَّرُوا فى أَنْ يُحَبِّبُوه فى الزَّوَاجِ ، فرُبَّمَا اسْتَطَاعَتْ امْرَأَةٌ أَنْ تُزِيلَ ما به أو بعضَ ما به من حُزْنٍ على خَدِيجَةَ ، وَبَعَثُوا إليهِ مَنْ تُحَدِّثُهُ فى هذَا الأَمْر .

قالَتْ :

– يا رَسُولَ الله ! قد ازْدَادَ ما بلكَ مِنَ الوَجْدِ[1] علَى خَدِيجَةَ ، حَتَّى بَدا أَثَرُه فى وَجْهِكَ وَجِسْمِكَ ، فَهَلْ مَنْ يَصْرِفُ هذا الْوَجْدَ عَنْكَ ؟

قالَ الرَّسُولُ وقدْ اغْرَورَقَتْ عَيْنَاهُ :

– وَمَنْ يَصْرِفُ حُزْنِى علَى خَدِيجَةَ ؟ !

أَعَانَتْ رَسُولَ اللهِ ، وَعَاشَتْ للهِ ، وَمَاتَتْ فى سَبِيل اللهِ ؛ كانَتْ رَبَّةَ الدَّارِ وَأُمَّ الْعِيَالِ .. !

---

(١) الوجد : الحزن .

قالَتْ الْمَرْأَةُ بَاسِمَةً :

ـ أَلَيْسَ فى النِّسَاءِ مَنْ يُعَوِّضُهَا يا رَسُولَ اللهِ ، أَوْ يُعَوِّضُ بَعْضًا مِنْ حَنَانِهَا وَعَطْفِهَا ؟!

لعلَّ فى النِّسَاءِ مَنْ تُرْضِى اللهَ وَتُرْضِى رَسُولَ اللهِ !

وما زَالَتْ تُحَاوِرُهُ حتى رَضِىَ بالزَّوَاجِ ، وَأَرْسَلَهَا خَاطِبَةً لِبَعْضِ الْمُؤْمِنَاتِ ، ثُمَّ تَزَوَّجَ .

لكِنَّ وَاحِدَةً من زَوْجَاتِهِ لم تَسْتَطِعْ أَنْ تُنْسِيَه خَدِيجةَ ، وَلَمْ تَنْزِعْ من قَلْبِهِ حُبَّهَا وَذِكْرَاهَا .

كانَ يُحِبُّ ابْنَتَهُ رُقَيَّةَ حُبًّا شَدِيدًا ، لأَنَّهَا كثيرةُ الشَّبَهِ بِأُمِّهَا خَدِيجةَ ، يُذَكِّرُهُ بِهَا جَمَالُهَا ، وَإِشَارَاتُهَا ، وَأَلْفَاظُهَا ، وَبَسْمَتُهَا الرَّقِيقَةُ ، فَيَدْعُوها وَيُطِيلُ النَّظَرَ إِلَيها ، كما يُطِيلُ الاسْتِمَاعَ إلى حَدِيثِهَا .

فَلَمَّا ماتَتْ رُقَيَّةُ ، بَكَى ، وَأَحَسَّ حُزْنًا شَدِيدًا ، وَشَعَرَ وَهُوَ يَدْفِنُهَا أَنَّه يَدْفِنُ ابْنَتَهُ ، وَيَدْفِنُ زَوْجَتَهُ خديجةَ الْوَفِيَّةَ .

وكانَ لا يَخْرُجُ مِنَ الْبَيْتِ ، حتى يَذْكُرَ خَدِيجَةَ وَيُثْنِى عَلَيْهَا ، وَيَدْعُو لَهَا ، حتى أَحَسَّتْ إِحْدَى زَوْجَاتِه بَعْضَ الْغِيرَة

لهذهِ الْعِنَايَةِ بخَدِيجةَ ، فَلَمَّا ذكرَها أَمَامَهَا ذاتَ يَوْمٍ ، قَالَتْ بَاسِمَةً :

ــ هلْ كانَتْ إلاَّ عَجُوزًا أَبْدَلَكَ اللهُ خَيْرًا مِنْهَا ؟ !

فبدَا الْغَضَبُ فى وَجْهِهِ ، وَصَاحَ قائِلًا :

ــ لا وَاللهِ .. ! مَا أَبْدَلَنِي اللهُ خَيْرًا مِنْهَا !

آمَنَتْ بِي إذْ كَفَرَ النَّاسُ ، وَصَدَّقَتْنِى إذْ كَذَّبَنِى النَّاسُ ، ووَاسَتْنِي بمالِهَا إذْ حَرَمَنِى النَّاسُ ، وَرَزَقَنِي اللهُ منها الْوَلَدَ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ النِّسَاءِ .. !

وكانَ كُلُّ نَصْرٍ يُذَكِّرُهُ بِخَدِيجةَ الَّتى كانَتْ تَفْرَحُ لَهُ ، وَكُلُّ هَزِيمَةٍ تُذَكِّرُهُ بِخَدِيجةَ الَّتى كانَتْ تُوَاسِيهِ .

كانَ إِذَا غَنِمَ تَذَكَّرَ خَدِيجةَ ، وَوَدَّ لو كانَتْ حاضرةً فَيُعطِيَهَا وَيَرُدُّ لَهَا بَعْضًا مِنْ جَمِيلِهَا .

وكانَ يَغْتَنِمُ كُلَّ فُرْصَةٍ لِيَعِيشَ مَعَ رُوحِهَا ، فكانَ يُعْطِي مَوَالِيَهَا ، وَيَصِلُ صَدِيقَاتِهَا ، وَيَبَرُّ حَبِيبَاتِهَا ، وكانَ إِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ يَقُولُ :

«أَرْسِلُوا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجةَ ، فإِنِّى أُحِبُّ حَبِيبَاتِهَا» .

وَفَى لَهَا الرَّسولُ كَمَا وَفَتْ للهِ وَرَسُولِهِ ، وعاشَ يَذْكُرُها ، وَلا يَنْسَاهَا ، حَتَّى لَحِقَ بالرَّفِيقِ الأَعْلَى .

بَادَلَهَا وَفَاءً بِوَفَاءٍ .. وَجَعَلَهَا لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مَثَلًا لِلْبِرِّ وَالْحَنَان ، وَالإِخْلاصِ ، وَحُبِّ الله ، وَحُبِّ رَسُولِ الله ..

* * *

الأسئلة

(١)

« كل مكة كانت تسأل عن خديجة المحبون ، والمبغضون . وكل ناد كان يتحدث عنها بما يحلو له ، ينصفها بعضهم ويذكر محاسنها » .

(أ) علام يدل سؤال كل مكة عن خديجة .

(ب) بم كان يذكرها المحبون ؟

(جـ) لم كان يهتم بشأنها المبغضون .

(د) ما أثر وفاة السيدة خديجة فى نفوس كل من المؤمنين والمشركين وما مظهر ذلك .

* * *

فهرس

رقم الايداع ١٩٨١/١٦٠٦

الكمية (٤٥٨٠٠٠)

مطابع الأهرام التجارية